

إبراهيم عبد القادر المازني

رحلات المازني

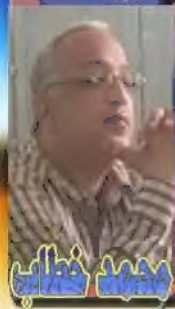
الأعمال غير المنشورة

جمع وتحرير وتقديم

عبد السلام حيدر



الرحلات المازنية
الأعمال غير المنشورة



مختار خطاب

هنا سور الأزبكية غواص في بحر الكتب باحثون

تجبرام



هنا



سور الأزبكية

إبراهيم عبد القادر المازني

الأعمال الكاملة

الأعمال غير المنشورة

المجلد الخامس

رحلات المازني

جمع وحرير وتقديم

عبد السلام حيدر

المجلس الأعلى للثقافة

بطاقة فهرسة إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية إدارة الشؤون الفنية
المازني ، إبراهيم عبد القادر (١٨٨٩-١٩٤٩) الأعمال الكاملة . الأعمال غير المنشورة ، المجلد الخامس - تطبيقات نقدية ، جمع وتحرير وتقديم : عبد السلام حيدر القاهرة : المجلس الأعلى للثقافة ، ٢٠١٠ ٣٣٢ ص ٢٤٠ سم . ١ - الأدب العربي - تاريخ ونقد (أ) حيدر ، عبد السلام (جامع ومحرر ومقدم) (ب) المصطفى رقم الإيداع ٢٠٩/١٣٢٦٨ I.S.B.N. 978-977-479-442-7 الترقيم الدولي 7- طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

الأفكار التي تتضمنها إصدارات المجلس الأعلى للثقافة هي اجتهادات لأصحابها ،
ولا تعبر بالضرورة عن رأى المجلس .

حقوق النشر محفوظة للمجلس الأعلى للثقافة

شارع الجبلية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٢٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٢٧٣٥٨٠٨٤

El Gaholayn St., Opera House, El Gezira, Cairo.

Tel. : 27352396 Fax : 27358084.

www.scc.gov.eg

فهرس المجلد الخامس

5	تمهيد عام
11	مقدمة المجلد الخامس
19	نصوص "رحلات المازني"
21	- رحلة الصحراء الغربية
61	- ملحق رحلة العراق (١٩٣٦)
69	- ملحق رحلة الشام (في مهرجان المعري) (١٩٤٤)
180	- ملحق رحلة العراق (١٩٤٥)
309	- ملحق "من ذكريات لبنان"

تليجرام



سوالس في بحر الكتب

تمهيد عام

مرت عملية نشر أعمال إبراهيم عبد القادر المازني - حتى الآن - بمرحلتين أساسيتين، في المرحلة الأولى التي أنجزها المازني نفسه يمكن أن نتبين عدة نقاط مهمة هي:

(١) أن المازني بدأ بنشر الشعر "ديوان المازني - الجزء الأول" (١٩١٣)، ثم الكتابات النقدية حول الشعر "شعر حافظ" (١٩١٣) و"الشعر غاياته ووسائله" (١٩١٥)، ثم توقف عن نظم الشعر تقريباً عام ١٩٢٠.

(٢) مع بدء عمله الصحفي بعد ثورة ١٩١٩ نشر (بالاشتراك مع العقاد) "الديوان في الأدب والنقد" (١٩٢١) ثم "حصان الهشيم" (١٩٢٥) و"قبض الربيع" (١٩٢٧).

(٣) في عام ١٩٢٨ بدأ المازني مرحلة الإبداع القصصي: حيث اهتم بجمع أعماله القصصية والروائية، بينما امتنع عن نشر الكتب النقدية، وإن لم يمتنع عن مواصلة كتابة المقالات النقدية، وقد نشر في هذه المرحلة: "صندوق الدنيا" (١٩٢٩)، "إبراهيم الكاتب" (١٩٣١)، "خيوط العنكبوت" (١٩٣٥) ونشر مسرحية واحدة هي "غريزة المرأة" لو "حكم الطاعة" (١٩٣١) التي أثارت ضجة ضخمة بسبب "انتحالها" كما ادعى البعض.

(٤) وفي عامي ١٩٣٥ و١٩٣٧ نشر على التوالي مجموعتي "خيوط العنكبوت" وفي الطريق" وامتنع عن نشر المجموعات حتى عام ١٩٤٤ حيث نشر مجموعته الأخيرة "ع الماشي".

(٥) وفي عام ١٩٤٢ نشر عدة روايات هي "عودٌ على بدء" في أبريل ، وإبراهيم الثاني في يونيو، وميلود وشركاه في يونيو أيضاً، أما "ثلاثة رجال وامرأة" فقد صدرت في يناير من عام ١٩٤٤ .

* * *

أما في المرحلة الثانية التي أنجزها آخرون، وهي المستمرة حتى الآن، والتي جرى فيها تشويه أعمال المازني بدرجات متفاوتة أعظمها الإهمال شبه التام لها، وفي هذه المرحلة يمكن أن نتيين عدة نقاط مهمة أيضاً:

(١) أول تشويه لأحد أعمال المازني تم في حياته حين نشرت طبعة مختصرة إلى النصف من "صندوق النشيا" في سلسلة "كتب الجميع" عدد مايو ١٩٤٨ .

(٢) وفي آخر ١٩٤٩ صدرت روايته القصيرة "من النافذة" . وفي لقاء خاص مع الأستاذ محمد إبراهيم عبد القادر المازني في ١٩٩٢/٤/٢٨ ذكر لي أنه نشر "من النافذة" وبعد وفاة المازني بشهرين، وأن الكتيب الذي نشر في سلسلة اقرأ كان جاهزاً للنشر قبل وفاته وأنه قد أضاف إليه بعض المقالات، ووضح أن الرواية تنتهي عند الفقرة رقم (٧) وهي السلسلة التي نشرها تحت نفس العنوان في جريدة البلاغ في الفترة ما بين ١٩٤٣/١٠/١٠ وحتى ١٩٤٣/١١/٢٨ ، وقد نشر المازني أربع مقالات أخرى تحت العنوان نفسه: الأولى في ١٩٤٢/١٢/٥ وتمثل الفقرة رقم (٨)، والثانية في ١٩٤٤/١/٢ وتمثل رقم (١٢) وهذه سقطت من الكتيب، لا ندري بمعرفة المازني أم لا، والثالثة في ١٩٤٤/١/٩ وتمثل الفقرة رقم (٩)، والرابعة في ١٩٤٤/١/٢٣ وتمثل الفقرة رقم (١٠)، وظنني أن المقالات التسع الباقية - التي كتبها المازني في عامي ١٩٣٦ و ١٩٤٤ - هي التي أضافها محمد المازني حتى يصبح الكتيب في حجم كتيبات سلسلة اقرأ!

(٢) في الذكرى العاشرة لوفاة المازني بدأت "الدار القومية للطباعة والنشر" في إحياء ذكرى المازني بإعادة طبع بعض أعماله السابقة، وجمع بعض الأعمال غير المنشورة، في كتب جديدة، ورغم أن الدار قد أحسنت بجمع ونشر بعض الأعمال غير المنشورة، إلا أنها شوهت أغلب الأعمال التي أعانت نشرها، ربما كان السبب أن لكتب الدار حجماً معيناً ومن ثم فقد تم تعديل (أو تشويه) هذه الأعمال بطريقة منظمة، حتى تناسب الحجم المقرر لها مسبقاً، والمشكلة هي أن أغلب الطباعات التالية (على سبيل المثال طبعة دار الشروق لبعض أعمال المازني) اعتمدت - ربما بسبب الكسل - على هذه الطبعة المشوهة وكتبها الأصل الذي نشره المازني في حياته! وقد حاولت تحديد هذا التشويه الذي بدأ منذ بداية الستينيات فتوصلت إلى ما يلي:

(أ) في أغسطس ١٩٦٠ تم حذف مقدمة الطبعة الأولى من "إبراهيم الكاتب" (مبيع صفحات) وهي المقدمة التي أثبتتها المازني في الطبعة الثانية عام ١٩٤٥، بل وأضاف إلى هذه الطبعة الثانية مقدمة ثانية قصيرة حذفت أيضاً في كل الطباعات التي صدرت حتى الآن.

(ب) مجموعة "في الطريق" التي جرى تشويهها في سلسلة كتاب الهلال في عدد نوفمبر ١٩٥٢ بحذف ١٤ صورة وأقصوصة، جرى تشويهها مرة أخرى على يد الدار القومية في مارس ١٩٦١ بحذف ثلاثة أعمال أخرى، ومعنى هذا أن أكثر من نصف المجموعة قد اقتطعت وتمت إضافتها إلى كتب ومجموعات المازني الأخرى!

(ج) في عام ١٩٧٤ نشرت مجلة "الجديد" رحلة المازني لمصور مهرجان المعري تحت عنوان "رحلة المشام" وادعت أن النص لم ينشر من قبل وكذلك فعلت مع نص محاضرة المازني للمؤتمر، والتشويه يأتي من هذا الاندفاع رغم أن نص الرحلة نشر في جريدة البلاغ (في الفترة من ١١ أكتوبر ١٩٤٤ إلى ٢٣ نوفمبر ١٩٤٤) تحت عنوان "في مهرجان المعري" وكذلك نص محاضرة المازني إلى المهرجان التي نشرت مرتين لا مرة واحدة: الأولى تحت عنوان "أبو العلاء الشاعر الإنساني" في عدد أغسطس/سبتمبر ١٩٤٤ من مجلة "الحديث" الذي تم تخصيصه للمعري بمناسبة

المهرجان، للمرة الثانية في "جريدة البلاغ" على ثلاثة أيام (في الفترة من ٢٠ سبتمبر وحتى ٢ أكتوبر من عام ١٩٤٤)، مباشرة بعد نشر نص الرحلة. تحت عنوان "أبو العلماء المعري، كلمة الأستاذ المازني في العيد الألفي"، من الجدير بالذكر أن منحت الجيار أصدر نفس المخطوطة في كتابه "أدب الرحلة، رحلة الشام للمازني نموذجاً" (١٩٩٤)، ورغم أن المازني لم يقم بالرحلة إلا في عام ١٩٤٤ إلا أنه يذكر أن المازني كتب المخطوطة وراجعها بقلمه عام ١٩٣٦، وربما كان الأقرب للصحة أنه كتبها ونشرها في البلاغ عام ١٩٤٤ ثم راجعها وأضاف المقيمة في عام ١٩٤٦ أو حولها.

د) في عام ١٩٧٥ أعادت دار الشروق نشر مجموعة المازني الأخيرة "ع الماضي" وكان التشويه هذه المرة بالإضافة حيث أضيفت للمجموعة خمس أقاصيص كانت قد تزعت من مجموعة "في الطريق" وهي: الوطواط، والشيخ مبارك، والبرهان، وورطة، وأرواح متألقة، ولم أستطع حتى الآن التبين إن كان هذا وقع من الدار القومية أولاً أم لا.

وقد ذكر محمد المازني لي أن ما سقط في الطباعات التالية كان بسبب غفلة عمه أحمد عبد القادر المازني الذي كان مسئولاً آنذاك عن نشر تراث أخيه، والغريب أنه رفض أن أطلع على مخطوطة "رحلة العراق" التي بحوزته - لمقارنتها بالنصوص المنشورة تحت نفس العنوان - لعدم ثقته في الأكاديميين لأن أحدهم، كما قال، قد أخذ بعض المخطوطات ونشرها دون أن يعطيه حقها! والظن أنه يوجد داع للمقارنة لأنني أتصور أن المازني قد جمع رحلتيه إلى العراق عام ١٩٣٦ وعام ١٩٤٥ تحت مسمى واحد وبمقدمة جديدة، ولأنني لم أتمكن من رؤية المخطوطة بعد؛ فقد رأيت أن أنشر الرحلتين كل على حدة مع التفريق بينهما بذكر سنة الرحلة بين قوسين.

* * *

بقى أن نشير إلى أن الدار القومية قد نشرت في الستينيات عدة كتب للمازني بمعرفة ورثته هي

(أ) قصة حياة^١ (في ١٩٦١/٥/٤) وهو كما جاء على غلافه كتاب جديد لم يسبق نشره، وهو تجميع لسلسلتين من المقالات الأولى نشرها المازني تحت عنوان "حياة الخوف من الخوف" في الفترة من نوفمبر ١٩٣٧ وحتى فبراير ١٩٣٨ وتمثل ترجمة ذاتية للفترة المبكرة من حياته الاجتماعية والدراسية، والثانية نشرها تحت عنوان "كيف ولماذا أعتزل الناس" في الفترة ما بين ديسمبر ١٩٣٨ ومارس ١٩٣٩ وتمثل ترجمة فكرية للسنوات الأخيرة من حياته الفكرية والأدبية

(ب) "مختارات من أدب المازني" (في ١٩٦١/٧/٦) وهو تجميع لما نزع من "صندوق الدنيا" وفي الطريق^٢ بالإضافة إلى ثلاث أقاصيص جمعت من الدوريات هي "حلم"، و"الطلوب مديرة بيت"، و"عقبة سليمة"

(ج) "أحاديث المازني" (في ١٩٦١/٨/١٠) وهو كما جاء على غلافه كتاب جديد لم يسبق نشره، وهو يستوي على عدد من الأحاديث والمقالات والصور والأقاصيص، وهذا ما يمكن أن يقال أيضاً عن كتاب "سبل الحياة" الذي نشر في نفس الفترة. ويحتوي على مجموعة من المقالات والصور التي لم يسبق جمعها في كتاب مع استثناء واحد يتمثل في قطعة "خواطر في مرقص" المنزوعة من "صندوق الدنيا"، في هذه الفترة تعرضت "من النافذة" مرة ثانية للتشويه حيث زبدت فقرتين، وأضيف لها ملحق جديد هو "صور من الحياة" الذي حوى ثمانى أقاصيص جمعت لأول مرة

ورغم أن عدد صفحات هذه الكتب الجديدة يقارب الخمسمائة صفحة، إلا أنه بقي الكثير من كتابات المازني التي لم تجمع، لذا عرمت على تتبع كل ما نشره المازني لجمعه وتوثيقه، حتى يتيسر إصدار أعماله الكاملة، ولا بد أن أشير إلى أن هاجس إخراج أعمال المازني الكاملة كان - وما زال - يرافقني منذ دراستي إياه (في الفترة ما بين ١٩٩٠ و١٩٩٤) لنيل درجة الماجستير، وكنت آنذاك قد جمعت كمية هائلة من هذه الأعمال، وعندما وجدت الفراغ للطلوب والاستعداد المبدئي من قبل الدكتور جابر

عصهور لطبع الأعمال الكاملة للمازني، على أن نبدأ بالأعمال غير المنشورة، عدت إلى ما سبق أن جمعتها وشرعت في جمع الباقي أو نسخه، ورغم صعوبة الأمر، خصوصاً بعد ضياع أو تزيق بعض النوريات القديمة مما جعل العمل في بعض الأحيان يشبه عمل علماء الحفريات، إلا أنني واصلت العمل لجمع وبحرير ودراسة الأعمال المجموعة هنا، وقد اعتمدت في ذلك على بيليوحرافيا أعمال المازني التي أعدها حمدي السكيت ومارسندن جونز ورغم اكتشافني أنها، في بعض الأحيان، لم تكن دقيقة بما فيه الكفاية، حيث نسبت للمازني أعمالاً لاسمه محمد أو لاسميه إبراهيم المصري، إلا أنها أفادتنني في إعداد هذه الأعمال للنشر فالشكر الجزيل لهما

وقد قسمت الأعمال المجموعة هنا، على أساس موضوعي، إلى ثلاثة أقسام، قسم التأملات والفكرات، ويقع في المجلد الأول من الأعمال غير المنشورة ويضم ما نشره المازني من مقالات تعرض فيها لذكر بعض أحداث حياته وتأملاته حولها وحول الحياة بصفة عامة. وفي المجلد الثاني والثالث جمعت ما تيسر جمعه من المقالات والدراسات النقدية وقسمتها بعرض التسهيل إلى "تطورات نقدية عامة" و"تطبيقات نقدية"، أما المجلد الرابع فخصص لقسم الأشكال السريرية سواء كانت قصيرة مثل الصورة والأقصوصة والمقال القصصى أم طويلة مثل الرواية، أما المجلد الذي بين أيدينا وهو الخامس والأخير في مجلدات الأعمال غير المنشورة فتم تخصيصه لرحلات المازني التي لم تنشر في كتب، أما رحلته التي نشرت من قبل، "رحلة الحجاز" (١٩٣٠)، مسووف تنشرها في المجلد الأول من مجلدات الأعمال المنشورة، وهي المجلدات التي تمثل المرحلة الثانية من نشر الأعمال الكاملة لإبراهيم عبدالقادر المازني وتقع في عشرة مجلدات تشمل السيرة والرحلة (مجلد)، والأعمال النقدية (مجلدان)، والأعمال القصصية (مجلدان)، والأعمال الروائية (مجلدان)، والأعمال الشعرية (مجلد)، والأعمال المترجمة (مجلدان).

وأخيراً لا يسعني إلا أن أشكر كل من مد يد العون لإنجاز هذا العمل وأخص بالذكر موظفي مخزن النوريات بدار الكتب المصرية مجيب عبد العظيم، وعبد الحكيم على محمد، ومحمد عبد الحसन، وخالد سعيد وأستير مسعد مقار، كما أتوجه بالشكر للمجلس الأعلى للثقافة وأمينه العام الذي وقف خلف هذا العمل حتي اكتمل.

عبد السلام حيدر

مقدمة المجلد الخامس

أشرت في مقدمة المجلد الرابع إلى أن عام ١٩٢٨ يمثل مرحلة جديدة في حياة المازني الأدبية، وهي المرحلة القصصية وكان قوامها التذكر والاستمارة، لقد كان لديه حين دائم إلى الماضي فكانت أفكاره لا تفتأ تلقت إلى الخلف، وإذا غلب الاجترار على هذه المرحلة، ولكنه كان لا يفتأ أن يخرج من سياقات حياته ليقوم برحلة خارجية قام بتسجيل بعض منها (المجاز والعراق والشام) وعزف - للأصق - عن تسجيل بعضها (رحلاته إلى لندن) أو سجل بعضها بشكل متشظى (كما في رحلاته الصيفية إلى لبنان)، وسوف نتناول في هذه المقدمة الوجيزة محتويات هذا المجلد أي رحلتي المازني إلى العراق ورحلته إلى الشام وبعض ما نشره عن لبنان.

(١)

تمثل الرحلة لدى المازني - وربما لدى غيره - شكلاً كتابياً ملفراً خصوصاً في علاقته مع سيرة المازني الثانية.

فالمازني - تبعاً لمتون رحلاته - يفهم الرحلة بوصفها أحد أشكال السيرة الداتنة المصودة زمنياً بفترة سفره وما يدور خلاله، ولأن الرحلة نص مرز ومتنوع ومفتوح على كافة الحقول الكتابية الأخرى فإنه يستظها كمنقذ لرسم صورته وللروح واجترار الذكريات؛ فمسطور رحلاته لا تظلو من ذاته وشخصيته التي تتجلى في طريقة فهمه للأمور وتناوله لها، فهو يبرز ما يراه بنملائه وخواطره عن ذاته وعوالمه، في الغالب ضمير المتكلم المفرد وأحياناً بضمير المتكلم الجمع، فتحدثات الرحلة تلجئه كثيراً إلى

تذكر ماضيه البعيد مثل ما حدث في "رحلة الشام"^(١) فملابس منع من دخول فلسطين وتطيره الذي سبق ذلك يذكره بالتطير الذي سبق وفاة زوجته الأولى، وزيارته لطب، مدينة الموسيقى كما قيل له، تذكره بمحاولته تعلم العزف على الكمان في صغر حياته، وما حكاها عن الشاعر "بنو الجبل" يذكره بالكيفية التي بدء بها استخدام اسم أسرته بعد أن كان معروفاً باسم جده، وفي رحلة الشام كما في رحلة العراق الأخيرة يفصح عن أنه يكره أن يتام مع أحد في عرفة واحدة "فاللأنم يكون على غير ما يدرى من الأحوال والأوضاع، ولست استمرئ أن يرانى أحد على حال لا دخل للإرادة فيه" (رحلة العراق- ١٩٤٥، فقرة ٤)

ولكن الملاحظ أن المازني لا يميل في تصوره رحلاته إلى اتخاذ سمات الراوى المهيمن، بل يحكى عن أخطائه وهفواته ويتحدث بترحيبة عن لباقة وشهامة الآخرين كمن يقول: "وما أكثر ما أقال إخواني المصريون من عثراتي وأصلحوها ما أقسد بحماقتي"^(٢)، وهنما يدعى للمحاضرة أمام جمع غفير من الطالعات يقدم وصفاً مدمراً لذات يقول فيه: "وأنا نقيق الشعور بنفسى مرهف الحس إلى حد المرض، ولا يخفى على - وليته يخفى أو يفتر الإحساس به - أنى قصير فسى، وأنى نعيم وقد شاع الشيب في رأسى كحار الحريق ذات الوقود" وإنى فوق ذلك أعرج، وإن كان لا ذنب لى فيما أصابنى، فإحدى رجلى أقصر من الأخرى، وأحد الحداثين أعلى من الآخر، فالتشويه تام كما ترى، ولست بإنسان إذا لم يدر هذا فى نفسى وأنا واقف كالتمثال أمام أربعمائة عين تجلاه لمتنين من القديرات الفاضلات" (رحلة العراق- ١٩٤٥، فقرة ١٨).

(١) مشرت جريدة البلاغ (فى الفترة من ١١ لكتوبر ١٩٤٤ إلى ٢٢ نوفمبر ١٩٤٤) تحت عنوان "فى مهرجان المعري"، وفى عام ١٩٧٤ أعادت مجلة "الجديد" نشر رحلة المازني تحت عنوان "رحلة الشام" وأدعت أن النص لم ينشر من قبل وكذلك قطعت مع نص محاضرة المازني المؤتمر، والأولى أن نص المقدمة فقط (عدد فبراير ١٩٧٤) هو الذى لم ينشر من قبل وقد أقصفتاه فى نشرتنا هذه وذلك فى السياق الذى وضعه المازني فيه (المحرر).

(٢) راجع فيما يلى الفقرة الخامسة من "رحلة الشام" فى مهرجان المعري.

(٢)

تشكل رحلات المازني مواصلة من جانيه التقاليد أحد أشكال السرد العربي القديم الذي يعود إلى القرن التاسع الميلادي تقريباً، وهي رحلات تلصص أيضاً عن أحد أشكال تلوّنه بما قرأه من وعى الرحلة في اللغة الإنجليزية، وبصفة خاصة رحلات الكاتب الأمريكي ساميول لانجهورن كليمتو ، الذي اشتهر بـمارك توين (١٨٣٥ - ١٩١٠)، ويلاحظ أن المازني كان يصجر من اتهامه بالنقل عن مارك توين، وقد أشار إلى ذلك (عام ١٩٢٩) فقال - قال عنى بعضهم إنني نقلت "مذكرات حواء" عن "مارك توين" الكاتب الأمريكي، وصحيح أن "مارك توين" سبقني إلى الوجود وتقديسي في الحياة، وأنه عاش ومات قبل أن أجيء أنا إلى هذه القديا بحقبة طويلة، وصحيح أيضاً أن له "مذكرات حواء" ولكن غير الصحيح هو أنني نقلت عنه أو سلطت عليه، ولو قال العائب إنني اقتست به أو قللته بأن تتاوات موضوعاً سبقني إليه، لكان هذا أشبه بالحق^(٢) .

ولعل هذا الأمر يصح أيضاً على أول رحلاته "رحلة الحجار" التي قال بعض نقاد المازني إنه ينقل فيها عن كتاب مارك توين "آبرياء في الفارج" (١٨٦٩)، فيبدو أن المازني كان يقتاس طريقته في بناء أو تشكيل أو صياغة الرحلة كتص.

كانت رحلات المازني مرسومة لأنها تتم بدعوة، ومنظمة من قبل الداعين له، ومن ثم فإن عصر المخاطرة فيها محدود، وقد اقتصررت رحلاته - عدا رحلته إلى الصحراء الغربية - على الشرق العربي، وربما لم تكن أية دعوات من دول المغرب العربي أو أنه كان ممنوعاً من دخولها.

وهي رحلات دائرية أي يعود رايوها - في الغالب - إلى نقطة الانطلاق حيث تم الكتابة الثانية التي تعتمد على ما دونه إبان الرحلة وتتميز بالكثيف والتفصيص لذا يقول في رحلته إلى العراق عام ١٩٤٥ "فإنني أهيئ لهذا ككتابين أرجو أن يرمقني الله

(٢) المازني تاريخ الحركة القومية ١ - استطراد، كالمجلة الأسبوعية في ٢ مارس سنة ١٩٢٩، (ص ١٢).

فأخرجهما قريباً بعد أن أتلقي ما تركت في العراق من أوراقى^(أ)، فهو يدون أشياء إبان رحلته، وربما بعض تفاصيلها وانطباعاته عنها فقط، ثم يهونها أى يتفحصها ويكتفها قبل النشر

ويمكن تقسيم كل رحلة إلى بداية تشمل الهدف والعزم على الخروج والتوق إلى الارتحال والتحرر، ثم السفر والانتقال ويتضمن وصفاً مفصلاً لحاله وحال أصحابه وما يحل بهم من المكاره أو المهالك، ثم الوصول إلى الهدف (الحجاز أو العراق أو الشام) ومرحلة العودة التى يتحدث عنها بإيجاز شديد

من عادة المازنى فى مفتتح نصوصه أن يذكر نوعية الدعوة التى تلقاها للقيام بالرحلة وطريقة استجابته لها، وأن يشير إلى بعض أهدافه من القيام بها، وهو يقوم برحلة الصحراء القريبة بناء على دعوة من الجيشين المصرى والإنجليزى ويقدم نبذة عن تفاصيل العلاقة بينهما، وعن بداية ونواضع "رحلة العراق الأولى" (١٩٢٦) وربما تكون الرحلة الوحيدة التى قام بها دون دعوة رسمية، يقول: "قلما همعنا بالسفر إلى العراق من فلسطين واقترح صديقى الأستاذ أسعد داغر أن نطير إليه [العراق] من غزة، ولكنه أخذ يحاور ويداور حتى أقنع صاحبه بالسفر إلى العراق بالسيارة، وكان فى "رحلة الشام" (١٩٤٤) مندوباً عن مجلس نقابة الصحفيين المصرية، أما "رحلة العراق الأخيرة" (١٩٤٥) فيخبرنا فى الفقرة الأولى منها أنها كانت بدعوة من مدير الدعاية العام العراقى ويتزكية من صديق قديم للمازنى أصبح آنذاك مراقباً عاماً للإذاعة العراقية.

والجزء الخاص بالسفر يكون أحفل بالمرئى والمسموع، ويكون حضور كل من الجغرافيا والتاريخ قوياً، وهو أمر طبيعى ومنتظر فى الرحلات لأنهما يرسخان السمة الواقعية التى تتبعها الرحلة لتضفيها، فى هذا الجزء يصف المازنى ما يرى ويكاد من الجغرافيا ويقدم الملاحظات التاريخية إبان ذلك، وهنا يتبع فكره الخاص، وموهبته،

(أ) المازنى: "مقدمة رحلة الشام" مجلة الجديد، فبراير ١٩٧٤، (ص ١٢).

وحجمه الداخلي وتلعب ثقافته وجبراته السابقة دورها في تعميق وتكثيف ما يرى مما يشير انتباهه

(٣)

ولأن الرحلة كفن مسوعات عدة أهمها شهوة الاستكشاف، فكل رحلة حتى وإن تمت بدعوة هي رحلة "استكشاف"، خاصة وعامة، تنزع إلى تحقيق هدف ما عبر تجربة الارتحال والضرب في الأرض للتعرف على الآخرين وحكاياتهم وطريقة حياتهم

وقد كان هذا بعض ما يسعى المازني إليه حين يصل إلى هدف رحلته، فمنون رحلاته تؤرخ، بطريقتها التي تميل إلى الحوارية، للحالة الاجتماعية والسياسية والثقافية للأقطار التي يزورها وهي تفيض بالملاحظات الحية، والتفاصيل الدقيقة، والملاحظات الطريفة، والمعرفة التي تستنتجها عن طريق المشاهدة والمعاينة وتمحيص الحقائق وتعد جميعها من الشروط الأساسية لكتابة الرحلة.

ومازني في هذه الرحلات يجمع الأقوال والحكايات، التي تؤيد رؤيته في الحياة وللتقارب الذي يامله بين أقطار المشرق العربي. ولقد كان المازني مسكوباً بفكرة الروح العربية وضرورة استكشافها، ففي الوقت الذي وجدت فيه تيارات تدعو للفيتيقية والفرعونية نجده يطور من خلال الرحلة انفتاحاً على المشرق العربي بهدف الاستكشاف والتعارف والتقارب نهيداً للتعاون، فالمازني في رحلاته مهووم بما أسماه "روح المشرق العربي الواحدة" وهي الفكرة التي يكررها تحت مسجيات عدة مثل "روح العروبة" أو "المعنى العربي" أو "الحركة العربية"، وهو لا يخفى أن هذا هو الهدف المباشر والدافع الأساسي لرحلاته. أن يثبت لقلائه تلك القرابة الروحية التي لا فرق فيها كما يقول "بين العراق والشام ولبنان وفلسطين والحجاز ونجد واليمن"، ثم يضيف: "وقد عجز الحكم التركي الطويل عن مسح هذه الروح وتشويهها"^(٥)، وهين يقارن بين مصر وسوريا يقول: "الروح العربية هناك [في سوريا] أعمق وأعم وأشمل،

(٥) رجع فيما يلي الفقرة (٦) من "رحلة الشام - في مروج المشرق"

وما من سورى، متعلم أو أمى، إلا وهو يعد نفسه معرّفاً فى العروبة، فلا هندية ولا فرعونية، ولا حيرة بين أصول شتى، متقاربة أو متباعدة، وإنما هى العروبة صرفاً^(٦)

لقد كان التعرف على الجوانب التى تبرز هذه الروح فى الأماكن التى يروىها هو هدف المازنى الأساسى دائماً، مرحلاته - أو الصيغة التى قدمها بها - كانت بمثابة محاولات متكررة لاستكشاف هذه الروح العربية المشرقية الواحدة

وكان المازنى يتميز فى كل هذا بالحرص، فهو لا يتهمز إلا قليلاً، وعلى من يعرف فقط، ويعد أن يأخذ كل احتياطاته، كما تميز بأنه مستمع جيد يتوخى أن يهبط أكثر مما يقول، وفى رحلة العراق الأخيرة وضع لنفسه عدة قواعد صاغ أولها هكذا "القاعدة الأولى التى وشعتها لسيرتى فى العراق أن أسمع ولا أتكلّم، وأبس معنى ذلك أنى قضيت على نفسى بالكم، أو قطعت لسانى، ولكن معناه أنى انتقيت الفضول والتفعل"^(٧)، ويشير إلى مبدئين أساسيين التزمهما فى رحلته كلها فيقول:

"حرصت فى كل رحلاتى، وهى كثيرة، على مبدئين لم أحدّعهما قط، وإن كانت سبلات المودة والصداقة بينى وبين كثيرين من أبناء البلاد العربية الضيقة، تفرى بالتبسط وترك التحريز والتحفظ، فلما المبدأ الأول فإننى لا أدخل فى أمر داخلى للبلاد التى أزورها، أو أتطفل عليها بالخوض فى شئونها أو أتعرض بخير أو بشر لأحد من رجالها وأما المبدأ الثانى فنّ أكون مصرياً حقاً لا يعرف غير مصر ولا يجعل باله إلا إلى سمعتها، ولا ينكرها ولا يسمح بنكرها أو نكر أحد من رجالها بخير الحير، وهو يدعو كل كاتب أن يحتذى هذا حتى لا يسئ إلى سمعة مصر أو يقض من مقامها فى الشرق العربى"^(٨).

وفى نهاية هذه المقدمة الوجيزة نشير إلى أن لبنان قد حظى بمكانة فريدة لدى

(٦) راجع فيما على الفترة (١٨) من "رحلة الشام" فى مهرجانى المرسى

(٧) راجع فيما على الفترة (٧) من "رحلة العراق" (١٩٤٥).

(٨) راجع فيما على مقدمة "رحلة الشام" - فى مهرجانى المرسى

المارسي الذي كان يصطحب أسرته إلى هناك لقضاء الصيف بصفة شبه سنوية، وقد أشار أكثر من مرة إلى أنه - وأسرته أحياناً - كان يسافر إلى الإسكندرية فيقضي فيها أياماً ثم يبحر من هناك إلى بيروت^(٩). وفي لبنان كان يكثر الإقامة والتردد على منطقة "ضهور الشوير" التي يصفها بقوله "الشوير ضيعة" كما يسمونها، أو قرية في واد يشرف عليه الحبل ، فهذا هو "الضهور" أو الظهور^(١٠)

وقد استلهم هذه الربابات في الكثير من كتاباته التي نشر بعضها في أعماله المعروفة تحت العنوان الأثير لنيه، "من نكريات لبنان"، والذي نشر تحته أغلب هذه الفصول السردية، وهنا نورد طائفة من قصوبه التي جمعناها حول هذا الموضوع، وأثرنا كذلك، أن نرتبها تاريخياً

عيد السلام حيدر

(٩) المارسي كيف صرّف الله على الصبغة، الرسالة، ٢٨ يناير ١٩٣٥. (ص ١٢٤).

(١٠) المارسي عسرا في دار الرسالة، ٢٢ أكتوبر ١٩٣٤. (ص ١٧٣-١٧٣٧).

"رحلات المازنى وملحقاتها"

(مرتبة تاريخياً)

رحلة الصحراء الغربية

في مرسى مطروح^(١)

يظهر أن الذي بيني وبين الصحراء غير عامر، وإن كنت ابنها، وكانت هي عندي - على خرابها - أثر من العمران. فما اعتسفتها مرة إلا هاجت بي، وأقبلت علىّ تحفر في وجهي وتحصنني بالرمال وبقاق الحمى، كأنما يريد أن ترجمني أو يخنقني، وأقد كانت تنظفر بي مرة، وأنا في طريقي إلى العراق، أولاً أن أذكرتنا رحمة الله، وهنا أيضاً في مصر. دعينا إلى زيارة مرسى مطروح وشهود ما فيها من عدة حربية، فليينا الدعوة فرحين معبطين شاكرين فما كنا ننزل من القطار في "ميدى حنيش" ونستقل سيارة الجيش المصري حتى تلقّتنا بهبوب كاد يرهق أرواحنا ولم يجد في انتقائه ما كسوا به عيوننا، وما وضعنا على (أفواهنا وأنوفنا)، وكانت السيارة مكتشوفة والطريق وعراً لا آخر لما فيه من الحفر والنقر فقضينا ساعة ونصف ساعة في زوال دائم لا ندرى أيهما أقسى علينا وأعنف بنا - هذه الرمال التي تنفذ إلى عيوننا وطوقنا وتمنع أنفاسنا أن تستوى وتنظم، أم هذه الراجات الشديدة التي تشبهنا وتحلنا وتقلبنا على مقاعنا وتكار تقذف بما على الأرض؟

وتختلف صحرائنا هذه عن صحراء العراق، في أن صحراء العراق منبسطة الرقعة مستوياتها، ففي وسطك أن تختار لنفسك طريقاً سهلاً فيها، ولا خوف من الصلال ما دامت عينك على ما تهتدي به في قياقيها وسياسيها، أما صحرائنا فلا رأي لك معها ولا اختيار - وهما طريقان كانا معبدين فلتلفتهما كثرة الحركة عليهما

(١) البلاغ، ١٨ مارس، ١٩٣٦، (ص ١).

فصار كل منها شراً من الآخر، ولا حيلة لأحد في ذلك ولا ننب، ولا سبيل إلى تخفيف الحركة، ولا إلى إصلاح الطريق، كلما أثقلت السيارت الثقيلة، وهذه المتاعب التي شق أمرها علينا، هي أهون ما يكابده رجال الجيش، كان الله في عونهم وقواهم.

على أن ما لقنناه ساعة وصلنا إلى عرسي مطروح، من اللطف والإنسان وحسن المودة والكرم والصفوة أساءاً كل ما عانينا في الطريق، فقد حف بنا الصباط من الإنجليز والمصريين على السواء، وكنا ضيوفاً على الجيش المصري، ولهذا نزلنا في مركز قيادته أو لا أدري ماذا يسمونه فإني أجهل الناس بهذه الأمور، فحوصونا بفرقة كانت في الأصل مكتباً، فرفعوا منها المكاتب وما إليها، ووضعوا فيها الأسيرة وسائر ما يحتاج إليه الضيف، ولو أنزلونا في إحدى الخيام لما كان لنا وجه اعتراض، ولكنهم ترققوا بنا، وأثرونا على أنفسهم

وكان يرافقنا من مصر ضابط من المدفعية البريطانية اسمه الكبتن ووبروف وهو من أحسن من رأيت من الناس بمائة خلق ورقة حاشية وكرم طباع، وقد نزل مع رفقائه، وكان من حسن حظنا أن صحبتنا هناك من الجيش المصري اليزيياشي محمود على شوقي أهندي والكبتن بارفورد وكلاهما من أركان الحرب في الحيشين، وكنتما انتقيا انتقاء، وأخشى أن أثنى على اليزيياشي شوقي أهندي فيقال مصري يثنى على مصري، ولكن الحقيقة أنه جدير بأوفر حظ من الثناء كضابط وكرجل، أما الكبتن بارفورد فستظل نكرى الأيام التي قضيتها معه، من أسعد ما أضن به على النسيان، ذلك له يمثل حير ما في الخلق البريطاني من رجولة وعزم وشهامة وبعة وظرف وكرم، وغير ذلك مما قامت علي دعائمه القوية هذه الإمبراطوية الضخمة التي لا تغرب عنها الشمس، ولهذا قلت إنه كنتما انتقى انتقاء هو وزميلك اليزيياشي شوقي أهندي.

وليس في وسعي أن أفي صاحب السعادة اللواء محمود شكرى باشا قائد القوات المصرية هناك حقه من الشكر، فقد أبى له مروءة نفسه إلا أن يولينا من العطف والرعاية والبر فوق ما نستحق أو يستلزم الأمر، فكان لا يني يتقدما ويتبعنا ويسهر على راحتنا وييسر لنا الأمور ويذل المصاعب، وعلى الرغم من استمرار الهبوب في

اليوم التالي لوصولنا فقد أتى إلا أن يرينا كيف يقوم الجيش بالأعمال الموكونة إليه، وهي كثيرة متنوعة، وشاقة معقدة، ولم يكن في هذا متكلفاً غير طباعه، فإبه على ما رأينا وسمعنا - يسهر على راحه كل جندي تحت أمرته، سوره على ابنه

ويجب أن أسجل هنا شكري للقائد العام، ولم يكن هناك، ولكنه مع ذلك أمر بدعوتنا إلى الشاي دعوة مقرونة بالاعتذار لاضطراره إلى السفر إلى مصر، ولما جرد جبرال هورن الذي ناب عنه في استقبالنا وإكرامنا والمفاوة بنا، ولكل صابط إنجليزى لقينا، فقد كنا في حيثما نهدنا نجد صدور رحبة، واستعداداً تاماً لإطلاعنا على كل شيء وشرحه لنا على أوفى وجه، وحسب القارئ مثلاً أن أحد الضباط الكبار كانت ساقه مهضبة ومع ذلك رافقنا أميالاً عدة ليرينا بنفسه ما في منطقته، وكان يصعد معنا ويهبط ويتكلف العناء الشديد والجهد الجاهد فإذا تقدمنا إليه نرجو منه أن يريح نفسه صطك وقال إن الطبيب أمره بالمشى وإن هذه هي الطريقة الحديثة للعلاج، وأزيد القارئ بياناً لهذه الروح الكبيرة فنقول إن ساقه كانت في (الكس)^(١٢) وهو يمشى معنا، فتلأ!

ولمست هذه سوى أمثلة لمروءة القوم ورجولتهم، وسيرد على القارئ غيرها في مقالات أخرى

(١٢) هكذا في الأصل وربما يهي الكس وهو الجير أو الحجر الجيري (الحرير)

فى الصحراء الغربية

حياة الناس فيها وواجب الحكومة نحوهم^(١٣)

(٢)

كان ما رأيته فى مرمى مطروح من العدة الحربية دليلاً مادياً على أن العرب بعثرة للمال والجهود والأعمار فى غير طائل، ولقد سألت تقمى مراراً - وسألت من لقيت هناك أيضاً من الإطباء المصريين - عما كسبت أو ما كانت إيطاليا يمكن أن تكسب من هذا التهديد الأخرق الذى كلفها وكلف بريطانيا ومصر كل هذه الأموال الطائلة والجهود الشاقة التى أريقَت فى الصحراء؟؟ وأسست من رجال الحرب ولا لى أننى علم بالمشؤون العسكرية، وقد كان لكل ما شاهدته هناك سمر الجدة وممتعتها، ولكنه مع ذلك لم ينسى، بل هوئى سخطى وتقمتى على الذين يفتنون بالأمم فى هذا الجحيم، ولا أنرى لماذا تستطيع الأمم أن تحارب وتتقاتل، ولا تستطيع أن تتعاون وتتآزر؟؟ وليس الجهد الذى تتطلبه الحرب يفسر ولا أهون من الجهد الذى يقتضيه السلم والمتأخى، بل الأمر على العكس، فإن الحرب نكبة، وعذاب غليظ، وهى تورث الناس بلايا لا أحر لها، وطول الاستعداد لها يعمى الفؤوس، ويزيغ الأبصار ويبلبل الخواطر ويوجهها وجهة السوء والشر.

وليس من همى هنا أن أعط، ولو كان لى صوت يسمع، لقلت وأسمنت، ومن أجل هذا أَعفى القارئ من حديث الحرب ومعداتها، فإنه باب لا يطيب لى القول فيه، وقد

(١٣) البلاغ، ٢٦ مارس ١٩٣٦، (مرا).

كان الذي غنيت به وأنا في موسى مطروح، جالس الحياة في هذه الرقعة المحطة، وقد سمعت من محافظ الصحراء الغربية - جرين بك - أنه كان عام جفاف فاجذبت الأرض، وأشقى الناس على الهلاك والبوار، وهموا بالرحيل إلى وادي النيل الذي لا ينقصه أن بهجم عليه عشرات الألوف من الجياع المتضورين، لولا أن فض الله لهم الدوتشي - أي موسولينى - فزجج بريطانيا وعصر، فأرسلتا جيوشهما فراجت البلاد بعد البوار وشيع الناس بعد طول السعب، ورب ضارة نافعة

ومن مظاهر هذا الرخاء الذي لم يكن لأحد في حساب، أن البيت الذي كان كراؤه لا يزيد على جيبه واحد، صار يؤجر بثمانية جنيهات، وأن الدجاجة الصغيرة بلغ ثمنها عشرة قروش وريادة، وهكذا في غير ذلك.

وقد عيّنت محافظة الصحراء الغربية بإيجاد موزق ثابت للناس غير المراعى فغرست لهم مائة ألف زيتونة على أن تزيد ذلك بمسعة آلاف كل عام، ولو أن الحكومة أمدتها بالمال اللازم لغرست الكروم أيضاً فإن هذه المنطقة كانت مشهورة في الزمن القديم بلعنابها، وقد رأينا معاصر كبيرة للنيذ كشف عنها الحود وهم يحفرون هناك، ولا أدري أهى من العهد الرومانى أم أقدم من ذلك، ورأينا كذلك نيراً يصفونها بأنها رومانية ويقول الموظفون الموكلون بها إنها قرعونية على الأرجح، وليست هي نيراً بالمعنى الصحيح وإنما هي قناة طويلة في جوف الأرض تعترض ما يتسرب من مياه الأمطار في طريقه إلى البحر في باطن الأرض، وتجريه في مجراها، فيبقى وينتفع به الناس، وحدثني الموظف الإنجليزى المشرف عليها أن الطلمبات التى ركبت عليها إلى الآن فى مواضع شتى تخرج منها مقادير كافية من الماء وذكر لى أن نولة صنقى بأبنا هو الذى اعتمد المال الذى يتطلبه تلهير هذه القناة أو البئر المظمورة وإصلاحها ومنها

وقد تركت المحافظ وقد اقتضت بأن على الحكومة المصرية واجباً لا مهرب منه لسكان هذه الصحراء، فما يجوز تركهم تحت رحمة السماء، فإن جادتهم أخصبوا وأمرعوا وأكلوا وشبعوا، وإن احتبس المطر جاعوا وتضوروا، واسططروا إلى الرحيل، وقد كانوا قبل أن يتمكن إيطاليا من طرابلس، يرطون إليها إذا أجبدوا فإدا نزل المطر

عاندوا، وكان منو طرابلس يفعلون ذلك أيضاً على ما قيل لى، ولكن الحكومة الإيطالية وضعت الأسلاك الشائكة على الحدود ما بين طرابلس ومصر ومنعت هذا التنقل الذى تدعو إليه الحاجة ويحمل عليه شبح السماء فى بعض السنين، فصار حطت البنى فى صحراء مصر القريبة أنهى، ومصيبتهم أعظم، فهم أحوج ما يكونون الآن إلى عون الحكومة ورعايتها، وإلا اضطربهم فى سبى الحطب أن يحدروا إلى وادى النيل، وعند وادى النيل كفاية من العاطلين، ولا أظنه يحتمل جيشاً عرمرماً يخرجه الجوع من صحرائه ويقذف به على المدن والقرى

فلعل هذا الصوت الضعيف يلتفت الحكومة إلى واجب عمرانى لا يخو طول
لنعاضى عنه من خطر غير قليل.

رحلة العراق

(١٩٣٦)

(١)

الصحراء^(١٤)

كنت أظن أنني أعرف الصحراء، وأزعم أنني بها خبير، وكنت - لغروري - أشبه بها نفسي وأقول فيما كتبت عنها إنني كنت فيها قبل ميلادي وإنني بعضتها أو قطعة منها، وأعل ذلك بشئ اتحدت من قوم كانت الصحراء موطنهم، وأروح أصف ما يبدو لي من حالاتها الجمّة وأطوارها المتنوعة، وقد أقمت على حافتها أربعة عشر عاماً فلما فلتها وأحببتها، وصبرت أتمنى لو أوتيت القفرة على نقلها معي في الحل والترحال وفرشها ويسطها حولي في حيثما أكون من الأرض وإنها مع ثيابي في المقائب، حتى إذا نزلت مكاناً - واستوحشت نفسي - أتصت بفن أخرجها وأنشرها أمامي وأتللها وأنكر بها ليال فيها بما اشتملت عليه، حتى زمني كنت أشبهه بها وأقول - أيام كنت لجهلي أنظم الشعر -

فياي رمان ظلت أشير طولها ومالي سوى رمضانها منقلب

وكان يخيّل لي أنني عرفت سرها واستبطنت كنهها، وكنت أستمحل في هذا الوهم فلتصور أنها أرض غابت عن رشدها وفقدت وعيها فهي لا تحس أو تتنبه، وتارة تبدو

(١٤) نشرت في "مجلة" أول يوليو ١٩٣٦ (ص ٢١١-٢٢٠).

لي كأن القدرة التي سبقتها قد ملتها وانصرفت عنها ونسيتهما وشعلت سواها
فانطفأ عليها وأرثى لها، وكثيراً ما يجمع بي الغرور فأقول إني ألح فيها عروق العلة
الأولى وشراسنها وأنسجتها، ويا ربما توهمتها مخاً عارياً ينشئ ما لا يدري

وقد ضريت في صحراوات شتى في مصر والحجاز - ضريباً عرفت الآن أنه كان
هيباً قصير المدى - وأدركت أن العفة من الرمل ليست هي الصحراء - ولكني كنت
أحسب أنني عرفت ما فرغت منها وكان ظني أن شئها أبداً واحد لا يختلف ولا يتغير،
وأن كل ما فيها أنها رقعة منبسطة نكث على وجهها الرمال ويشق فيها السير، فلما
همننا بالسفر إلى العراق من فلسطين واقترح صديقي الأستاذ أسعد داعر أن بطير
إليه من غزة قلت له

“لا يا شيخ خسارة”

فسألني عن الخسارة ماذا أعني بها أي خسارة المال أم خسارة العمر؟

فقلت: “لا هذا ولا ذلك - وهل لنا مال نخشى عليه الضياع ونشفق أن نخسره -
أما العمر فقد ذهب إلى الآن خير شطريه مع الرياح الأربع، فلو ضاع ما بقي منه لما
كأن هذا مدعاة الجزع، وما أظن أن في الآتي عوفاً عما فات، إنما الخسارة التي
أعنيها أن نغير الصحراء في طيارة فلا نراها رؤيها، فاسمع مني - فإني أسن منك
في زعمك، بارك الله لك في هذه الصيغة الريانية التي لا تحول لونها - واحذر أن تقلد
روتشيلد”

قال: “روتشيلد؟”

قلت: نعم، ماذا يبقى من الفرق بيني وبينه إذا كان كلانا يتخذ الطيارة مطية في
أسفاره ويدفع الأجر عيه - نواصب لله يا شيخ
فسألني “ولكن ماذا تبغي، تركب جملًا؟”

قلت: “سبحان الله العظيم يا أخي - ألا يوجد بديل من الطيارة إلا الجمل؟ ولماذا

لا نساخر بالمعبارة فنتملئ بكل شبر من الصحراء.

فحذرتني وأخذتني أنني سأتعب، ولكني سخرت من تحذيره وقلت له

"لا عليك، وماذا تعرف أنت عن الصحراء، إني أنا أبدها، أما أنت فأين المدينة المترفة المرفهة"

ولم أزل به أحلوه وأدلو به وأمسح منه في الندوة والفارب على نحو ما يفعل الأطفال حين يتعلقون بابائهم ويلثمون أنفهم وأطراف ثيابهم ليقصوا لهم حاجاتهم، حتى صدر عن رأيي

ولا أطيل فإنني أخشى إملالك إذا كنتم نصعون إلى هذا الحديث^(١٥) وليت من يدرى أمصفون أنتم أم مصرفون إلى لهو آخر، ولا أكتكم أني أشك في أن صوتي يبلغكم وأنا واقف في هذا المخرن أمام حديدة أكلها وأعزى نفسي مأثها لنقل الصوت ونقشيه في الدنيا وأكبر ظني أن الذي جاء بي إلى هنا وأغراني بالكلام وحدي كالمجانين بضحك مني الآن في سره وليتني أستطيع أن أسمع نفسي لاستوثق، فأبى أخشى أن يكون الأمر كله فكاهة، ولست أستغرب أن أحلس إلى الرانيو وأنصت إلى ما يذاع، ولكني لا أكاد أصدق لوصوتي يجاوز هذه الجدران التي تحيط بي، وما أشوقني إلى الفراغ من هذا الحبيث والخروج من هذا المحبس لعلني ألقى واحداً سمعني فأمنأه عن صوتي كيف وجده فيكون كريماً طريفاً ويحشني عن نبراته العذبة وكيف وقعت من نفسي، وعن كلامي الطويل وكيف اشتهي أن يطول وأسف لما انتهت، فاطمنن ما علينا

توكلنا على الله الذي لا يموت وركبنا السيارة قبيل الفجر من عمان عاصمة شرق الأردن ومعنا سائقان يتأويان ويربح أحدهما الآخر فإن الشقة بعيدة والمسافة

(١٥) أتبع هذا الحديث بالرانيو (للرسي).

ألف كيلو متر على خط مستقيم، وهيئات أن يستقيم في الصحراء سير أو أن يكف
الراكب عن التلوي والتعرج واللف وال دوران التماساً للأرض المسهلة واجتنباً للحفر
والوعور، وإيست من هنا طريق بغداد بل من الشام، ولكننا اضطررنا أن نعتسف
الصحراء من هذه الناحية لأننا ممنوعان من دخول الشام، ولولا ذلك لركبنا من دمشق
مع الراكبين بنفقة قليلة وبلا عناء ينقي

وكان أول الطريق بروياً في الجبال، فغضضت عيني وقلت أستوفى حظي من
النوم حتى نفرغ من الجبال ويستفس الصبح وتبدو لأعيننا الدنيا، والطريق في هذه
الجبال وعراً جداً، والنزول فيها غير معهود، والمحاضات كثيرة في بطون الأودية،
فالرجات لهذا متتابعة وعنيفة مزعجة، والسير بطيء ولا سبيل إلى نوم أو راحة، ولكني
خفت أن أظهر التبرم بكلمة أو إشارة فيقول لي صديقي إنها مشورتني المحسوسة،
ورأيت أن الأحزم أن أصبر على هذه الزلزلة - ولا بد من الصبر على كل حال - وأن
أتلوم اتقاء الوم، على أن الأمر لم يطل إلا ساعة ويصبر ساعة ثم خرجنا مع الصبح
إلى صحراء يسمونها "المرّة" وهي أرض مستوية فسيحة مقطاة - أو على الأصح
مهروشة - بصخور ظاهرها أسود كالفحم، كتما حرقت في النار، ويأطنا مما يلي
الأرض بلون الرمال أي أصفر، وهي منعلوبة الحجوم، متشاكلة كأنها منحوتة
ومرصومة بيد إنسان على وجه الأرض، وقد قالوا لي إنها صخور بركانية وإن هذا
هو تعليل سواد وجهها، أما بياض قلبها فلا تعليل له، وقد احتاجت الحكومة وشركة
النفط العراقية الإنجليزية أن تشقا في هذه المرّة طريقاً للقوافل والسيارات اجتزائه
في نحو ساعتين

وما كنا نخرج من المرّة حتى أسفتنا عليها وتمنينا أن نرجع إلى وجهها الأسود
أو أن نمتد هي إلينا وتزحف علينا وتحف بنا، فما لقينا فيها عناء أو مشقة، أما بعدها
فالصحراء رمال بديقة ناعمة يطيرها التسيح الواني فكيف بالرياح العاصفة؟ وشاء
سوء الحظ أن تتور في هذه اللحظة زويدة شديدة، ولو تلخرت نصف ساعة لنجونا،
فإن منطقة الرمال لا يزيد طولها على عشرين كيلو متراً، ولو أحسنا بها قبل الوقوع

فيها لدعنا أدراجنا، ولكنها أدركتنا فجأة بعد أن تورطنا فيها فإدنا حوافنا أسوار عالية من الرمال، وإذا نحن لا نرى حتى ولا مقدمة السيارة فاستحبال السير ووقفنا ننتظر أن يصفر الجو وأن تسكن ثائرة الرياح، وكان ظفنا ألا يطول الأمر، فلم نر أن نجارف مخافة أن نقع في حفرة لا نراها أو أن نصطلم بصخرة محجوبة أو أن نضل إدنا نجونا من التردى في الحفر والتحطم على الصخور، وكنا نهتدى في سيرنا بخط أنابيب البترول الممنودة من الموصل في العراق إلى حيفا - ميناء فلسطين - وبأعمدة التليفون على محاذاه الخط، فقاب الخط واخفت الأعمدة، وأظلمت الدنيا وانقبضت الصدور وتوترت الأعصاب، وكان زجاج النوافذ مقلقاً ولكن التراب كان ينفذ مع ذلك إلينا ويدخل في أنوفنا وحلقنا وعيوننا ويدمينا، فاطبقنا أجناسنا ووضعنا المناديل على أفواهنا حتى كانت تهزق أرواحنا، وشر من ذلك أن الريح - لشدتها - كانت تحمل نفاق الحمى فتحصب بها السيارة، فالتفت إلى صديقي وقت - ولنا أحول أن أسرى بالمزاج عن نفسي :-

"إن السماء ترجمنا يا صاحبي، وأرواحنا الآن في يدك"

قال "كيف؟"

قلت: "لأنك رجل نصراني، ولهذا غضبت عليك سماء المسلمين، فأسلم بسرعة - هي كلمة تقولها فتنجو جميعاً.. أسرع".

فضحك ولم يفعل، وسماعت الفرملة

وخلفنا أن يكسر الحمى الزجاج فيكون الهلاك المحقق، وكانت صفاديق البنزين خلف السيارة فقلنا هي وقاية كافية الزجاج الظفي. فجعلنا ظهر السيارة إلى مهب الريح، ورحنا ندور معها كلما اختلفت مهابها خوفاً على زجاج النوافذ الجانبية، فقلنا اتجاهنا الأول لكثرة ما تحولنا إلى اليمين واليسار، وكان معنا الطعام والماء والدخان ولنا سمنا عن ذلك كله فطامنا عنه نفوسنا لتقاء التراب، وقال صديقي بهاتينى

"لو كنا سافرن بالطيارة لكنا الآن في بغداد".

قلت: "صحيح، لو زرنا (أول) قى أرض (يا ريت) لخرجت هابت".

قال: "طيب".

وحول وجهه عنى وقد أثر الترفق بى، ولكنى لم أترفق به فقلت:

"إنى لأوكك لك أن الأمر كله فى يديك - أسلم تسلم".

فلم يجب فتمسكت عن الكلام.

ونفذ صبرنا بعد ساعتين من هذا الكرب، فقلت لهم إن الجو يصفو من حين إلى حين يضع ثوان فيحسن أن نقتحم فرصتها لتتقدم بضع خطوات، فإن الحركة أرفق بأعضابنا من هذه الرقفة الثقيلة، فخشى صديقى أن نضل إذا سرتا أو أن يصيبنا سوء آخر، وكان على حق، واقترح أن نقطع أسلاك التليفون ليحى من يصلحها فينقذنا، فقلت لو رأينا الأسلاك أو الأعمدة لا احشجنا إلى منقذ فإن الساء أننا لا نرى شيئاً، وعلى أننا علمنا فيما بعد أن الرياح تكلفت عنا بتقطيع الأسلاك وأن القوم انتظروا حتى تمر العاصفة.

وقال أحد السائقين: "وسنخرج وأنفض المكان، فما أظن أن الأعمدة بعيدة".

وما كاد يفعل حتى أعمته الرمال وحملته الرياح إلى حيث لا يرانا ولا نراه، ففقدنا وفقدناه، ولم نكن نعلم ذلك، فلما أبطأ علينا فيما نص - والحققة فى مثل هذه الأحوال تكون أطول من المام - جزعنا وجعلنا ننقح له فى البوق، ليهتدى بصوته، ولكن الرياح كانت تعصف كالرعد فلصصنا عن هذا العبث الواضح، وكان زميله موقناً أنه هلك، ففحشا بيكى ويعول فزاد بكازه فى تلف أعضائنا، وكنا لا نخالينا شك فى أن الزبينة قد بلغت، ولكننا لم نكن ندرى لماذا نصنع لتنقذه - أنخرج لتبحث عنه؟ - فذاك خلق أن يلحقنا به، ووقعنا فيما صار إليه، أم ندور بالسيارة، ولكن إلى أين؟ وهو لو كان على مسافة خطوة منا لانسناه بون أن نراه - وشق علينا مصرعه ولنا أنفسنا لانا تركناه يخرج، وكان ينبغي أن نقدر أنه لا محالة ملاق حتفه، ولم يطق زميله صبراً ففتح النافذة وأطل منها ويده على عينه وانطلق يصيح: "يا ببرى - يا ببرى" وهيهاات

أن يسمعه بدرى، وأمتلا جوف السيارة تراباً فعظم البلاء واشتد الكرب واضطربنا أن نرده عن النافذة ونظفها

وتغير في هذه اللحظة مهب الريح فحولنا السيارة خوفاً على الزجاج أن يتحطم، وكان بدرى وراءها وعلى خطوات منها ولكنه لا يبصرها، وكان منطرحاً على وجهه لا يجرد أن ينهض على قدميه - كما حدثنا - مخافة أن تقذف به الريح على مصفرة أو تلقى به فى هاوية، فصدمته السيارة صدمة خفيفة، ونحن نديرها فتعلق بها وجعل يضربها بكفه ونحن نظن أن هذا صوت الريح، أو وقع الحجارة، فلما تبعد دار حولها وهو ممسك بها حتى وجد الباب مفتحة وانحط على كرسى، وقد سألته بعد ذلك لماذا أوهى يده بضرب السيارة؟ فقال: إنه كان لا يعي ما يفعله وأنه لم يكن يخاف الموت وإنما كان يحشى الجنون، وله العذر، فقد سمعنا بعد ذلك أن واحداً من عمال شركة البترول خرج فى ذلك اليوم فى سيارة قوقع فى هذه العاصفة وعجز عن الخروج منها، فجعل يسير فى دائرة وهو يظن أنه ماض على استقامته حتى نفذ البنزين فطار صوابه ولم يطق البقاء فتترك السيارة، وقد أطلقوا وراءه الطيارات والسيارات فلم يمشروا له على أثر

وبعد أن حمدنا الله على نجاة الصائق واستراح هو وما أمهابه شرعنا نعمل بما كنت أشرت به - أى أن نبحث عن خط الأنايبب والأعمدة ونقدم خطوات كلما صفنا الجو، فما بقى من الحركة مقر - كانت ما كانت العاقبة وإلا جئنا وبعد لائى ما امتدنا إلى طريقنا، ثم قطعنا كيلومترين فى ساعة ونصف ساعة، وإذا بنا عند محطة الشركة، وقد خلفنا حول سورها أربع مرات نبحث عن بابها فلا نجد؛ وكان أمام الباب صفان من البراميل ملأى بالرمال لتثبيتها، فكنا نمر بينها ولا نبصرها ثم إذا بنا فى المطاف الأخير فى مدخل الباب.

وقال الحارس: الدخول ممنوع.

فقلنا: إنا هالكون إذا لم نفعل ولا بد لنا من جدار نؤى إليه ونحتفى به.

فجاءنا بخفير للشركة دعانا إلى الاستراحة فجلسك بعضنا ببعض ويتناول واحد منا يده وسرفنا مغمضى العيون: فذهب بنا إلى بناء قريب بظناه؛ فإذا هو حجرة مستطيلة صفت فيها السرر لحفراء الشركة، وكانوا جميعاً هناك؛ ولا أدري ماذا كان إحساس الذين معي، ولكنى أدري أن قلبى جعل يعلو ويهبط (كاليويو) من فرط السرور بمرأى السرر وشدة الحنين إلى الرفاد على واحد منها، وجاؤنا بماء غسلسا وجوهنا ورؤوسنا وسقونا شايًا وقهوة وأخرجنا السجلات مانقلينا مداخلنا

ومضت ساعة ولم تسكن الرياح، فتعساطنا. ما العمل؟ فئشاروا علينا بأن نذهب إلى المخفر لنعرض جوازات سفرنا - ولا يد من هذا على كل حال - ولكننا كنا نرجو أن نفعل ذلك فى جو أصفى، وكان أملنا أن ندعى إلى المبيت على هذه السرر وإن كانت غير وثيرة؛ ولكن القوم اكتفوا من الكرم بالقهوة والشاي وأسس الحديث، فذهب بنا الخفير إلى المخفر أسفين محزونين، وهناك وجدنا موطناً ظريفاً لم يكتف بانساي والقهوة ولا بالإعراب عن العطف علينا فى محنتنا والأسف لما أصابنا؛ فقال لنا حين استشرناهم

“هذه غرفتى وهى مكتبى وسريرى موضعة كراس كما ترون، فإن شئتم بقنا جميعاً فيها وخير من ذلك أن تكتبوا إلى مهندس الشركة وهو إنجليزى فإنهم يكرمون الضيف”.

ففتناولت ورقة وكتبت إلى المهندس شارحاً حالنا راجياً منه أن يؤوينا باى ثمن؛ فجاءنا رد رقيق يدعونا إلى الحضور فحفظنا إلى المحطة فرحين، وإذا بها مدينة عظيمة داخل السور؛ فيها بنى عيدة وبيوت شتى للموظفين، وأخرى للضيافة، والبيوت مجهزة بتحدث وسائل التهوية والتدفئة، وقد أفرودوا لنا بيتاً قائماً بذاته، فيه غرفتان للنوم وأخرى للاستقبال وحمامان، وجللونا بالطعام الشهى والشراب المنعش فكانت ليلة حميدة بعد نهار أسود، وسألونا متى نحب أن نستيقظ فقلنا.

“بعد العاصفة، فليست أنوى أن أفتح عليها عيني مرة أخرى وأبقى هنا إلى آخر العمر”

ونمت وأنا أفكر في أمر هؤلاء الإنجليز الذين يعيشون في الصحراء وينقلون إليها كل ما تستطيع المدينة أن تمنعهم به من وسائل الترفيه، ويتلقون الحماية كما تمنى، ويقابونها بالصبر والبشر والامل، وفي هذا المهندس الإنجليزي الذي لم تمنعه العاصفة التي كانت تقتلنا أن يخرج إلى عمله المضمنى وأن يظل يماشره النهار كله، وأن يعود أشعث أعبر، ولكنه ضاحك الس مشرق الوجه منسبط الأسارير - يعزح ولا يشكو ولا يتدمر أو يتقف أو يتفج، ولا يتم الحماية ولا يسخط على الحظ؛ ولا يظهر الحدين إلى معاهد صباه ومدارج شبابه، ولا يتحصر على المسارح والملاهي؛ ولا يتلف على المراقص؛ كأنما كان قد ولد وشب وترعرع في هذه الفقار ولم يعرف غيرها، ولم يسعني وأنا أتدبر هذا إلا أن أنصور المصري الذي يكره أن ينقل من القاهرة إلى الجيزة ويعد بلاد الصعيد منفى ولا يزال - إذا نقل - يسعى ويرجى الوسطاء والشفعاء إلى رؤسائه ليربوه على القاهرة ويبعوا غيره، كن في الدنيا حكومة يمكن أن تحشد موظفيها جميعاً في عاصمتها وبهمل سائر ما عداها

وقد كنا ونحن في العاصفة نمنى المطر ليرقد التراب، ولا يزال أحدنا يقول لصاحبه كل بضع دقائق أما لو نزل المطر - إذن لنجونا - وكان خوفا حين ركبتا السيارة من عمان أن يجوبنا من السماء هاضب فينقذ الماء إلى ما في حقائبنا، وتسل ثيابنا، ولهذا أبينا إلا أن نضعها في قلب السيارة، فلم يصيبنا ما كنا نخشى بل أصابنا من الرياح معصفات غير معصرات تنفي بالتراب الضائق ولا تنفي بالماء المنعش؛ وقد علمنا بعد أن عينا من رحلتنا أن مطراً غريزاً نزل في عمان وما جاورها، وأن إخواننا أشفقوا علينا من الأحوال في الطريق ومن نقايا السيل في الأجراف، وما برأ أننا كنا نتلف على قطرة من هذا الذي كانوا يحلفون علينا من

واستأنفنا السير قبيل الفجر، وكان الوقت طلقاً والليل ساجياً ساكن البرد والريح والسحاب فكان من أغرب ما شعرت به لنى كنت أرانى دائم التصديق في الطريق والنظر إليه لأنه كان يخيل لى أن أمامنا بنى وأن الطريق يميناً ويساراً، فلتلق وأخشى الاصطدام أو التحطم، وكان هذا يكبر في وهمى حتى لأهم بتنبه السائق وتحذيره ولا

شيء هناك يتقى، ولا يمين للراكب ولا يسار، إن هو إلا قضاء متقافف تختار منه ما يطيب لك، وأحسب ذلك راجعاً إلى أمرين - تأثير الظلام وما بتجسد فيه للعين من الصور التي ينشئها الخيال ويركبها من أشباح ما يلوح للمرء أو يبدو له أنه يراه، والثاني أثر المياه الطويلة في المدن، فكأن المرء لطول ما ألف من عمراتها ونظامها لا يسهل عليه - حين ينتقل فجأة إلى القفار - أن يخلو ذهنه مما اعتاد أن يتوقعه ويجده في كل حال، وقد بلغ من ذلك أنني نهشت وهرعت حين رأيت سيارة مقبلة علينا وأبصرنا سائقنا يميل بنا إلى اليسار لا إلى اليمين كما هو المألوف في شوارعنا

ووسعنا في يومنا الثاني هذا أن نضحك ونمزح وتكلم وتشرب ونحن مسافرون، وأدركنا الراتب فسمعنا موسيقى الحرس الملكي تداع من المحطة المصرية وأسفنا لما انقطعت الإذاعة إلى ثوانها بعد الظهر

واجترنا حدود العراق وبلغنا لولي المحطات، قلقينا ضابط كريم لطيف، وبدد عطوفه أيت له مروءة إلا أن يرافقتنا إلى الرطبة حتى لا نضل بعد أن تنحرف عن خط الانابيب، ولم يكن الضباط العراقيون في الرطبة دونة مروءة وأريحية فلكروا وقادتنا ثم أرسلوا معنا شرطياً يصحبنا ثلاثمائة كيلو متر إلى الرمادي قرب بغداد، ولم يقطعوا ذلك لأنهم عرفونا ولا لأن أحداً فوصاهم بنا، فما كان نحد يطم أننا ذاهبون إلى العراق وإنما فعلوا ذلك بالمسجبة وجروا فيه على عرق قديم في المروءة والكرم والشهامة.

ومن أوقع ما وقع في نفسي من هذه الصحراء أن الإنسان يقف فيها وجهاً لوجه أمام الطبيعة بلا معين - هو أضعف ما يكون، وهي أظفى ما تكون، وكل شيء فيها قاتل إلا أن يلطف الله في قضائه، وقد رأيت في هذه الرحلة كيف تكون السيارة القوية البيئة المجهزة بالمعدات اللازمة للطوارئ جميعها في رحلة طويلة شاقة - من أنوات ووقود وماء وغير ذلك - أفضل المطايا وأقلها عناء على حين يستطيع الجمل أن يكون أهدى مسيلاً وأمن أيضاً، فلا يزال الجمل - كما كان - سفينة الصحراء على الرغم من الطيارات والسيارات.

وفي الصحراء يفقد الإنسان الإحساس بالأيام فلا يعود يعرف أى يوم هذا، أهو

المسبت أم الثلاثاء مثلاً، وكل ما يدريه - إذا لم يحرم على الحساب، أن هذا نهار وهذا ليل، وقد نسيما فعلاً أي يوم كنا فيه فاختلفنا على قرب عهدنا بالعمراء.

ولم أستغرب ما قرأته عن البدو وقدرتهم العجيبة على الاهتداء بالنجوم وعظم فطنتهم إلى دلالة الآثار التي يروونها على الأرض، فإن الصحراء تحوج إلى ذلك، وقد كان سائقنا، بعد أن دخلنا صحراء العراق وانحرفنا عن خط الأنابيب يقتضي آثار العجلات، ولا ينتظر إشارة الليل، ويهتدي وحده بها ويفرق بينها، وهذا هو العريب، فيترك طريق الشام وطريق نجد ويتبع طريق بغداد بإلهام النفس المجرية

وقد كان لي رأي في تشابه المزاج الذي تحدثه حياة الصحراء وحياة البحر، وكنت أقول لنفسي إن طبيعة الصحراء كطبيعة البحر وأن كليهما قوة غادرة لا أمان لها ولا أطمئنان إليها ولا سبيل إلى كبح طغيانها، فلنخلق بأن يكون أثرهما في تكوين الشخصية واحداً، وكنت أفرع على ذلك نتيجة أخرى فقول إن الألب الإنجليزى لهذا السبب، أخرى بأن يكون أشد موافقة في جوهره لمزاج العربي من الآداب اللاتينية كالفرنسي والإيطالي وما إليهما، وإن روح الأديبين الإنجليزى والعربي، واحد وإن اختلفت المظاهر وتوعدت الشكول وتباينت الموضوعات، وإن أبناء العربية أحق بأن يكونوا أحسن فهماً للأدب الإنجليزى منهم للآداب الأخرى، ولكني كنت أحجم عن المجاهرة بهذا الرأي مخافة أن أكون قد شططت فيه، فلما كانت الرحلة إلى العراق ورأيت البدوى الذي لم تمسكه المدنية، والإنجليزى الذي قذفته البحار على هذه القفار وكيف يتلقان الحياة ويستجيبان لها بروح واحدة، زمت اقتناعاً برأى هذا وإصراراً عليه واستعداداً للجهر به، وأيس هذا وقت الإفلاضة فيه فصصى أن أشير إليه

والتقينا في عربتنا بشيخ من شيوخ العشائر يقيم في الجابية، فسألنا عن الجبهة الوطنية والمفاوضات والأمل فيها وبما لحصر بخير، فقال لي صديقي بعد أن عدنا إلى السيارة

”هذا يدري لا يبرح الصحراء ولا يخرج منها ولا يقرأ الصحف، ومع ذلك يعنى بمصر هذه العناية ويسأل عن أخبارها“.

فأنطرفت وقد خجلت. فإن قومي كانوا لا يعنون إلا بأنفسهم^(١٦)

ولم تلق مشقة في الإياب، ولكن شيئاً واحداً ملا نفسي سروراً وأسفاً في آن معاً، ذلك أن حكومة العراق، جزاها الله خيراً، تقضت فأعزت ريادة في تكريمنا أن ترافقتا إلى الحدود سيارة مسلحة، على سبيل التكريم كما قالت لا لحراستنا فإن الأمن مستتب وطيد، فقمنا بها مسافة ثمانمائة كيلو متر، ومات على صاحبي وقتل. ”إنى أسف“

وأضرت إلى السيارة المسلحة، فسكنني فقلت.

”هذا تكريم ضائع في الصحراء لا يراه أحد ولا يحس به ديار، ما الفائدة منه إذا كان لا يشعر أو يدري به مخلوق؟“.

ودار في نفسي قول ابن دلويد: ”الكل باطل وقبيح الريح“.

(١٦) أشار الفرنسي إلى هذه اللجونة مرات عدة لعل أشملها هو ما ورد في مقالة جيمس ”مصر والعراق“ (البراق في ٢٨ فبراير ١٩٣٦) وسوف يجد القارئ هذه المقالة في ملحق الرطتين (الحدود).

في بغداد^(١٧)

(٢)

دخلنا بغداد ليلاً - والطريق إليها ممهّد مرصوف ولكن بعضه - نحو ثلثه - أرض مسحاء مستوية ذات حصى صفار كيعض السهوب التي قطعناها من قبل، وكان الظلام حالكاً والسعاء مطبقة على الأرض بمطر رقيق دائم كنا نستغيث بعلمه قبل يومين فلا نفاث، وكنت أنتظر من نافذة السيارة فلا أرى شيئاً إلا أعمدة التليفون حين ندفو منها أو نحاذيها في سبورتنا، وكنت إذا بعدنا عن الأعمدة وغابت عن عيني يخيّل لي أن السيارة تهتز وتكور عجالاتها وهي في مكانها لا تدمه ولا تتجلوره، ذلك أن الحركة قياس إلى السكون، والشعور بها لا يكون إلا بالقياس إلى جسم ثابت، فإذا كنت لا ترى الأرض ولا شيئاً آخر مما يكون عليها اقتصر الأمر على الشعور بهدة الحركة - أو بالثقل - وتعذر الإحساس بتورع الحركة واتجاهها، وليس أثقل على النفس من هذه الوجة إذا كانت مقترنة بانتفاء الشعور باتجاه الحركة التي نحدثها، لهذا كنت دائم الإلحاح على السائق أن يبتو من الأعمدة لأعفى نفسي من ثقل هذا الشعور ولكنه كان يظن أنني أخاف أن نضل أو نصطدم فليطمئنتي ويتقى لي إمكان ذلك، فأنهم بأن أشرح له الأمر على وجهه الصحيح ثم أرى أن هذا عبث فأرد نفسي عنه.

واجترينا في طريقنا جسراً جديداً على نهر الفرات حضر صديقي الأمتاذ أسعد دأعر الاحتفال به في رحلة سابقة له على عهد المغفور له الملك فيصل، والجسر ضيق

(١٧) نشرت في "مجلة" ١٥ يولييه ١٩٣٦ (مره-٢-٢١٢).

جداً لا يتسع لأكثر من سيارة واحدة، وكان مغطىً وحارسة نائماً فبقينا نفتح لنا، وما كنا نجتازه حتى أخذ يعبر ورائنا ويصيح بنا ويتكلم كلاماً حسيباً فارسياً ثم علمنا أنه عربي ولكن لهجته عجيبة وعرفنا أنه يطلب منا "الجور" أي رسم المرور وهو ثلاثون فلساً - أي ثلاثون مليماً - فإن الجنيه - ويسمونه الليتار - ألف فلس أي ألف مليم بلفتنا المصرية، ولم تستغرب أن يتقاضونا رسم مرور على هذا الجسر فقد كان عنينا في مصر رسوم يتقاضونها على اجتياز الجسور في الأقاليم ولم تلغ إلا بعد أن صدر القانون الخاص بضرائب السيارات، ولكن الذي استغربناه في أول الأمر أن في بغداد نفسها جسراً قديماً - يسمونه جسر مود - كلما مرت عليه سيارة أنت لحارسة مثل هذا الرسم ثم علمنا أن الغرض من هذه الإتاوة جمع مبلغ كاف لبناء جسر جديد - ومن كان يقتني سيارة فهو في سعة كافية تسمح بأن يؤدي إتاوة المرور على الجسور - ولكن من أعاجيب الحظ التي يرى مثلها في كل مكان في هذه الدنيا أنني علمت أن كبار الموظفين يعفون من أداء هذه الإتاوة على سياراتهم حين يجتازون بها جسر مود فلا يزال صحيحاً في بغداد - كما هو صحيح في مصر وغيرها - أن الثني المطبق يلقى في حياته التسهيل والتذليل وأن الفقير المسكين قلما يلقى غير التصعيب والعقلة.

وكانت الساعة العاشرة حينما بلفنا بغداد فتراد صديقي أن يخاطب بعض إخوانه بالتليفون فجاءه بدفتر قلبه ونظر فيه ثم هز رأسه ورعى به إلى وقال انظر أنت وسمى اسماً - ففتحت النقر لأبحث عنه فلم أمتطع أن أهتدي إليه وخيل إلي أنه بدفتر خاص بمصالح الحكومة وتوابعها وموظفيها وحدهم فقد وجدت الحكومة في كل صفحة وتحت كل حرفه ولكننا تبيننا بعد ذلك أن أرقام التليفون جميعاً - من حكومية وغير حكومية - موزعة على حروف المعجم فليس هناك صفحات خاصة بالحكومة وأخرى للأهالي كما هو الحال عنينا

ولما حاولنا أن نتكلم بالتليفون بعد ذلك وجدنا عقبة أخرى، ذلك أن لهم في أب الأرقام اصطلاحات غير معلومة عندنا، مثال ذلك أن تطلب رقم ٢٢٢هـ فإليك تقول في مصر ٢-٢-٢ - أما في بغداد فإنهم يقولون ٢ مكرر ٢ وهكذا كلما تكرر رقم، وقد

أخذوا ذلك عن الإنجليز كما اقتبسوا بضعة ألفاظ من لغتهم شاع استعمالها بينهم فتراهم مثلاً يسمون خادم الفندق boy أو waiter ويسمون السيارة motorcar ويطلقون على سائقها كلمة driver ويطلب الواحد منهم زجاجة بيرة فيقول أعطني a bottle of beer ولم يسعني إلا أن ألاحظ ذلك بسرعة فإن للإنجليز في مصر فريقاً وخمسين سنة ومع ذلك ينثر جداً أن ترانا نستعمل في لغتنا ألفاظاً من لغتهم، وقد يفعل بعضنا ذلك على ميليل التطرف أو التطاهر أو لأنه يرى الكلمة الإنجليزية أسرع إلى لسانه أحياناً من الكلمة العربية ولكنه ليس هي لغتنا ألفاظ مقلتها من اللغة الإنجليزية على الرغم من نصف قرن من الاختلاط الوثيق، ولا شك أن أساليب التعبير عن المعاني والخوارج تآثرت بالأساليب الإنجليزية ولكن هذا يشبه تأثرها بالأسلوب الفرنسي في التعبير فلا ميزة للغة الإنجليزية على غيرها في هذا الباب وهذا طبيعي فإن الذي تستند ثقافته الحديث إلى لغة أجنبية ما لا يسمعه إلا أن تتأثر أساليب تفكيره وأساليب تعبيره باللغة التي نعلم ونتق بها، ولكن احتذاء أساليب التعبير الغريبة فيما لمس الحاجة إليه ولا تسعفه لغته فيه يحدد اللغة الأصلية ويزيدها لينا ومرونة وسطوعة كما يوسع أفقه هو أن يكثر اطلاعه في تلك اللغة الأجنبية، والأمر على كل حال مقصور على المتعلمين، والمهم والذي أريد أن ألفت إليه النظر أن لغة الكلام أو اللغة العامية التي نتحدث بها لم يدخلها شيء قط من لغة الإنجليز وإن كنا قد عاشروناهم وخالطناهم أكثر من نصف قرن وأعجبنا بكثير من صفاتهم وخصائصهم، بل الغريب أنه شاع في لغتنا العامية من الفرنسية - بل حتى من الألمانية واليونانية والإيطالية كثير من الألفاظ فأصبحت مألوفة متداولة مثل "جرسون" و"شيك" و"بردون" و"بونجور" و"بوتسوار" إلى آخر ذلك مما لا داعي إلى استقصائه ولكنك لا تسمع أحداً من عوامنا أو خواصنا يدعو خادم القهوة أو الفندق boy أو waiter أو يسمى السائق driver ولو فعل أحداً ذلك لكان الأرجح ألا يفهمه المخاطب إذا كان من العامة وإن كان من الماكوف أن يدعو الأول garcon والثاني charyfour مثلاً .

وأنا أظن ذلك بئس في المصريين مناعة طبيعية وعناداً قومياً هو الذي جعل الشعوب الكثيرة التي أغارت عليهم واستولت على بلادهم زمناً طويلاً أو قصيراً تفتي

فيهم ولا يفتنون هم فيها، ولذلك تراهم يتخذون عن الفرضيين واليونان وغيرهم - في اللغة والعادات وأساليب الحياة - ولا يتخذون عن الإنجليز كما لم يتخذوا عن الترك الذين حكموا مصر قروناً، وفي كل بلد غير مصر حكمه الترك أثر باق ملحوظ حتى في نظام البيوت إلا في مصر لأن لمصر شخصية قديمة ثابتة يتعذر أن تنزل عنها - حتى لو شئت هي أن تنزل عنها - كما يتعذر أن ينزل الفرد عن شخصيته حتى ولو كان جاهلاً غير مدرك لها أو محيط بمجراتها.

وفي عامية بغداد ألقاظ لا أدرى من أين جاءت، مثال ذلك "أكو" بمعنى "يوجد" فتقول "أكو معي فلوس" أي يوجد معي فلوس،

"ماكو" بمعنى "لا يوجد" فتقول "ماكو معي شيء" أي ليس معي شيء، وهي مركبة من كلمتين - "ما" وهو أداة النفي المعروفة و"أكو" التي عرفناها وإعل "أكو" هذه أصلها "أكون"

ومن الألقاظ الغريبة أيضاً كلمة "خوش" بمعنى حسن أو جيد فتسمع أحدهم يقول "ألقي فلان خوش خطبة" أي ألقي خطبة حسنة جيدة

وثم ألقاظ أخرى شائعة ولكنها عربية الأصل منها "زور" بمعنى حسن وقد تسمع الناس في مصر يقولونها ولا سيما في الأرياف.

ومبسوط ولها في العراق معنى هو عكس ما يفهم منها في مصر، والمبسوط في مصر هو المسرور المنشرح الصدر الراضى عن الدنيا، وقد يفهم منها العامة معنى اليسر والفنى وخصب العيش وإينه، أما في العراق فالمبسوط هو المضروب علة وإذا قلت لواحد "أبسوط فلاناً" فهم من ذلك أنه تريد منه أن يشبعه ضرباً.

ومن التعابير الغريبة أن تسمع واحداً يسألك كيف لوتك؟ أي كيف حاله أو كيف صحتك،

وأكثر من ترى يقول "إي" بمعنى "نعم" أو "أيوه" في عاميتنا

وما لقيت أحداً في بغداد إلا تبينت أنه في الجيش أو كان فيه في وقت من الأوقات - ذلك أن العراقيين رجال حرب يقاتلونهم وقد كانوا في العهد التركي يؤثرون أن يعلّموا أبناءهم في المدرسة الحربية في الاستانة، على حين كان غيرهم من أبناء الولايات العثمانية الأخرى يلتحقون بمدارس الطب أو الحقوق، ومن مظاهر الروح الحربية أنه لم يكد يقرر التجنيد الإجباري حتى عظم الإقبال عليه حتى من العشائر - أي القبائل البدوية التي تغريها طبيعة حياتها في البداوة وهي حياة لا ضابط لها إلا الحظ ولطف الله - يكره الضوابط والقيود والنظام على العموم، ومن أحسن ما رأيت الناس مسروراً به وأنا هناك أن الحكومة أدخلت في المدارس الثانوية النظام العسكري وجعلت من تلاميذها شبه احتياطي لجيش الدولة فكانت منهم ما يسمى "فرق الفتوة" وهم يلبسون ثياباً عسكرياً ويتدربون على الحركات الحربية واستعمال السلاح في كتكات الجيش في ساعات معينة من النهار

ومن مزايا الروح الحربية أنها تسهل طبع الشعب على النظام واحترام القانون وهذا أول ما يلاحظه المرء في العراق، فالقانون هناك نافذ ملق بمعاني الكلمة - يطعمه ويحترمه رجال الحكومة والشعب على السواء ويلا تتمر أو ضمير، وأضرب لكم مثلاً فاقول إننا ذهبنا إلى بغداد في سيارة خاصة، وقانون العراق يقضي بالآ تستعمل السيارات الأجنبية في العراق إلا بعد إجراءات خاصة طويلة، وقد ذهبنا إلى ذلك في الرمادي - وهي على بُعد تسعين كيلو متراً من بغداد، وأردنا أن تستعمل سيارتنا غداة وصولنا فخطبنا في أمرها من نعرفه ذا نعوذ أو من قيل لنا إنه يستطيع أن يعفينا من الإجراءات اللازمة وكانت رغبتنا أن نستغنى عن هذا الإجراءات بأن شفى نفوس به وفي ظننا أن الأمر هناك سهل كما هو في بلادنا. ومع أننا لقينا من التكريم والرعاية ما لم نكن نطمح فيه أو نطم به فحسبنا الحكومة ضيقاً عليها وجعلت إحدى سيارات الوزراء تحت أمرنا وفي خيمتنا ليلاً ونهاراً، قبل سيارتنا لم يطلق سراحها لأننا لم نتبع ما يقضي به القانون - ولا أنكر أننا أبلغنا في الأيام الأخيرة أن في وسعنا أن نخرج بسيارتنا إذا شئنا - وقد خرجت بها قعلاً مرة ومضى لأجرب الإنسان ولكننا خطبنا أن نخرق القانون في بلد هذه مبلغ احترام القانون فيه.

وعلى ذكر القانون أقول إن العراق ليس فيه امتيازات للأجانب، أي أن سيادة الدولة تامة في التشريع والقضاء وفي كل باب آخر - إذا كان هناك باب آخر - وقد كان في الفندق الذي نزلنا فيه أجانب كثيرون فحدث، أن بعضهم شرب في ليلة فلخذت فيه الخمر فأنطلق يقضي بصوت عال مزعج ولم يكن زملاؤه خيراً منه حالاً فراحوا يؤازرونه، فنقل ذلك على بعض النزلاء وتحدثوا به إلينا عرضاً قرويناه لصديق عراقي كان يزورنا فدعا مدير الفندق وأخبره الخبر، ولست أحب أن أطيل عليكم ويكفي أن أقول لكم إن الأجنبي الصاخب رحل عن الفندق وإن البوليس العراقي حاسبه على ما كان منه وإن الذي أرق بعد ذلك لم يكن أرقه بسبب الضوضاء.

وأهل العراق ديمقراطيون بقدرتهم لا يعرفون الأبهة الفارغة ولا التفخة الكذابة التي نعرفها ونحرص عليها في مصر ونعتز بها جداً ولو ضيعنا في سبيلها الجواهر والأصل وكل ما له قيمة حقيقية، ومن ديمقراطيتهم أنهم ألقوا الانقلاب بقانون صدر بعد عروبتنا إلى مصر - ما عدا الانقلاب العسكرية فإنه لا غنى عنها على ما يظهر - وفرضوا عقاباً - غرامة جنيهين - على من يلقب نفسه أو يلقب غيره بلا حق، وقد قلت لما سمعت بهذا القانون الجديد إن الشعب نفسه ألقى الانقلاب قبل أن تلقيه الحكومة فقد كنا نرى الناس هناك يسمون رجال الدولة بأسمائهم المجردة العارية من الألقاب، فكنا نقول للسائق مثلاً: اذهب بنا إلى بيت رشيد بك أو يس باشا، فيسألنا على سبيل التثنت "رشيد عالي" أو "يس الهاشمي" ولا يردف الاسم بأي لقب ولا يبدو عليه أنه يعتمد ذلك ولا يظهر لنا أي أثر للاختلاف أو سوء الألب في غيبة رئيسه أو مخلومه.

وعلى ذكر السيارات أقول إنني خرجت مرة مع سائق عراقي وكنت وحدي، وكنت أريد أن أذهب إلى دار المفوضية المصرية وكان السائق لا يعرف الطريق إليها فقلت له:

(امش على طول)

وكنت قد عرفت الطريق من زيارة سابقة فلم يفهم، فظننته لم يسمع وكررت له الأمر لئلا يمش إلى اليمين فصحت به أستوقفه وقلت له:

(يا أخى بقولك على طول رايح فين).

فمال إلى اليسار فعدت إلى الصياح والاعتراض فوقف فاستغريت وسألته لماذا وقف فقال إنه لا يفهم إلى أين أريد أن يسير بي وإنه لهذا فضل الوقوف حتى يعرف أين يسير لأن هذا الاعتراض المستمر يريكه وقد يعرضه لخطر وهو على التصديق يعطل حركة المرور فاشتكت بيته على حق وقالت له:

تعال نتفاهم ويتفق على اللغة التي نستعملها في كلامنا وسألته (ماذا ينبغي أن أقول إذا أردت أن تسير بي إلى الأمام)

فقال: (قل سر جيل)

قلت: (شئ جميل - عرفنا هذا وإذا أردت أن أميل إلى اليمين فما هي الكلمة الصحيحة التي لا تقبل غيرها منى).

قال: (قل سر يمنة)

قلت: (فصيح والله - وإلى اليسار أقول لك سر يسرة. أليس كذلك؟).

قال: (أى)

قلت: فإذا خطر لى أن نرجع من الطريق نفسه؟ يجب أن نتفق على كل شئ حتى لا يحدث أى خطأ فى المستقبل هـ؟)

قالت: (تقول ديور).

قلت على مسيل التأكيد (ديور).

قال: (أى ديور).

والبمسلطة والديمقراطية شعار القوم هناك - حتى فى القصر الملكى لا تجد أثراً للتكلف ولا للرغبة فى الظهور البذخ وقد كان منهم أول ما فطنا غداة وصولنا أن قبيتنا أسمائنا فى بغتر التشريفات فى القصر الملكى كما هو الواجب فما راعنى فى اليوم التالى إلا تحييد موعد للتشرف بمقابلة صاحب الجلالة الملك فقلت لمصطفى وزميلي

(ما العمل؟)

قال: (إيش؟).

قلت: (ليس معي ثياب للمقابلة الملكية)

قال: (ولا أنا).

قلت: (هذا أدهى - لقد كنت معتمداً على أن يملكك تكفيك وتكفيني معك)

قال: (هذه مسائل لا قيمة لها في العراق. نذهب هكذا بثيابنا العادية)

وقد ذهبنا فعلاً بثيابنا العادية وشجعني ورد رويحي قبل التشرّف بالمقابلة أنني رأيت رئيس الديوان الملكي يدخل معنا بثيابه العادية مثلاً وهمعت بنّي أعتذر لجلالة الملك ولكن بشره وتواضعه وشدة تعلقه معنا وحسن إقباله علينا أشعرنّي أن الاعتذار غير مطلوب ولا مرغوب فيه، ومن مزايا هذه الميساطة الطبيعية أنها تجعل كرم العراقيين حقيقاً على النفس وهم يكرموك من غير أن يشعروك أنهم يفعلون شيئاً، ويقمروك بكرمهم ولطفهم ولا يبدو مع ذلك عليهم أنهم يتكلفون من أجلك وفي سبيلك هذا، وإن كنت غارقاً فيما أفاضوه عليك وأزجزه إليك - سألني أحد كبارائهم مرة هل أنا مرتاح فقلت: (كلا)

فصمت، فما كان ينتظر هذا الجواب البارد فقلت: (أو كنت أعرف العراق من قل لاحظت، ولكن هذه أول زيارة لي وأست أكرم أحداً ولكني أكرم نفسي).

فظل صامئاً ينتظر أن أتم كلامي ولا يقول هو شيئاً فقلت: (لقد تبينت إنه كان ولجياً على أن أجيب بمعدة احتياطية لاستطيع أن أحتمل كل هذا الكرم)

فبلغ ريقه وقال وهو يضحك وقال: (يا شيخ أرعبتنا أعوذ بالله).

وقد سمعنا هناك في إحدى الليالي غناءً عراقياً في بيت مطرية العراق وأسمها سليمة باشا - هكذا يسمونها على سبيل التلليل والإعزاز على ما أظن - وأنها لجيرة بذاك - وقد قالت لي إنها زارت مصر فحمل اليمض قد رأها وسمعها، وقد لفت نظري

من الأغاني الشعبية التي سمعتها منها أن الغزل في هذه الأغاني على لسان المرأة لا على لسان الرجل كما هو المألوف في مصر. وليس في الصوت أعني القلحين - رخاوة أو تطر أو ضعف أو نوبان، والقوة فيه واضحة، ولعل التعبير يكون أدق إذا قلت إن مزنة الألكان المراقية الشعبية هي الصحة والسلامة أي الخلو من آفة الضعف والطراوة

وهذه إحدى أغانيهم الشعبية التي نوتتها لوردها على سبيل التمثيل.

يا بـعـة الـريـحـان	حنـى عـلى السـهـران
جـمـى بـحـل والـروح	دايت وعـسـهـمـى بانـ..
مـن عـلة ال بـجـشـاى ^(١٨)	مـسـا تـم عـدى راي ^(١٩)
دائى مـعـب ودواى	ما يـعـرفـه إنـسان

* * *

يوم الـدى حـسـبـمـيت	يا مـنـرـبـتـى حـنـيت
مـسـبـا بـره أـنا تـمـيت	ما تـرى ذنـبـى إيش كـان
يا بـعدـ روحي إيش جـاكـ ^(٢٠)	مـحـرب عـلى جـمـاكـ ^(٢١)
عـود عـلى الـلى هـواكـ	واتـمـود الـشـيـطان ^(٢٢)

(١٨) أي من العلة التي يجشأ (اللزني)

(١٩) أي ما بقي لي دأى أو عقل (اللزني)

(٢٠) أي يا أكثر من دهي (اللزني)

(٢١) مسلط على جفاك (اللزني)

(٢٢) أي نعوذ من الشيطان

صور من الحياة^(١٣)

(٣)

سأحاول في هذا الفصل أن أرسم للقراء طائفة من الصور لما رأيته في بغداد ومظاهر الحياة فيها، وهي صور لا يمكن أن تكون إلا ناقصة أو غامضة ككل صورة وصفية فما تقني الالفاظ غناء التصوير ولا يمكن أن تؤدي ما تؤديه ريشة الرسام، ولو كان في وسعي أن أعرض طائفة من الرسوم لكنت خير بديل من هذا الكلام الذي لا أظنه يؤدي شيئاً ولا أحسبه يعين إلا قليلاً على تمثل الواقع، ولكن ما لا يدرك كله لا يترك كله، وأنا بعد أعول على فطنة القراء وصحة إدراكهم للحدود الطبيعية لكل من التصوير والكلام وقرق ما بينهما من حيث القدرة على الأداء.

وأبدأ بالمرأة العراقية فما أظن بالقراء إلا أنهم ينتظرون مني كلمة عنها، ولا أحسب أنهم يتوهمون أنني نهبت وعدت ولم أولها فكرة، والحق أقول إنني أطلت الفكرة في المرأة العراقية وكانت هي مدار خواطري وحديث كثير من أحمالي أغلب الوقت، وأعترف أنني لم أر منها إلا لحظات قصيرة سريعة لا تقضي ولا تشبع العين أو القلب، وقد كادت عيني تخرج من فرط التحديق وطول التطلع وشدة البحث ولكني لم أجدها كما كنت أرجو - لا لأنها غير موجودة، فما يعقل أن يكون في العراق ناس ولا تكون فيه نساء، ولكني لم أجدها لأنها لا تبرز - أي لا تسفر - أعني في المدن، أما في

(١٣) نشرت في "مجلة" في ١٥ أغسطس ١٩٣٦ (ص ٤٩٧-٥٠٥).

الريف، فلن شذاتها هو شأن المرأة المصرية في ريفنا، بل شأن كل امرأة في كل ريف، أي أنها هناك تخرج، ونمشي بين الناس، سافرة إلى حد ما، وتعمل، وتبيع، وتشترى، وتتولى الأمور التي هي أبخل في طوقها، وإني هي أقدر عليها، وأعظم إنقاذاً لها من الرجل، وقد رأينا من المرأة الريفية كثيرات في خلال رحلاتنا القليلة خارج بغداد، وهي تلبس ثوباً بسيطاً يلب أن يكون منقوشاً بالكوان الصبغ كقته موفى - أو مخططاً في اللون - أو في وشية ترايع صفار فيها صور كهيفة الطير أو الحيوان، ولا بد من اللون الأحمر في بعض ما تلبس هذه المرأة، والأحمر هذا قد يكون حزاماً أو بخنقاً - أي شيئاً تغطي به رأسها - فإذا اتخذت الأحمر لرأسها جعلت تحته خرقة بيضاء تلفها على جانبي وجهها - أي خديها - وتخيطة تحت حنكها وتخيطة معه خرقة أخرى على موضع الجبهة، ولما تراها إلا حافية، وهي تلف على ساقها خرقة بيضاء لتقيها وجر الحسك والشوك في مشيها في المراعى والحقول - أو هذا ما قيل لي لما سالت عن سر هذه اللقافة.

أما الريفية الغنية فمثل أختها في مصر - لا تخرج ولا تسعى ولا تعمل إلا في بيتها - لأن لها من يغبها عن ذلك فلا فرق بين المرأة العراقية والمرأة المصرية من هذه الناحية، وسنرى أنه لا فرق في الحقيقة بين الأختين إلا بمقدار ما أسرعت المدنية في مصر وأبطأت في العراق.

والمرأة في بغداد - أي في المدن - نساء شتى في الحقيقة، وأكثرهن يتمجبن - كما كان يفعلن في مصر على عهد قريب - ولو كن متطعات مثقفات، ولم أسمع بواحدة من هذه الطبقة المتعلمة تظهر للرجال حتى في بيتها، ولكني رأيت بنات الجيل الجديد اللواتي يتعلمن في المدارس يمشين في الشوارع سافرات، وكنت يوماً أنتزه على نهر بجلة فرأيت سرياً منهن حمسيتهن لأول وهلة من المصريات فما يختلف مظهرهن عن مظهر التلميذات المصريات في كثير أو قليل، فلما استقبلتني ورأيت وجههن الجميلة وعيونهن الواسعة الحوراء وحواجبهن السايغة - كأنها مخطوطة بالقلم - وأهدابهن الوطفاء وظلها على وجنتهن - زال عني الهم ورددت إلى دنيا

العراق، وليس معنى هذا أن المرأة العراقية أجمل من المرأة المصرية فإن لكل من الجمالين خصائصه المميزة. وإذا كان بعض الضانص يورث ويكون كالطباع لا حيلة لأحد فيه، فإن هناك مراباً تكتسب بالرياضة وأسلوب المعيشة وقد سبقت مصر العراق في هذا الباب ولكن العراق سيتركها لا محالة على الأيام

وقد رأيت نساء لم يخالجنى أى شك حين وقعت عيني عليهن أول ما وقعت أنهن رجال أو شيوخ، وكبر في وهمي هذا الاعتقاد حتى لرحت أبحث عن اللحية في هذه الوجوه وأستقرب ألا تكون لأمثال هؤلاء من الشيوخ لمدى طولها، والذنب في هذا الوهم للثياب وحدها، وقد أفضيت بعجبي هذا إلى صديق عراقي فحسك جداً وقال.

شيء عريب ، في الصجاز ترى رجالاً فتظنهم نساء ، وفي العراق ترى نساء فتظنهم رجالاً ،

قلت : يا شيخ اتق الله؟ ما هذا المزاح؟ أو أعمى أنا؟ ،

قال : والله نسوة ،

فصدقته - وما حيلتي؟ أليس هو أدري؟ ولكنى لا أزال في شك من ذلك كبير، ذلك أن النى رأيتها - أول ما رأيتها - كانت تلبس عباءة وربية اللون سوى أنها ياهنة وهى لا تختلف في شيء عن العباءة التى يتخذها الرجال عنينا على المنر إذا كنت قد توهمتها في أول الأمر رجلاً، ولم يكن وجهها يبدو لى لأنه مغطى بتقاب أسمر كثيف جداً وعلى عينيها نظارة سوداء كالتى يتخذها الناس ليقوا عيونهم وهج الشمس والتراب، وكان غطاء الرأس من لون العباءة ولكن له حافة تغطي الجبين وتبرز كالشرفة من فوق النظارة حتى لخيلى لى فى أول الأمر أنها قبعة ضابط فى الجيش، ولم يكن أى جزء من وجهها يبدو للنظر مهما حلق وحملق، وقد قيل لى إن هذا كان اللباس المألوف قديماً وعليه بقى البعض إلى الآن.

وقد رأيت بيوت العراقيين وإن كنت لم أر نساءها، ومن السهل أن يدرك المرء أن المرأة العراقية - كافتحتها السورية - مديرة حازمة وعديدة اللببت ينفق معانى الكلمة

وأسماءها وأوصافها وليس يعيها أنها لا تبرز للرجال ولا تخالفهم ولا تغشى المراقص والأندية العامة بل تقتصر على الواجبات المنزلية التي بدا لي من جملة ما رأيت، وتقصيه أنها تتقنها أتم إتقان وتؤديها على لؤي وجه، وهي في هذا كلختها السورية وإمل الاثنين قد أقابتا من الحكم التركي هذه الحرة وإن كنت أميل إلى الاعتقاد بأن صفات المرأة العربية طابع فيها وليست اكتساباً.

وهذا هو الفرق بين المرأة المصرية والمرأة العربية على العموم - عراقية كانت أو سورية أو فلسطينية - فإن العربية سيدة بيت قيل كل شيء، وواجبها الأول هو لبيتها أي لزوجها وبنيتها، وقد تكون أسرتها أغنى الأسر ولكنها تتولى الأمر بنفسها ولا تستنكف أن تعمل يديها بل تعد من مفاخرها أنها تعمل يديها ولا تجعل معولها على الخدم والأعوان، ويولم الرجل في بيته لطافة من إخوانه فتحرص المرأة العربية على أن يكون أشبه ما يوضع على المائدة من صنع يديها، والأسر المتوسطة الحال لا تستخدم الطهارة أي الطباخين أو الطباخات حتى ولو كان هذا في الوسع جداً، لأن تقاليد المرأة العربية تجعلها هي المسئولة عن البيت، وتربيتها تعويها أن تنهض هي بالأعباء لا أن تضعها على كاهل سواها وإن كان المال موفوراً، والعيب عند المرأة العربية هو ألا تعمل لا أن تعمل وقد كان الحال في مصر على هذا المنوال قبل وضع سترات، ولكنها في الأعوام الأخيرة تغيرنا جداً وصارت المرأة المصرية تستنكف أن تعمل في بيتها وتطالب أن تقضى لها حاجاتها جميعاً وهي قاعدة لطنها أن هذا أكرم لها وأحق بأن يرفع مقامها، حتى إرضاع الأطفال صارت تكله للأجيرات وقلماً ترى في طبقاتنا الوسطى والعليا سيدة تكس أو تطبخ أو ترتب غرفة أو تتولى أمراً من أمور البيت ولهذا كثر الخدمون في بلادنا وكثرت الجرائم - من ظاهرة ومستورة تبعاً لذلك، فما من شارع إلا وفيه مخدوم وما من بيت جرب هؤلاء الخدم إلا على ما لا احتاج أن أصفه لأنه معروف. ونذهب إلى فلسطين أو سوريا أو العراق أو الحجاز أو غير هذه تلك من بلاد العرب ونبحث عن مخدوم أو بكان مخدوم فلا تجد - والبيوت مع ذلك هناك في كل مكان من هذه البلاد أحسن نظاماً وتديراً وأقوم حالاً، والجرائم التي ترجع إلى الخدم والمخدومين لا وجود لها، فإذا كنت أعجب لشيء فإني أعجب

للتدبير المنزلى الذى يتعلمه بساتنا فى المدارس ماذا استمعتن منه؟ فإذا كن لم يستفدن منه شيئاً فلماذا لا يلقى أو يصلح بحيث يخرج لنا امرأة سالحة كفوفاً لإدارة البيت وتدبير أموره وتربية الأولاد كالمرأة السورية أو العراقية

ولم أر بغداد من الجوى، وكفى رئيس الحكومة قد تفضل فطلب من بعض كبار الموظفين أن يرتدوا لنا رحلات جوية ففقد البرنامج وكان ينبغي أن ينفذ ولكن المائب كثرت من ناحية وغلبنى النوم من ناحية أخرى - والنوم سلطان - ولم يشأ صديقى أن يوقظنى فذهبت الفرصة، وأرجو ألا تصيبوا أنى خفت على عمرى فما لعمرى قيمة، ثم إنى أؤمى بالمثل القائل "إن عمر الشقى بقى" فلا خوف على عمرى هذا من الطيارة أو سواها، ولهذا ترونى أقذف بنفسى على المعلق وألقى بها فى المهالك وأنا آمن ورائق من الحجة ومطمئن إلى السلامة، على أن هذا استطراد والذى أردت أن أقوله هو إنى على الرغم من ذلك يخيل لى من السير فى طرقت بغداد أنها تشبه حرف "٦" فهو رحلة يشقها من الشمال إلى الجنوب - أو من الجنوب إلى الشمال إذا شئتم - وما يدرى؟ لعله يشقها من الشرق إلى الغرب أو من الغرب إلى الشرق، فليس أجهل منى بهذه الشؤون الجغرافية - وللهم على كل حال أن رحلة تشق البلد - ما فى هذا شك - وتشطره شطرين كما يشطر النيل القاهرة ويفصلها عن الجزيرة، وعلى محاذاة دجلة شارع اسمه "شارع هارون الرشيد" بطوله نحو خمسة كيلو مترات، وعند منتصفه تقريباً يقع جسر مود ويمعد من آخر الجسر شارع عمودى على الأول - إذا أهملنا المنعطفات والأبنية الفاصلة وما إلى ذلك - ولا أعرف لهذا الشارع آخر لأنه يمتد إلى الكاظمية والأعظمية - نسبة إلى الإمام الأعظم أبى حنيفة النعمان وقبره هناك - وعلى هذين الطريقين الأعظمين تنتشر شوارع ودروب شتى لا يتخدها حصو، والطرق كلها ممهدة ومرصوفة ومفروشة بالقطران أو الأسفلت، ومما يساعد الحكومة العراقية على تعبيد الطرق أن الاتفاق الملقود بينها وبين شركة نبار البترول الإنجليزية العراقية يخولها أن تلتخذ بلا ثمن من القار أو الرفت الذى يتخلف من البترول ثلاثة آلاف طن فى العام فإذا احتاجت إلى زيادة أخذتها بقل من سعر السوق بثلاثين فى المائة، وثلاثة آلاف طن فى العام مقدار يكفئها فى الوقت الحاضر، وقد شرعت حكومة العراق

في تهديد الطرق وفرضها بالأسفلت حتى في قلب الصحراء وقد رأيناها تعبد مائة كيلو متر من طريق الصحراء بين الرمادي والرطبة، ومتى فرغت من هذه فستعمل في مائة أخرى وهكذا، وأنا مؤمن أن العراق ستكون بعد بضع سنوات من أحسن بلاد العالم طرقاً، وهي تترك قيمة الطرق لشدة حاجتها إلى تسهيل المواصلات بين أطراف بلادها المترامية، وعلى نكر ذلك أقول إن بغداد ليس فيها ترام يشوهها أو يرج مبانيتها أو يزعج طرقها، والمواصلات كلها داخل المدينة بالسيارات، ولا كانت السيارات ليست مما يستطيع أن يقتنيه كل واحد قبل أن هناك سيارات ركوب - لو أوتوبيس - تجريها البلدية ولكنها صغيرة وشبيهة بالمخازن، وقد أنكرتسي السيارات التي تتخذها المحال التجارية في مصر لتقل بضائعها، ولكني علمت من حديث مع أحد رجال البلدية أنها - أي البلدية - قررت أن تبطل هذه وأن تصير بدلاً منها أخرى واسعة رحبة كالتي نراها في مصر.

والمباني في بغداد كلها بالأجر - أي الطين المطبوخ - ولم أر بيوتاً مبنية بالحجر أو الأسمنت، والأجر مادة البناء هناك من أقدم العصور، فقد رأينا ما بقي من إيوان كسرى - أو طاق كسرى كما يسمونه - على نحو خمسين كيلو متراً من بغداد وكله بالأجر، ورأينا في بغداد نفسها قسماً من العصر العباسي يسمونه "قصر المؤمنين" وإن كانت مصلحة الآثار تنفي ذلك ونقول إنه لا يوجد دليل يثبت أنه الأرجح أنه قصر بُني في صدر الدولة العباسية، وقد كان مطوراً في عهد الحكم التركي وكان موقعه متخذاً لشكة للجيش العثماني فلما استقلت العراق وقعت عنه التراب كما نفخته عن روحها، فبدأ جانب كبير منه على أصله، منه يستطيع الإنسان أن يكون فكرة صحيحة عن طراز المباني في العصر العباسي.

والمباني في بغداد لا تنهب في الهواء ولا تزيد على طيقتين اثنتين - الطبقة العالية تسكن في الشتاء طلباً للشمس والدفء والطبقة الواطية - أو القريبة من الأرض - تتخذ في الصيف لتقاء الحر الشديد فلا درجة الحرارة ترتفع في الصيف إلى الخمسين في أحيان كثيرة، والبيوت سرايب هي التي تسحبها في مصر البدرم وهم يثرون إليها فراراً من الحر، ومن طرق التهوية القديمة الموروثة عن العصر

العاسي والتي يرى منها في بعض المساكن إلى اليوم وقد رأيت ذلك في الفندق الذي كنا فيه إبهم يجطون في جوف الجدار فراغاً أو فرجة كالمخنة ينحدر منها الهواء من السطح على السرداب فيخفف عن فيه في الصيف ويكفل لهم تحديد الهواء كلما قسد، ويكون لهذه الموهبة باب يفتح في الشتاء، وشتاء بعداء بارد كما أن صيفها حار ولذلك لا يظل بيت من موقد النار، والخشب هو الوقود المألوف، وإبالي بغداد في الصيف مشهورة من أقدم عصورها كما يعرف كل مطلع على الألب العريبي والناس هناك يؤثرون النوم في الصيف على السطوح.

ونهر دجلة مشهور بفيضاته - أو طوفاته على الأصح - والفيضان يقع في الشتاء لا في الصيف كما هو الحال عينا، وهذا من حسن الحظ لأن الماء يتحسّر إلى السرداب فيملؤها فيستعمل الانتفاع بها أو الإقامة فيها، وكثيراً ما يطعم النهر ويقيض على المدينة فيفرقها كما تفعل أنهار كثيرة غارة نسمع بها ولا نراها لصن الحظ، ومن الغريب أن بغداد الجيدة مبنية في الناحية الواطئة التي يجرها الماء إذا فاض، ولذلك ترى أبواب البيوت في هذه الأحياء الجديدة مرتفعة عن الطريق بضع درجات تصعبها قبل أن تصل إلى الباب.

وفي بغداد سوق بعضها قديم والبعض جديد ولكن قديمها والصديد من طراز واحد لأنهم أرادوا أن يحرصوا على مبيته ومزيته، والسوق عبارة عن شوارع ضيقة بعض الضيق ومتقاطعة وهي جميعاً مسقوفة لا تنفذ منها الشمس في الصيف ولا المطر في الشتاء وفي هذه السوق يباع كل ما في بغداد، وقد جبتها في ساعتين ونصف ساعة من شدة الزحام، وأقرب ما يشبه هذه السوق في مصر خان الخليلي أو أجزاء منه لولا أنه - أي خان الخليلي أضيق جداً - أو حي القرية قيل أن يرفع السقف وترصف الأرض، ولكي يستطيع القارئ أن يتصور مبلغ الزحام في هذه السوق أقول إنني جبتها كلها ومع ذلك خرجت وأنا لا أعلم هل أرضها مبلطة أو مفروشة بالأسفلت فقد كان همي أن أشق لي طريقاً وأن أتففس وأرى ما جئت لأراه - قاتبي قصير كما تعلمون أو كما لا تعلمون - وليس معنى هذا أن الكاكين كلها في هذه السوق وإنما معناه أن هذه هي السوق العراقية البحت، وفي كل شارع دكاكين -

من كبيرة وصغيرة - كما لا نحتاج أن أقول وبعضها للعراقيين والبعض للأجانب، ولكن الأماشي يفضلون أبناء وطنهم ويؤثرونهم على غيرهم، ومنأصرب مثالين اثنين أعتقد أن فيهما الكفاية.

الأول - إن في بغداد مصنعاً لنسج الثياب الصوفية أسمعه فتاح باشا، وابنه نوري بك فتاح باشا - أو السيد نوري فتاح كما يجب أن يسمى الآن وإلا غرمونا جنهين، وكل من في العراق - من جلالة الملك إلى أصغر من يلبس بذلك أفرنجية، لا يتخذ ثيابه إلا من نسج هذا المصنع الوطني، والمصنع يستعمل نوعين من الصوف - العراقي ومنه تصنع المنسوجات الفخشة بعض الشيء، والاسترالي أو الروسي ومنه تصنع المنسوجات الناعمة، والنوعان رخيصان لا يبهطان ولا يثقل ثمنهما على أحد، بل كل ما في العراق رخيص - علي قدر ما سمعني أن أتبين، وقد لحتجت وأنا هناك إلى معطف لأن معطفي لتفتته الصمراء - أو أنا ادعيت هذا أما الحقيقة فهي أنه قديم جداً حتى ليخيل لي أنه كان لأبي من قبلي أي منذ نصف قرن على الأقل^(٢٤)، فزادت أن اشتري معطفاً جديداً أظهر به بين الناس وأتقي به البرد والمطر، ورأيت صديقاً عراقياً ليس معطفاً جميلاً فيه وقاية كافية من البرد حتى في القطب الشمالي، فاشتتت نفسي أن يكون لي مثله، ولكني خفت أن يكون ثمنه فوق ما يسعني وأنا فقير وغريب وبعيد عن بلادى فقلت أحتال حتى أعرف الثمن وجعلت أتسسس المعطف مظهرأ إعجابي به وسلكته:

‘هذا من نسج العراق؟’

فقال: ‘كـى، لا تلبس إلا ما تنسجه العراق’.

قلت: ‘ما شاء الله ما شاء الله ويكم يا ترى لشتره إذا جاز مثل هذا السؤال؟’

فابتسم وقال: ‘يكم تظن أنت؟’

(٢٤) هذا عمر المعطف : لا عمرى لنا (الآن).

قلت: "لا أبرئ".

قال: "فمن".

قلت: "لو كان هذا في بلادنا لما قل ثمنه عن سبعة جنيهات".

قال: "فقط؟".

قلت: "هذا تقدير مبني على ما أعلمه من أحوال بلادنا وقد أكون مخطئاً".

قال: "هل تصدق إذا قلت لك إن ثمنه سبعمائة وخمسون فلساً؟".

فظننته لأول وهلة يقول سبعمائة وخمسين قرشاً، فهبط قلبي إلى حذائي وبنيت من شراء المعطف الجديد فإننا سنعود بعد أيام قليلة إلى جو مصر المعتدل الذي لم يحوجني إلى المعاطف، فعاد يسألني

"ألا تصدق؟"

قلت: "صديق، صادق".

قال: "٧٥٠ فلساً لا أكثر".

فتبتهت وسألت: "فلساً أم قرشاً؟"

فأعرب في الضحك وسألني: "ماذا تظنني؟ مليونير؟"

فنهضت وجذبت من فرائحه وقلت له:

"خذي إلى هذا التاجر! بسرعة! قم".

وقد اشتريت المعطف الذي راقتي بثعائمائة مليم! ولا يزال عندي فمن أراد أن

يراه فليقتضل.

والدخان يزور في العراق وقبل وضع سنوات لم تكن مصانع السمجائر قد أنشئت

فكان العراقيون يشترون الدخان ويلفونه بغديهم وكان يس باشا الهاشمي السيد

يس الهاشمي الآن - رئيس الوزارة الحالية إذا زاره أحد يقدم له علية الدخان والورق ليقلب لنفسه سيجارة إذا شاء ويثنى أن يشتري السجائر الأجنبية كائنًا من كان هذا الضيف، والآن تلف السجائر في المصانع ولا يحتاج المدخن أن يلفها بيديه، ولا أعرف في العراق فردًا واحدًا يفضل الدخان الأجنبي، أما ثمنها فالتراب أعلى منه، ذلك أن أحسن صنف من هذه السجائر لا يزيد ثمنه على قرش مصري ونصف قرش

والعراقيون قوم يحبون الوقوف - لا أدري لماذا؟ وقد عانيت من حبهم له فوق ما أطيق فإنني مهيض الساق مكسورها، والوقوف يشق علي، وأهون منه عندي أن أمشي إلى آخر الدنيا وكنت إذا دعيت إلى طعام أو شاي أجد الداعي والمدعوي وقوفًا فأصوّل في مسرى، وأكل أمرى إلى الله، وأظل واقفًا - لو على الأصح أظاهر بالوقوف، والحقيقة أنني أقفل ما يفعل الجواد، أي أنثى رجلاً وأقوم على الأخرى حتى يجي أنوان الأكل فتجلس وأنا أنتشهد وأحمد الله وأثنى على آلائه ولا تكاد تفرغ من الطعام حتى يعود القوم إلى الوقوف فاقول لا حول ولا قوة إلا بالله، ولكن ماذا أصنع؟ ونظل هكذا حتى تنصرف، أما إذا كانت الدعوة إلى شاي فإن مصيبتى تكون أعظم، لأن الشاي يشرب على الواقف، وغرضهم من ذلك أنهم يريدون أن يمكثوا المدعو من التنقل والاتصال بمن يشاء من الحاضرين وآلا يلزموه مكانًا واحدًا وجارًا واحدًا لا يمدوهم، وهذا معقول، والحكمة فيه واضحة ولكني أرجو حين أعود إلى العراق أن يعفوني من هذه الحكمة فإنها تمر بي وتتسرب إلى الأرض خارجة من قدمي كالتيار الكهربائي

(انتهت)

ملحق رحلة العراق (١٩٣٦)

مصر والعراق

والمصريون في بغداد^(٢٥)

يمثل مصر في العراق رجل فاضل رضى الطق مريضى السيرة هو الأستاذ حافظ عامر بك القائم بأعمال المفوضية هناك، وصاحب الرسالة المشهورة عن الحج، وهذه الرسالة التي ميزته وأفرسته بين زملائه من رجال السلك السامسى تدلى على نزغته الإسلامية ولجأه الدينى، وقد سمعت في بغداد ثناءً كثيراً عليه، وامتداحاً لاستقامته، وارتياحاً إلى سيرته، ورضى عما بينه من الجهود فتوثيق الصلات بين مصر والعراق، واعتراقاً بما أدى للقطرين في هذا الباب، ويعاونه في المفوضية نوبة من المصريين المدرسين عرفت بعضهم من قبل في بيروت وغيرها، وقد لاحظت أن حكومتنا أشد تقثيراً على مفوضيتها في بغداد من الحكومة العربية السعودية على مفوضيتها هناك، وحكومتنا أغنى وأقدر على البذل، ولكن الحكومة العربية السعودية، على رقة حالها، أصبح إدراكاً لمعنى التمثيل السياسى والعناية منه، وأفطر إلى مقتضياته، وهذا التقدير يكلف رجالنا في البلدان الأخرى شططاً، ويرمى بهم في مازق ممرجة لا تكاد الوزارة هنا تحس بها، أو تباليها حتى إذا عرفتها، ولم يقص إلى أحد يشكوى أو تنعر، ولكني نظرت بعيني وقاربت وببينت أن ممثلينا في الخارج يتحملون الكثير ليستروا تقصير حكومتهم أو قلة مبالغاتهم.

ومن حسن حظ مصر أن الأساتذة الذين ذهبوا إلى العراق لتولى بعض مناصب التدريس أو غيره فيها - إلى حين - من أرقى المصريين، وأوقاهم علماً، وأحمدهم

(٢٥) نشرت في جريدة "البلاغ" في ٢٨ فبراير سنة ١٩٣٦ (ص ٦)

سيرة، وأغزروهم مادة، بل أن أمثالهم قليلون في مصر، ويكفي أن أنكر أسماء ثلاثة منهم ليقنع القارئ بقى لا أبالغ، وهم الدكتور السنهوري، والأستاذ عبد الوهاب عزام، والأستاذ عبيد حسن الزيات، وغيرهم كثيرون، ولكني لست في مقام الإحصاء أو القصص، وقد قلت لبعض الذين حدثوني من العراقيين عنهم، وهناك مصر بهم، إنني أخاف إذا مضى العراق في هذه الضلة وراح يتتقى كل عام مثل هذه الصفوة المختارة، أن يفنى هو ويتفتقر مصر، ولست أكره للعراق الخير، ولكني لا أحب لمصر السوء، ولم أقل هذا لمحدثي على سبيل المزاح، وإنما قلته جاداً، فإن أمثال هؤلاء الأساتذة المخلصين الجادين لا يعوضون بسهولة، وهم أشهر من أن يحتاجوا مني أو من سواي إلى تزكية فصيحي هذا القدر.

وهؤلاء الأساتذة الكبار سفراء غير رسميين، من مصر إلى العراق، ومما هو حقيق أن يجعل سفارتهم أجمع وأعظم توفيقاً أنهم من المؤمنين بالقومية العربية، والمدركين لقيمة التعاون بين هذه الشعوب العربية التي مزقتها الاستعمار، وباعد بينها الجهل، وسوء التوجيه، وقلة الفطنة إلى المصالح الحقيقية، على أن غير المؤمن بهذه القومية لا يلبث إلا قليلاً في العراق حتى يهتدى بعد الضلال ويتحول من الكفر إلى الإيمان، ويكفي أن يرى حب العراقيين لمصر، وإعجابهم بها، وعنايتهم الدقيقة بتتبع حركاتها من أدبية وسياسية وعلمية وفنية واقتصادية، يدرك ما يخفى أحياناً على المقيم بمصر من منزلة بلاده، ويلفتن إلى الوجهة التي هي بها أولى

لقد كان من أروع ما وقع لنا أننا ونحن راجعون من بغداد إلى عمان بسيارتنا وأماننا السيارة المسلحة التي تفضلت حكومة العراق علينا بها لترافقنا إلى حدود بلادنا - وهي صحيلة - أن التقينا في هذه الصحراء التي لا ماء فيها ولا شجر، ولا طير ولا إنسان، ولا ظل لأي شيء من الأشياء، بسيارة مقبلة علينا، عرفها الضابط الذي معنا، فوقفنا لها ووقف لنا، ومعتسف الصحراء يفرح بمن يلاقى في غيابهها المتقانة، فإذا فيها شيخ عزيزة من كبرى عشائر العراق، وتولي الضابط الفاخر أمر التعريف، فكان أول ما سأل عنه الشيخ الوقور الذي يعيش في البادية ولا يكاد يسمع من أخبار

البنيا شيئاً "وكيف حال مصر؟ وماذا تم في أمر المفاوضات؟ لظها ناجحة إن شاء الله"

فالتفت إلى صديقي الأستاذ أسعد باغر وقال:

"في قلب الصحراء يسألك عن المفاوضات ويرجون لها التمام والتوفيق،

فأطردت، وبى خجل، فإن قومي لا ينكرون للألم العربية مثل نكراها لهم.

ومن مظاهر هذا الاتجاه أن القوم يريدون أن يزورهم صاحب السعادة طلعت
حرب باشا ليدرس ما يمكن عمله لتوثيق الروابط الاقتصادية بين البلدين، وهو أقدر
رجال مصر على ذلك وأحقهم بالنجاح فيه، فله فاعل إن شاء الله، وموفق بمعونه
وقوته

إبراهيم عبد القادر المازني

جميل صدقي الزهاوي^(٣٦)

{ ٢ }

كانت حياة المرحوم الزهاوي مضطربة هائجة مائجة كروحه، حافلة بالحوادث و[النوب] كزمنه، وقد ذكر مترجمه صديقنا الأستاذ وعائيل بطي في كتابه الألب العصري في العراق العربي أن الزهاوي ولد في التاسع والعشرين من ذي الحجة سنة ١٢٧٩ هجرية - يوم الأربعاء الموافق ١٨ حزيران سنة ١٨٦٢ ميلادية فيكون قد أدركه الحين في الثالثة والسبعين من عمره أو حوالي ذلك، ولكنني أعتقد أنه كان أسن من ذلك، وأكبر ظني - فإني لست على يقين لقرط جهلي بالمساب - أن التاريخين الهجري والميلادي لا يتفقان، ولا أنظر أن في الوسع معرفة يوم الميلاد وسنته يمثل هذه الثقة في زمن كالذي جاء فيه الزهاوي إلى الدنيا، ولعله لم يكن هناك نظام محكم لتقديد المواليد والوفيات في تلك الأيام في بغداد، على أنني سمعت من الزهاوي في بغداد بيتين له أنشأنيهما وفيهما يذكر عمره ويقول إنه في التسعين لو إنه جاوزها، والمرء يبالغ في كل شيء إلا في عمره، وليس الرجل بثقل كلفاً بتمويه الحقيقة في ذلك وسترها من المرأة، ودليل آخر على عدم الثقة في تعيين تاريخ الميلاد ذلك أن مترجمه يقول إنه ولد في سنة ١٢٧٩ هجرية، وهذه سنة ١٢٥٤ هجرية، فعمره يوم وفاته يكون على هذا الحساب حوالي خمسة وسبعين عاماً، ولكن المترجم يذكر في مكان آخر أنه كان في الثلاثين من عمره لما عين سنة ١٣٠٢ هجرية عضواً في مجلس المعارف في بغداد وعلى هذا الحساب الجديد يكون عمره إحدى وثمانين سنة ثم إنه أصيب بالفالج

(٣٦) نشرت في جريدة البلاغ في ١ مارس سنة ١٩٣٦، (مرآة، ٥٠).

مذ أكثر من خمس وعشرين سنة، والأستاذ بطي يذكر أنه أصيب به في الخامسة والخمسين من عمره

على أن العبرة ليست بالسفين وعدها، بل بالحياة والإحساس وقد كان الزهراوي إلى آخر أيامه شاباً فتياً إذا اعتبرت الروح، وضيئاً مضطرباً حتى في صدر أيامه وحداثته إذا اعتبرت الجسم، فقد أصيب في الخامسة والعشرين من عمره - وهو في شرح الصبى - بداء في نخاعه الشوكي لم يبرأ منه قط، وتوالت عليه العلل والأنواء بعد ذلك ولازمته، كالفالج وتصلب الشرايين وضعف القلب وغير ذلك مما ألمه أنهى ولكن هذا كله لم يؤثر في روحه ولم يضعف عقله ولم يزد نفسه إلا [ضعفاً] ^(٢٧) وحدة

وكانت عيشته مرة في ظل السلطان عبد الحميد، فاحيط بالجواسيس في الأسنانه، ومنع من السفر منها إلى بغداد حتى ضاق صدره بالعيون التي عليه فنظم قصيدة يهجو فيها السلطان الطاغية ويقول فيها بقوله

لقد عبثت بالشعب أطماع ظالم	يحمله من جورده ما يحمل
فيا وريح قوم قوضوا أمر أنفسهم	إلى ملك عن فعله ليس يسأل
إلى ذي اختيار في الحكومة مطلق	إذا شاء لم يعمل، وإن شاء يعمل
وذي ملطة لا يرتضى رأى غيره	إذا قال قولاً فهو لا يتبدل
أبامر ظل الله في أرضه بما	يهي الله عنه والكتاب المرئ
فيفقر ذا مال، وينفى مبرعاً	ويسجن مظلوماً، ويسى ويقتل
إلى أن يقول-	

وأبيدك إن طالت فلا تغررو بها فإن يد الأيام منهن أطول
وكان طويلاً أن يهجو الطاغية في عامته، ولكنه لم يكتف بذلك بل أنشد أبا الهادي الصيادي هذا الهجاء فرقع خيره إلى السلطان فسجنه مع الزهراوي وصفا بك الشاعر التركي ثم نقاه إلى بغداد.

(٢٧) كما في الأصل بينما السياق مستوجب العكس على سبيل المثال [صفاء] ٢ (المصر)

وفي ذلك يقول:

وعلى مصفى الثاني عيون تطلع	وحل راحة في بلدة تصف أهلها
إلى الحول من تلك الجواميس أربع	تعمقسي في كل يوم وليلة
إلى "يلدر" عني التفارير تُرفع	تراقب أفعالي، وكل عشية
على حين ما كسا لها ستوقع	ولست بامر بكبة نزلت بنا
كما تفلح الأشجار بكباء وعرع	فقد قلعتا رفقة من بيوتنا
مدل الحكم العاديين وحضع	وساروا باللسجر واجين لنا
إلى العمر أساب لهم لا تُضيع	وما علموا أنا أناس غُتهم
علينا عوادى الدهر لا تصمصح	وأنا من الأحرار مهما تألبت

ولم يجد راحة في بغداد فقد كان واليها يكرهه، وأغرى به هناك رجل وهابي أخذ يحرض الحكومة عليه ويتهمه بالكفر والزندقة ويثته ببسط لسانه في السلطان عبد الحميد، فطلب الوالي من حكومة الأستانة أن تبعد الزهلاوي إلى بلد قصي قدضطر الزهلاوي إلى تأليف كتاب "القجر الصابق" في الرد على خصمه الوهابي، وصدره بمدح السلطان اتقاء لأناء المجرب، ولكنه جعل يهجو ولاية الترك في بغداد كلما جاء منهم واحد وقصائده فيهم مثبتة في ديوانه .

وأعلن الدستور فظن أنه نجا وأنه سيجد في ظله السلامة إذا لم يفر بالراحة فجعل يطالب الناس ويبين لهم مزايا الحكم الدستوري ثم رحل إلى الأستانة فعين أستاذاً للفلسفة الإسلامية في المكتب الملكي ثم مدرساً للآداب العربية في جامعة دار الفنون ولكن وطأة المرض ثقلت عليه فعاد إلى بغداد فعين مدرساً لما يسمونه "المجلة" في مدرسة الحقوق ويعنون بها - أي بالمجلة - مجموعة القوانين وكان يكتب إلى المقتطف والمؤيد فنشر له المؤيد مقالاً في "المرأة والدفاع عنها" هاجت عليه الناس في بغداد وذهبوا إلى واليها يطلبون منه عزل الزهلاوي فقالوا، وبلغ من سخط الناس عليه

أن اضطر إلى ملازمة داره خوفاً من الاعتقال ولكن العلاء في مصر وسوريا أنصفوه
وأيده.

ولما سكنت الضجة أعيد إلى تدريس المطة، ثم انتخب مرتين نائباً مرة عن المنتفق
ومرة عن بغداد فذهب إلى الاستانة ودأب في المجلس على الدفاع عن حقوق العرب،
ومن نكاته الجريئة المشهورة أن المجلس مرة أراد أن يقرر تلاوة البخارى لينفع الله بها
الأسطول فصاح الرهاوى بهم أن الأسطول إنما يتفقه البخار لا البخارى.

وكانت حياته في السنوات العشر الأخيرة موزعة بين السرير إذا اشتقت به العلة
وورح به الداء، والقهوة يذهب إليها ويقرأ فيها الصحف والكتب، أو يلعب ألاماً أو
النرد، وكان يرسل شعر رأسه ولحيته وشاربيه فيخطلط كل أولئك، ويكاد يخفى وجهه
التحيل المتهضم فلا يبدو منه إلا عيخان تومضان حين ينكلم وتفتران حين يصمت،
وجبين حفر فيه الزمن أخابيد عميقة، وأنف كبير أفتى يشى بصديق العزم وقوة
الإرادة، وكان على ضعفه ومرضه مقرطاً في التخزين، وقد سمعته بضحك مقهقهاً
فانقبض صدى وانعصر قلبي، فما خفيت على تيرة اليأس المرة في هذه القهقهات
التي تشبه هشرجة المتشنج، رحمه الله.

إبراهيم عبدالقادر المازني

رحلة الشام (في مهرجان المعري) (١٩٤٤) مقدمة^(٢٨)

أتيت لي، في الشهور الستة الأخيرة أن أقوم برحلتين طويلتين، واحدة إلى الشام للاشتراك في مهرجان المعري أو عيده الألفي، بدعوة من المجمع العلمي العربي بدمشق، وبالنبابة عن نقابة الصحفيين، والثانية إلى العراق بدعوة من حكومته الموقرة لإلقاء طائفة من المحاضرات الأدبية وكانت الرحلة الأولى في الصيف، وقد مشرت "البلاد" البحث الذي كنت أعدته لمهرجان المعري، ووصف ما كان فيه، فلا حاجة بي إلى العودة إلى ذلك، وكانت الثانية في الشتاء وهي أطول وأفضل^(٢٩)، ولست أكتب اليوم لأصف شيئاً، مما كان في هذه الرحلة الشتوية، فإني أهيئ لهذا كتابين^(٣٠) أرجو أن يوفقتي الله فلأخرجهما قريباً بعد أن أتلقي ما تركت في العراق من أوراق - وإنما أكتب هذا الفصل لأعالج مسألة قومية.

وحيث قبل أن أتناولها بكلام أن أقول إنني حرصت في كل رحلتي، وهي كثيرة، على مبدئين لم أجد عنهما قط، وإن كانت صلات المودة والصداقة بيني وبين

(٢٨) نشرت في "مجلة الجديد" في أول فيبرير، ١٩٧٤.

(٢٩) يتضح من هذا أن هذه المقدمة كتبت بعد انتهائهما من رحلة العراق الثانية (١٩٤٥) (المعري).

(٣٠) لا معري (أما كتابين يضممان الرحلة لم لرحلتين الأولى (١٩٣٦) وقد مرت بك - والأخيرة (١٩٤٥) التي ستطرحها فيما يلي ذلك (المعري).

كثيرين من أبناء البلاد العربية الشقيقة، تغرى بالتبسط وترك التحرز والتحفظ، فأما
المبدأ الأول فإني لا أدخل في أمر داخلي للبلاد التي أزورها، أو أتطفل عليها بالخوض
في شؤونها أو التعرض بخير أو شر لأحد من رجالها وأما المبدأ الثاني هنئ أكون
مصرياً حقاً لا يعرف غير مصر ولا يجعل باله إلا إلى سمعتها، ولا ينكرها ولا يسمع
بذكرها أو ينكر أحد من رجالها بخير الخير. وقد كلفني هذا شططاً وحمل أعصابي في
بعض الأحيان فوق طاقتها، فما كانت أحوالنا في كل حال بالمرضية، وأنا رجل أوثر
الصراحة والحق على المناورة والمكابرة، ولكن هو الواجب، ومن فضل الله على أني
تعلمت وتعويت أن أقدم الواجب على الهوى.

ولعل أكثر المصريين لا يدرون أن مصر كتاب مفتوح تقرأه البلاد العربية صفحة
صفحة، وسطراً سطراً، وحرفاً حرفاً، وقد لا يدركون أن لبلادهم مقاماً ممتازاً ومنزلة
محمولة، وإن صحفها تدرس - ولا أقول تقرأ - وتقرئ وتخلخل ولا يهمل منها [حتى
الإعلانات وأن القوم يعرفون أعلامنا واحداً واحداً، وفي وسعهم أن يكتبوا لهم تراجم
دقيقة مستفيضة، وأنهم واقفون على أحوالنا ومسير الرجال عندها، ومجرى الحوادث في
أرضنا وقوفاً يدهش ويروع ويربك.

في سنة ١٩٣٦ كنت عائداً من العراق مع صديقي الأستاذ أسعد داغر، إلى
شرق الأردن، من صحراء جرداء لا ماء فيها ولا شجر، وأنا لتلمس طريقاً فيها على
حذر، وإذا بسيارة مقبلة، فلما لمح راكبها الطرابيش على رؤسنا استوقفتنا وأقبل علينا
يسألنا عن المفارقات المصرية الإنجليزية وما يحتمل أن تفضي إليه، وهل يرجى لها
نجاح؟ ولم تكن نعرف شيئاً يجيز لنا أن نعرب عن أكثر من الأمل فدعى لمصر بخير
ومضى فمعلمنا نتعجب لهذا الشيخ - فقد كان من شيوخ العشائر - وعنايته بلخبار
مصر ودقة نتيجه لها.

وفي هذا الشتاء كانت صحف مصر تتخطف في بغداد، وغيرها من مدائن

العراق، وكان في بعضها أسماء المرشحين في الانتخاب لمجلس النواب، فكان أغرب ما في الأمر أني أنا المصري لا أعرف شيئاً عن معظم المرشحين، على حين كان العراقيون لا تحفى عليهم من أمرهم خافية، وقد جاء تقديرهم لاحتمال النجاح والإحفاق أقرب إلى الصحة من تقديري فيما بيني وبين نفسي فقد كنت في هذا وما إليه أترجى أن أصغى إليهم دون أن أقول شيئاً

وما من كتاب ينشر في مصر إلا وهو يلتهم التهاماً في البلاد العربية، وهم لا يكفهم أن يقرئوا ويدرسوا، ولا يقتنوا إلا بأن يقفوا على بواعث التأليف أيضاً، ولماذا طبع في هذه المطبعة دون تلك. إلخ.

وفي سنة ١٩٢٠ برر لي شباب في صحراء الحجاز - عند وادي فاطمة - وسألني

“ألمست المازني؟”

قلت: “نعم فكيف عرفتني؟”

فقال: “عرفتك من صورة لك نشرتها مجلة الاثنين”

ولمست هذه سوى أمثلة قليلة من مئات يسهل سردها بلا عناء

والذي أريد أن أقوله هو إن على كل مصري أن ينكر أن البلاد العربية مفتوحة العيون والأذان، وأن يحرص على أن لا يجرى لسانه أو قلمه، بما يسئ إلى سمعة مصر أو يقض من مقامها في الشرق العربي

وأنا كما يعرف القراء وجل لا أنتمى إلى حزب، وقد نثيت بنفسى عن المعتزك السياسى الحزبى منذ سنوات عديدة، وليس في نيتى أن أعود إليه ولو أفضى ذلك إلى ترك الصحافة، وإذا كانت قد ظالت متشرفاً بالعمل في “الإبلاغ” فذلك لأن صاحبه تفضل فترك لي رأيي واستقلالي ثقفته أنه لا مغرب لي، وأن المصريين جميعاً سواء عندي، وأنى لا أعط أحداً فضله، ولا أقص بالتأييد والمناصرة على من يحسن

وقد قال لي عراقي حكيم "يا أخي إن الله قد خلق لنا عيوبنا في وجوهنا لنرى بها ما هو أمامنا لا لتظل نردها إلى ما هو وراءنا، أفليس خيراً للبلاد العربية أن تنظر على المستقبل وتتصرف عن الماضي بخيره وشره؟".

وما أرى إلا أن كلمتي هذه ستغضب الناس جميعاً، ولكنها كلمة الحق، ولست أبالي من رضى ممن غضب، فليس همى أن يرضى الناس، ولا أنا أخشى غضبهم، فعالي عندهم مغرب، فكأمانهم أو أصانهم، فإذا استجابوا لدعوة الحق، فيها والله الحمد والمنة، وإلا فقد بلغت وبرئت منى والله الموفق.

إبراهيم عبد القادر المازني

فى مهرجان المعرى^(٣١)

كنت أحلم بأيام أقضيها على ساحل بحر الروم فى سكون وبعثه، وإذا بمجلس النقابة يفاجئنى، ونحس مجتمعون فى دار البصير بالإسكندرية، بندى لتمثيله فى مهرجان المعرى، فقلت لنفسى "جاءك الموت يا تارك الصلاة" فقد كنت أعود إلى المعرى من حين إلى حين، فأتناول من آثاره أقربها إلى يدى وأقرأ آياتاً من اللويميات أو سقط الربد أو سطوراً من العصول والغايات أو رسالة العفران ثم أطوى الكتاب وانتقل إلى سواء أو أروح أفكر فيما يشغلى من أمور دنياى أو أدرك له المكتبة كلها وأجلس إلى نافذتى أطل منها على خلق الله، فالآن صار على أن أحشد آثاره كلها وكل ما كتب فيه الأقدمون والمحدثون وأعكف عليها عكوف الدارس لا المتصفح المنلهى، وسيمستغرق ذلك وقتى كله، فما بقى على السفر إلا شهر أو نحوه، وسيصرفنى عن السعى والعمل وكسب الرزق بحرق الجيبين، فإنى أعمل لأطعم، وعلى قبر العمل يكون الرزق، وليس من العدل أن يجئ المعرى بعد أن شبع موتاً وفناءً، واسنراح، وإن كان لم يرح، فيشوق الأرض ويخرج لى منها ليقطع رزقى ويرقى عيالى

واستخبرت الله وتوكلت عليه، وقلت لا بد بما ليس منه بد، فما كان ثم سميل إلى الاعتدال محافة أن يحمل على غير محمله، أو يؤول بالعجز والقصور، وإنى لعنصر ولكنه لم يبلغ من عجزى أن يعينى أن أكتب كلمة فى هذا المعرى تقبل على التسامح وصارت المسألة هى "ماذا أكتب؟ وأى موضوع أتناول؟" وكنت أعلم أن أعلام

(٣١) نشرت فى جريدة "البلاغ" فى ١١ أكتوبر سنة ١٩٤٤، (ص ٢).

الألب في البلدان العربية مدعوون إلى هذا المهرجان، وكنت على مقبض جازم أنهم لن يدعوا لي سم خياط أنفذ منه، وقد دعيت من مصر وحدها جعيرة من أعيان البيان وأمرء التثر والشعر، وأساطين البحث العلمي (أوف)، وأساتذة الفلسفة والتاريخ (يا حفيظ) مثل العقاد وطه حسين وأحمد أمين وعبد الوهاب عزام وعبد الحميد العبادي وأحمد الشايب، وماذا يصنع صطوكه مثلي بين كل هؤلاء الملوك؟ ألا حيلة لي أردهم بها عن هذا المهرجان فيخلو لي الميدان؟

وأصبحت يوماً على أحب وجه إليّ، وإذا بالتليفون يدق، والعقاد يطلبني وينبئني أنه ينوي الاعتذار، وأنه مشغول بما يؤلف فلا وقت عنده للسفر، فقلت لنفسى "يا فرج الله؟ يا ما أكرمك يا رب!" هذا واحد بالغ قد أثر القعود، فظلت لي رقعة فسحة يسعني فيها - والقليل يكفيني - أن أجول وأصول، وأصبح هل من منازل؟ هل من مزار؟ وإن العقاد لقوة صالحة، وإن المعري لقوة أخرى مما مارح بيته أربعين سنة وزيادة، ودرت على أهل العلم أسألهم عن "التعازيم" التي تزهد الناس فيما يراود تزييدهم فيه، لطى أستطيع أن أصرف طه وشركاه عن السفر فاستأثر بالطاعة كلها، وخطر لي أن أحاول أن أبعث إليهم بموجة نفسية تنمهم، على السعد، فلوحي إليهم أن يقعدوا عن السفر، وعلمت أنهم ذاهبون بالقطار، فقلت أذهب أنا بالطائرة، وعسى الله أن يعطل قطارهم أليس الله يفعل ما يريد؟ ألم تمت أمى وهى عنى راضية، ولى داعية؟ بل لقد تمنيت أن تسقط الطائرة فلا تقتلنى ولكن تكسر لي نراعاً، فيكون لي هذا عذراً كافياً، ومخرجاً ومسعياً من هذا المنزق، ويتسنى لي أن أنبى أنى كنت أعبت بحثاً أى بحث! ولكن مشيئته ربي قضت أن أتألف، ولما كان قلبي عويصاً، وخطى رديماً، وألتي الكاتبة قد سطا عليها من سطا، ولا بارك الله له فيها، فإن من العسير أن أنيب عنى أحداً في ثلاثه.

وكان لا بد أن أبلغ المجمع العلمي العربى بدمشق عنوان بحثي، والعنوان آخر ما أكتب وأنا لم أكتب شيئاً، فقلت إن الله لم يخلق لي هذا الرأس الذى بين كفتي، عبثاً أبعث إليهم بلنى عنوان يضطر لي الآن، وأحتاط فقول في كتابي إليهم إننى مندوب نقابة

الصحافة المصرية. وأنه يجب من أجل هذا أن يكون لي مكان ملحوظ بين معناتي الهيئات هي هذا المهرجان ثم أسافر على بركة الله. وأعرض على كل مكان أوضع فيه، بين الباحثين أو الآكلين أو القاعدين أو الواقفين، وأعضب، وأثور وأحتج باسم الصحافة المصرية على ما لحقها من هوان، وأقاطع المهرجان، وأذهب أتنزه على هواي، وكفى الله المؤمنين القتال ولا بحث ولا يحرنون ولا وجع بما غ

ومن العجيب أن هذا الخاطر اسنولى على نفسي وأستبد بها، فما تناولت القلم لا قبيل السفر بيومين اثنين، وكنت قد شيعت من القراءة والمراجعة وأشععت المعرى وأوسعته نماً ونقمة، أليس هو الذي جر على هذا العناء الذي كان بي عنه غنى؟ ولماذا عدت السبون التي انقضت على وفاته بالصاب القمري؟ ولو عدت بالصاب الشمسي لبقى على تمام الألف ثلاث وثلاثين سنة؟ والله إنها لفكرة أذهب إلى القوم وأقول لهم إن إقامة المهرجان في هذا الأوان غلط في غلط، وأن الشيخ عفا الله عنه يستحقها ويستقل عقلاً ويسخر منا في قبره إذا كانت عظامه ما زالت باقية فيه، أو في الحنة أو في جهنم، فما أرى ماذا صنع الله به، وأنه القادر على مثل هذه السخرية، فإنه في كتبه يعاثر الملكين الذين يحاسبان الميت ويسألانها أسئلة نحوية وإفوية

وكان هذا كله مني عناء لا خير فيه ولا طائل محته، فركبت الطائرة فلم تسقط وركب إخواني القطار فلم يتعطل، وكان أول ما أصابني مما يسمي الأستاذ الحليل إسعاف بك النشاشيبي "العناء في سبيل أبي العلاء" أنه أفقعت قداجتي قبل أن أركب السيارة إلى المطار، وقد يستخف الناس بهذه الخسارة وإنها لخسارة هينة، وأفون مما ثعنه قروش، ولكنني أستحي أن أقدم إلى من لا أعرف وأسأله أن يعيبرني عود ثقاب، أو أن أهدئه بئى كلام، فما العمل؟ كان العمل أني ظلت إلى أن لفت الفندق في دمشق أضرب يدي في جيبتي لأخذ سمجارة، ثم أخرجها هارعة، وإنني حرمت التخخين أربع ساعات ونصف ساعة، فتعلم هذه الفاتحة

(٢)

فى مهرجان المعرى^(٢٢)

وكان المطار يعج بالخلق، ونظرت فإذا الطائرات المصرية شتى، فتقدمت إلى الميزان فتقسم الضابط - ومعزرة إذا كت مخطئاً فإنهم هناك جميعاً يلوحون ضباطاً، ولا علم لى بدلالات هذه الأشرطة التى على الأكتاف - ولكن هذا لم يكن دورى، وعلى كثرة الناس والطائرات، وبعضها يذهب إلى فلسطين والبعض إلى بيروت، أو تونس، أو دمشق، لم تكن ثم ضجة أو زحام وكان كل شيء يجرى بظام وفي سكون، يوزن المصافر وتوزن حقائبه فيحملها الخادم إلى "الجمرك" وينهب المرء إلى مكتب الجوازات، ومعه إلى "الجمرك" ثم يخرج إلى حديقة صغيرة على هامش المطار حتى يدعى إلى طائرته

وكانت طائرتنا "الفسطاط" ضخمة ذات محركات أربعة، ولم أر أعرف ولا أرق حاشية، ولا أصبح وجهاً من الطيارين اللذين يقودانها، وقد أسفت لأن الحياة منعت أن أتحدث إليهما وأعرف اسمهما، وكان حنقهما كفاء طرفهما، فكانت الطائرة تهبط فى كل مطار على الطريق فى موعدها لا تتقدم عنه ثانية ولا تتأخر، ولم أشعر إلا بالراحة والطمينة فاضطجعت ونمت، فلما نزلنا فى "الد" أو على الأصح فى مهبط قريب من مطار الد، قلت فى سرى أما ماذا ترى سيصنع بى هذا الرجل المنتفخ

(٢٢) مشرد فى البلاغ، فى ١٢ أكتوبر ١٩٤٤ (ص ٣)

الأوداج القاعد في خيمته؟ لقد عويتني فلسطين في السنوات الأخيرة أن تردني عنها، وأن تتلفاني متجهمة ولا تفتح لي في الدخول إلا وهي كارمة متوجمة كئني كتلة من الديناميت لا إنسان من اللحم والدم، وقد حدث مرة أن دعيتي قبيل الحرب محطة القدس الاسلاميكية وهي مصلحة حكومية، إلى إزاعة حديث منها عن الهجرة النبوية فقبلت مغتصلاً وساعترت بالطائرة، فلما وقفت أمام الموظف المختص بالجوازات رأيته يتردد وهي يختم الجواز، ويراجع اسمي، ثم يتناول كتاباً أسود ضخماً فينظر فيه ثم يدعوني أن أنتظر في المقصف أو حيث شئت، وبعد ساعة أو أكثر يدعوني إليه ويعرب لي عن أسفه لأنه مضطر أن يفي على الدخول، وأن يعيدني إلى مصر، ثم تفضل فأتيت أن الطائرة القادمة من بغداد ستصل بعد ثلاث ساعة، فعي ومعني أن أستقلها إلى مصر.

فتعجبت لأن حكومته هي التي دعيتي فكيف تصدني عن ملائمتها؟ وأريته عقد الإذاعة، فوز رأسه، وقال إن هذا ليس من شأنه وإنما تلقى أمراً فهو يمشيه قلت: "ليس هنا تليفون لأتحدث مع مصلحة الإذاعة وأبلغها الخبر فاست أهب أن نعلن بي أنني أخلفت الوعد".

قال: "بلي، في الرملة تليفون تستطيع أن تتحدث منه وتخطبها والرملة" فاعلم على مسافة عشرة كيلو مترات!! وكان إلى جانب غرفته، غرفة أخرى فيها مكتب لشركة مصر الطيران وفيها تليفون، ولكنه أثر أن يبعث بي إلى الرملة على مسافة عشرة كيلومتراً.

وانصلت بمحطة القدس بعد لأي، فاتصلت هذه بإدارة الأمن العام في فلسطين فعدلت عن المنع، وأذنت لي في الدخول فاقبل موظف الجوازات مهزولاً ووجهه طافح بالبشر والسرور، وإسنانه يجري بعبارات التهنة لي!

قلته. يا أخى؟ إنما التهنئة لكم دونى، فما يعنينى أن أدخل أو أخرج، وإن
الأميرين عندى لسيان، وقد كان الطيران إلى هنا نزهة جميلة، وأرى حفلتكم بى الآن
عظيمة، وكنت قبل ذلك تنسى أن على نراعين من غرفتك تليفوناً غير حكومى، ولأنك
إلا التليفون الذى فى الرملة، فإذا كان لا بد من الرد أفلا يمكن أن يكون بالتي هى
أحسن دون التى هى أخشن؟

ذكرت هذا الذى اتفق لى منذ ست سنوات أو أكثر فلشفقت أن يتكرر، وضاعف
هواجسى وسلوىسى أن موظف الجوازات الذى فى القيمة صرغنى على أن يبعث إلى
بالجواز فى الطائرة ولم يكن وجهه وهو يتأملنى يبشر بخير، فانصرفت وأنا قلق ولم
أستطع أن أنوق عصير الليمون الذى قمتنا لنا شركة مصر بالمجان، ولكن الله سلماً!

وعادت الطائرة إلى التحليق، وكنت راكبها الوحيد بعد أن غابها الآخرون فى
بورسعيد والد، فانتفضت ووضعت رجلاً على رجل، ولكنى شعرت بالبرد وكنت أردت
أخف ما يرتدى فى الصيف فتجمعت ونظر إلى الطيار الثانى وهو يبتسم وهز رأسه
كلئما يريد أن يقول إنى مسافر بطائرة خاصة، فأنشورت إليه لتى مقبور، فخف إلى
جزاء الله خيراً وحجب منقذ الهواء وجاعنى ببطانية فشكرته ونمت!

وهبطنا فى مطار "المزة" على مسيرة تقايق بالسيارة من دمشق فإذا أربعة حول
منضدة يدور عليهم الجواز ويفحصه كل منهم ولكنى كنت مطمئناً فإن هذه دمشق لا
الله، ومصرية لا فلسطين، والأمر هنا لأهل البلاد لا لبعاء الوطن القومى^(٢٢)، ولم يخب
طنى فلقيت من رجال الجوازات وموظفى الجمرى التيسير والحفاوة، ولم يكن معى
شيء إلا ثيابى، وإلا الكلمة التى أعدتها لمهرجان المعرى. وقد أظهرتها لهم وأطلعتهم
عليها فقبسوها وتركوها لى فى الحقيبة وإيتهم أظفوها! إنى أوسمنى أن أعتر بئها
معهم وأنى لا أستطيع من أجل ذلك أن ألقبها، فالتقى سواد الوجه، ولكن كل شيء كان
لكينتى فلا مفر من القضيعة، على ما يظهر، بين هذا الحشد من أعلام الأدب والبيان،
والأمر لله

(٢٢) ربما يعنى "الوطن القومى اليهودى" (المحرر)

وليسـت هذه أول مرة أُرور فيها دمشق، فقد زرتها قبل عشر سنوات، لا أراها قد
 عبرت منها كثيراً، فما رالت كما عهدتها، وما انكف من عرفت من أبنائها كما كانوا -
 كئن السن لم ترتفع بهم، أو كئن شبابهـم عليهم سرمد، حتى من كانوا شيوخاً يوم
 لقينهم قديماً، ظلوا ملء العير بها، وإشراق بياحة فلا بد أن تكون دمشق هذه قطعة
 من الجنة، أليست الأشهار تجري من تحتها، ألس أملها منها في جنات وعيون لهم
 فيها فاكهة ولهم ما يدعون؟ يطاف عليهم بكس من معين؟ بيضاء لذة للشاربين
 وعندهم قاصرات الطرف عين؟ كئنهم بيض مكنون؟ امتت بالله

وكان أول من رأيت على باب الفندق صاحب مجلة الأحد إيليا شاغوري - وهو
 صديق قديم أثير، لولا أن يكره أن أصفه بالقديم، وله العذر فإنه ناعم رفاق الشباب،
 والله وحده أعلم بما طوى من سنين. وإعل قلبه الكبير العطوف هو الذي يرقق في
 مضيء هذا الرونق العجيب، ولكن ألم أقل إن القوم في دمشق لا يهرمون؟

ولحت خلفه وعلى قيد أمتار منه أستاذ العربية الجليل إسعاف بك الشاشيمي
 "أعلم من عرفت بلغة القرآن وأنبها وتاريخها، وأعير من لقبت على دين محمد والإسلام
 الصحيح"

فقال وهو يعانقني: "سل إيليا، ألم تكن ننكرك قبل دقائق؟"

قلت: "صديق! أذكر القط يجيبك ينط"

وقال إيليا "ماذا تتوى الآن؟".

قلت: "استوثق من القوز بفرقة في هذا الفندق القخم، ثم أكل فإنني أنضور"

قال: "هنا؟".

قلت: "ولم لا".

قال: "أعرفك تحب الأكال الشامية، وإن تجدها هنا، فتعال معي"

والمضاً معاً على الأستاذ إسعاف حتى أسلم أمره إلى الله ففرزنا به.

(٣)

فى مهرجان المعرى^(٣٤)

رأيت عصر ذلك اليوم الأول أن أروى المجمع الطمى، فإنه هو الذى يقيم المهرجان وهو الداعى إليه، ثم لأن لى معه قصة، فقد بعث إلى رفيقه الجليل الأستاذ محمد كرد على، قبل عام ونصف، بكتاب تلو كتاب، يبشئ أن المجمع احتارنى عصواً فيه، فقصرت فى واجب القبول والشكر - أو هذا ما ظن القوم بى، فقد جعل لى غير واحد من القادمين من دمشق عتب صديقى الأستاذ كرد على، أما الحقيقة فهى أنى ما قصرت ولا أهملت، فقد كتبت الجواب، ونصتته فى جيبى لأصغه فى صندوق البريد، فنسيتته - وما أظن به إلا أنه فى بعض جيوبى إلى الآن، فإنى أغير ثيابى فيحرص أهل بيتى على أن يدعوا أوراقى حيث أتركها، فإذا كان لا بد من نعلها وضعوها لى تحت المخدات، أو فى حيث يسهل أن أراها، واكتفوا بتسليمها لى بقول لهم "طيب، طيب" وأعود إلى ما أنا مشغول به، وأنسى كل ما عداه، كالعادة، ونمضى الأيام، ويعلو الكوم الذى تحت المخدة، حتى يتعذر النوم المريح، فأصجر، وأنتمر، وأرواح أنفخ، وأسخط، وأقول:

"ألا يمكن أن أجد فى هذا البيت الطويل العريض وسادة لينّة؟"

فيقولون لى: "إن الذئب للأوراق التى تحضرها تحت الوسادة، لا للوسادة"

فأصيح: "وهل أنا الذى يحضرها أم أنتم الحاشرون؟ خنوها فأحرقوها أو

(٣٤) نشرت فى البلاغ، فى ١٤ أكتوبر ١٩٤٤ (مر٢)

اصنعوا بها ما شئتم، فما يعينى إلا أن أريح هذا الرأس المكبود، لكفى والله عبد رقيق
اشترىتموه! أتعجب لتتعلموا بالخلف والدعة وبشجرة العيش، وكل حظى بعد الجهد
والمشقة [٢٥)] ومسادة كالحجر، فإذا شكوت قلمى فى الأوراق! سبحان الله العظيم،
كلما كان يمكن أن تعيشوا طامعين كالمسكين مكفين لولا هذه الأوراق!"

وهكذا نسيت الجواب، قضاع أو أكلت النار أو لا أدرى ماذا صنع الله به، فلا بد
من زيارة المجمع والاعتذار إليه

وقال أحد الإخوان: "ولكنك لا تعرف الطريق إلى المجمع".

قلت: "بل أعرفه، فإنه من المسجد الأموى قريب"

وقال آخر: "يجب أن نطلب لك مركبة تحملك إليه، ويتفق لك مع سائقها على
الأجر سلفاً".

قلت: "لا بأس".

وجاءت المركبة، وقيل للسائق أحمله إلى المجمع العلمى، وزاد أحد الواقفين فقال
للموذى: "إنه عند مسجد بجنس" - أو بجنس فقد نسيت - فهز الموذى رأسه وقال:
"تكرم"، ورفض أن يكون أجره "ليرة" سورية أى مائة قرش سورى، وهى تساوى أحد
عشر قرشاً مصرى، واضطجعت فى المركبة، فسارت بى عشر خطوات ونصف خطوة
ووقفت.

فسألت "ماذا جرى؟".

قال: "هذا جامع بجنس وهذا هو العهد"

فخطر لى أن اهل المجمع انتقل إلى دار أخرى فترجعت وأنا أتعجب لماذا أبى
إخوانى إلا أن أحمل فى مركبة لا تقطع بضع خطوات! أتراهم ظنوني كسيحاً؟ وتطرت

(٢٥) غير واضحة فى الأصل (المحرر)

قرأت مسجداً، فيه "معهد شرعى".

فقلت "يا ثخانا إن هذا غير ما أبغى، هذا معهد شرعى وأنا طلبتى المجمع العلمى".

قال: "إنما قالوا لى جامع يجلس وهذا هو الجامع وفيه المعهد".

فتقديته الليرة، وأنا أحدث نفسى أن روكظر كان خلبقاً أن يتناهى به سوء الحال

فى الفقر إذ، كانت كل عشر خطوات تكلفه ليرة؟

واستغثت عن المركبة وسرت على قديمى إلى سوق الحميدية، وطلت فى حيث

أعلم أن المجمع قائم، فإذا به ما زال هناك، ولكن لا أحد به غير بضعة حجارين

ينحتون حجارة ويرصفون بعضها إلى بعض فى أرض الفناء

وخفت أن اسنقل سيارة أو مركبة، وأنا عائد، فيتقاضانى السائق أو الحوىء فوق

ما حملت معى من مصر من مال.

والحقيقة أنى لا أدرى كيف يطبق الناس هذا العيش فى الشام، ولا من أين

يجئون بالمال حتى للكفية بمجردها؟

مسحت جذائى فطاب الرجل نصف ليرة أو خمسين قرشاً - أى ما يعادل خمسة

قروش مصرية ونصف قرش، فصحت به "من تظننى؟" ولكنه أمر فلم يسعنى إلا

التسليم، وعلمت فيما بعد أنه غلا واشبط، وأنه كان ينبغي أن يكفى نصف هذا القدر

أى بنحو ثلاثة قروش مصرية، وحتى هذا ليس بالزهد

واحتحت إلى مفاديل يباع الواحد من أمثالها فى مصر بعشرة قروش، أو نحو

ذلك، فإذا الثمن هناك أربعة وأربعون قرشاً مصرية؟

وسالت بعضهم، "ما أقل مبلغ تقمه إلى خادم كلفته عملاً؟"

قال: "قد يرضى بربع ليرة، ولكن يحسن أن تجعلها نصف ليرة"

قلت: "بل سأعمل بقول القائل: ما حلك جلدك مثل ظفرك!" فتول أنت جميع أمرك -
على الأقل كلما تيسر ذلك وبخل في السلوك"

وصرت أحرص، كلما أخرجت محفظة نقودي أنني مليونير، فإن كل حساب لا يكون
إلا بمئات القروش، وقد حاولت مساء يوم أن أحصى ما أنفقت في نهاري قدار رأسي
فقد بلغ الرقم الآلاف وأنا ما ألفت في مصر إلا الأحاد، وكان يخيل إليّ كلما أنفقت
لبيرة سورية أنني أنفقت جنيتها مصرياً فاقول في سرّي: "يا خير أسود! ستسول هنا
بعد ساعات، فما العمل؟ ومتى ينتهي هذا المهرجان فنعود مستورين، بل متى يبدأ
فيذهلني عما أنا مسوق إليه لا محالة من العدم والمصلحة؟"

وقد سألني بعضهم عن الحالة المعاشية في مصر فما وسعني إلا أن أقول له: "من
رأى مصيبة غيره، هانت عليه مصيبته"

غير أنني بعد أيام ألفت ذلك فزأيلني العزع والجزع، وأصبحت أغتبط بأن أدفع
يدى في جيبي فتخرج حزمة ضخمة من أوراق النقد وأرمي بالعشرات منها غير عابئ
بها أو أسف عليها لو مشفق من عواقب الإسراف، فتأله ما أسرع ما يتكيف المرء
كما يقولون ويأتف كل ما كان يستهوله أو يستكره!

وخرجنا في المساء، بعد العشاء - نتمشى، فكانت ليلة، ولكن هذه حكاية تستحق
أن أفردها فصلاً قائماً بذاته

(٤)

في مهرجان المعري^(٣٦)

أي نعم كانت ليلة ولا كاليالي، وخير ما فيها أنها جاءت عفواً على حد قول
الشاعر ولحسبه ابن الرومي

لم يكن ما كان شيئاً يعتمد بل أموراً وافقت يوم الأحد^(٣٧)

سوى أن يومنا كان الخميس - أول أيام في دمشق - وكنا ثلاثة أو أربعة وكان
رفقائى يتغيرون كلما مقس من الليل مزيج، فيذهب قوم ويجي قوم، حتى خيل إلى أنى
كالزمن أو الدنيا، يتبدل الناس، ويتعاقب الأجيال، وهى كما هى

وما كنا نخرج من الفندق - فنق لوربان بالاس، أو خوام الجديد على الأصح -
ونسير خطوات حتى وقفت أمام بناء شامخ فسألت الإخوان "البك السوري؟"
قالوا "نعم".

قلت "هنا إذن يكون سامى الشوا قد وقف ويكى وعرف وجمع عليه الخلق؟"
قالوا "وكيف كان ذلك؟".

فرويت لهم الخبر كما حدثنى به سامى نفسه، قال إنه قدم دمشق مرة فاستوقفه

(٣٦) نشرت في البلاغ في ١٥ أكتوبر سنة ١٩٤٤ (ص ٢).

(٣٧) هو فعلاً لابن الرومي وهو من بحر الرمل (المحرر).

هذا البناء الضخم، وهو من الحجر الأبيض، ولم يكن يعرف أنه البنت السورى، فظنه صبغاً، وإن كان قد استعرب أن يقام السجن فى قلب المدينة وأحدث أحيائها، ولكنه حدث نفسه أن لعل المقصود العبرة، وصوب عينه إلى البديوم - أو السرداب كما يسمونه فى العراق - وإلى نوافذه وعليها قضبان من الحديد، قرأى هتات كثيرات حسبهن السحينات ففرق لهن قلبه الكبير، وأعروقت عيناه بالدمع، وأقبل عليهن - أو على النافذة يعرب لهن عن أسفه وعطفه وهو يشفق والدموع على خديه، وكانت الفتيات ذكيات خبيثات، ففدين الحزن وتظاهرن بالبكاء فما كان منه إلا أن أريد يعود إلى الفندق فحمل كمانه وعاد بها إلى النافذة وألقى على أطراف قدميه، وراح يعزف لهن ليرفه عنهن فاجتمع عليه حلق كثير، وهو ساء له، لا يرى إلا هؤلاء المسكنات، ولا يفنيه إلا ما هو ميه، وأروع ما يكون عرف سامى، حين تنفله عاطفة جياشة عن حوله، ويتكاثر الناس حتى سدوا الطريق وعطلوا المرور واحتاج الأمر إلى تدخل الشرطة؛

وقد ظل لا يعرف إلا أن هذا سجن للنساء، حتى اجتمع ببعض من رأهن وعرف لهن من الفتيات، فى ناد من الأدب، فقبل عليها يسئلهما متى أفرجوا عنها، فاستغرب الذين كانوا معها، فضحكت الفتاة وقصت القصة واعتذرت إليه؛

واستأنفنا السير - أو السرى على رأى المتحذلقين - فمررتا بمقرص أو دار لهن فيها غناء ورقص، وما أعرفنى قط عبت شيئاً بمثل ذلك، ولكنى قرأت على لوح كبير يعترض الطريق فوق الربوس - اسم نزهة العراقية - وهى فتاة رأيتها مرة فى بغداد فى أولى زيارتى للعراق، فلعجبت بها وتوسعت فيها الحير وأسست من حديثها نكاء القلب ومروعة النفس والإخلاص، ولم تخفى فراستى، فقد سمعت عنها بعد ذلك ما زاننى إكاراً لها، وقد أخرجت من العراق وإن كانت تنسب إليه، لأسباب سياسية فلما صارت فى الشام لاحقها سوء الحظ أو سوء الظن بفرعاتها السياسية، فاعتقلت عاماً وتيقناً، وكان من عجب تصريف الأقدار لأمور دنياها، أن ينجو رجال سياسيين من الاعتقال ويقع فتاة، لا يضيئها الفن، على إخلاصها له وتخليها لحظاته، أن لها وطناً وإن كانت لا تنزل إلى ميدان العمل.

وقلت لإخواني: "ما رأيكم؟ أنى أشتفى أن أدخل وأنظر إلى نزهة، فإن لها فى قلبى لثوة، ليست من العشق والعياذ بالله منه، بل من الإعجاب، وما أظنها تنكرنى لو تعرفتى حين ترانى، وما بدرينى لطفى أنا أيضاً لا أعرفها إذا رأيتها"

فدخلنا، وكانت مقفلة من وراء المصراع، فغمزوني، وأشاروا إلى ناحيتها بلحظ العين، وإذا بها تقف وتحملق، ثم تعود إلينا وتتاول كفى وتحببني أجمل تحية، وطالت الوقفة فدعوتها إلى الجلوس فقالت: "نحن هنا فى مكة، فلا يؤمن لنا فى الجلوس مع الآخرين"

وتجهم محياها فسألتها "ولكن لماذا؟"

قالت: "لأن الفن على ما يظهر، شىء زرى محترق"

فغيرت الموضوع وقلت: "إنى مفتبط برؤيتك، وأتمنى لك كل خير. والآن إلى اللقاء، إن شاء الله"

وانصرفنا ولم نتأبط، وسأعود إليها مرات أخرى فقد غمرتنى بكرمها وعروجهما وطوقنى بما لا يفى به شكر

وقال بعضهم "ما قوالك فى زيارة فخرى البارودى؟"

وفخرى البارودى هذا أحد نواب دمشق، وصديق قديم لى، وأديب واسع الإطلاع، وله شعر يتفكه به ويعبث، وهو فوق ذلك وقبله من أطرف خلق الله. وأولا أن أظلم غيره لقلت إنه أطرف الناس قاطبة، وكنت قد سمعت قبل سفرى إلى دمشق أنه يكتب خطأ يثبت فيه أن المعرى كان عالماً بالموسيقى، فاشتقت أن أطلع عليه، وإن كنت أعرف أن أبا العلاء أحاط بكل ما كان فى زمانه من علوم وفنون وأدب

وأقلتنا سيارة إلى مكتب اتخذته فى زقاق قديم، فدخلنا فإذا بستان صغير، وإذا هو متريع فى حجرة كبيرة على مقعد عظيم وقيع كفته العرش، وأمامه منضدة طويلة عليها طوائف شتى من الكتب والدفاتر والأوراق المبعثرة وحوله عدة من رجال الموسيقى

يضمرون على العود والكمان، وإلى جانبه طبله ورق، يتقر على هذا تارة، وتلك تارة أخرى

فسأته: "ما هذا؟"

قال: "يا سيدي هذا لحن صبيغ في أبيات للمعري، ونحن نضبطه الآن، والعزم أن يُعزف في مهرجانه"

قلت: "والبحث الذي سمعت به؟"

قال: "قرغت منه، ولكني لن ألقبه لأنه لا يلقي في المهرجان من الأفراد - دون ممثلي الهيئات - إلا من كانوا أعضاء في المجمع العلمي"

قلت: "خسارة"

قال: "وأى خسارة، ولكن شو يدك من "

وانطلق يسبح بما لا يروى!

وبيقينا في سماع وسمر ليس أطى منهما ولا أجلى للمصدر أو أنفى للهم إلى الثانية صباحاً، فاصبرفنا وتركناه لأمانه، يسهر فيها الليل كله حتى يتنفس الصبح

وقلت له وهو يوبخا بالعناق والقبلات: "ألا تزل في ضلالتك القديم؟"

قال: "شو يدك تقول؟"

قلت: "حتى كل من تلقى بالعناق والقبله عسى أن يكون أحد الوجوه صليحاً بضاً "

قال: "يا مازني اتق الله"

قلت: "اتق الله أنت يا أخى، ألا تحلق على الأقل فلا تخزننا بهذا الشوك الذي في وجهك؟"

فكر علينا يقول: "يا عيني، يا عيني على الخدود الفضة مثل الحصى!"

فانهزمنا،

(٥)

في مهرجان المعري^(٢٨)

كان همي، وقد بت في دمشق، أن أرى كل ما يتضمن رؤيته في أربعة أيام في دمشق ذاتها، وحولها، وعلى كتب منها قبل أن يبدأ المهرجان فنشغل به عما عداه فزرت من مصايف الشام الزيدانيّ وبلودان ويبلغ علوها عن سطح البحر نحو ١٦٥٠ متر، وثيقين وفيها عين ماء من أحلى وأطيب وأنفع ما ذقت، وشتيرة من مصايف لبنان على الحدود السورية، ونحلة المشهورة بمانها وعرقها.

وبكت أخرج في الصباح فلا أعود إلا ليلاً، ومن أجل هذا سماني إخواني "الرواغ" فأبدا سأل عني سائل قالوا "زاغ" كالعادة، حتى لقد أشيع في اليوم الثاني من أيام المهرجان أني سافرت إلى "اللاتقية" في أقصى الشمال من سورية فلما رأوني أعود إلى الفندق في مساء اليوم دلتهم نجحوا لي كيف استطعت أن أقطع كل هذه المئات وهي تقرب من الألف - من الكيلو مترات نهاباً وإياباً في نهار واحد، فقلت لهم مازحاً "ألا تعلمون أن عنكم المازني قد أصبح من أهل الخطوة؟"

على أن الإشاعة أصلاً تمور إليه، ذلك أني بعد العشاء في أول أيام المهرجان - أثرت الجلوس مع الصديق الكريم العالم الجليل الأمير مصطفى الشهابي أمير اللاتقية أو محافظها - فقال لي فيما قال إنه عائد من غد، إلى اللاتقية ليعد العدة لاستقبال أعضاء المهرجان فيها، واقترح على أن أصبح به وأبقى معه حتى يلحق بي إخواني فعود معهم.

(٢٨) نشرت في جريدة البلاغ في ١٧ أكتوبر سنة ١٩٤٤، (ص ٢).

وكانت التكاليف الرسمية قد تكلفت علىَّ بعدَ نهار واحد، وليس أيفض إلىَّ منها،
فزارعتني نفسي أن أقبل.

فقلت له: "ليس أحب إلىَّ من ذلك ولكن سألني كلمتي في حلب، مما العمل؟"
قال: "تغير الترتيب فتلقاها في اللاذقية"

قلت: "إذن يحسن أن تستشير خليل بك مرهم أمين سر المجمع العلمي"
ففعلنا، فلم يوافق خليل بك، وقال إن حلب خليقة أن تنور إذا نحن فعلنا ذلك، وقد
كانت تسأله عني وتستوثق قبل ذلك بدقائق واستشهد بالدكتور أسعد طلس، فمن على
قوله

فعدلت مرغماً، وكان المقرر أن يزور أعضاء المهرجان في صباح اليوم التالي أثار
بمشق، وقد زرتها من قبل، فتخلقت عن مشاركة الإخوان في هذا الطواف وقصدت
إلى "بلودان" فكان أن شاع وذاع أنني سافرت إلى اللاذقية

ويحسن بي أن أقول إن وقد مصر - حكومتها وجامعيتها - كان موضع التكرم
والتبجيل، وكان أعضاء جديرين بكل ما اقوه من حفاوة وإجلال، ولو أن الخيار كان
لي لما اخترت غيرهم، وقد كنت مزهواً بهم فخوراً بثنى منهم وهم مني، وحدث ونحس
نزور في صباح اليوم الأول دار المجلس النيابي أن جلسنا على مقاعد الدواب - وكان
المجلس في إجازة - وكنت قريباً من الدكتور طه حسين وليس بيننا إلا مر ضيق هو
الفاصل بين مقاعد اليسار ومقاعد اليمين، فقلت للدكتور طه: "هذا حال مقلوب كان
ينبغي أن تفخذ مكاني وأخذ مكانك قلبي من أهل اليسار"

ونظرت إلى الحائط المواجه لنا قرأت ساعتي على الجانبين، قلنا اليسرى
فمعتلة، وأما اليمين فدائرة تعد الدقائق وتكبد الساعات فحدث الدكتور طه بذلك،
وقلت: "يظهر أن ساعة المعارضة معتلة هنا" وضحكنا، وفي هذه اللحظة أقبل بعضهم
على الدكتور طه وانحنى عليه وأسر إليه شيئاً. فقال: "يا حبيبى! عليك بالنازنى"
وانتفت إلى وقال: "قم يا مازنى واشكرهم بكلمتين".

قلت: "نأ؟ ففتح الله يا سيدي! إني أولاً لا أحسن هذا الضرب من الكلام وإن كان في دأته سهلاً، ثم إن صوتي خفيض لا يصلح إلا للمناجاة، وأهم من كل ذلك أنك تمثل هنا حكومة بلادي، فحكك التقديم ولا يجوز غير ذلك".
فاقتنع ونهض، وقال خير ما يقال في مثل هذا الموقف.

وانتقلنا من مجلس النواب إلى رئاسة مجلس الوزراء، فحياتنا رئيس الوزراء بالنيابة - لطفي الحفار بك - أرق نحية ورحب بنا أجمل ترحيب، فرد عليه الدكتور مهدي البهسيو - أحد ممالي العراق - وإذا بمن عرفت فيما بعد أنه الشيخ عبدالقادر مبارك من علماء الشام وأعضاء المجمع يصيح من أحد الأركان، مرحباً مؤهلاً، ويقول في ختام كلمته، إن من نواعي ضروره أن سمى "عبدالقادر المازني".

فمال على الدكتور طه وقال: "عليك به، فقد وقعت وكان ما كان".

قلت: "بل على جدى به، فإنه سمى جدى لا سمى".

فعاد الدكتور طه يقول: "يظهر أن المفاجآت ستكون كثيرة، فما كان هذا كله في البرنامج، فيحسن أن تعد خطبتين أو ثلاثاً".

قلت: "أما قلت لك إنك تمثل حكومة بلادي فقلت للكلف أن ترد على كل خطيب في كل حفل وكفى الله المؤمنين - مثلي - القتال".

التقيت بالشيخ مبارك ونحن خارجون فقلت له: "يا مولانا شكراً، ولكنك سمى جدى لا سمى أنا، فإن اسمي إبراهيم وأحب أن أبشرك فاعلم أن جدى كان من المعمرين، فعاش إلى ما فوق المائة".

قال: "بشرك الله بالحيوات! إنني سأكون أنا أيضاً من المعمرين".

وهكذا نصوت من الرد على الخطب ولم تكن تلك حيلة احتلتها، وإنما كان هذا واحيى، فما يسعني، خارج مصر، إلا أن أحرص على أن أكون على قدر المستطاع، مثلاً لا ينبغي أن يكون عليه المصري، وإلا أن أعرف حق كل مصري فتؤديه له، وقد

كنت مفتبلاً بما يلقاه إخواني من التكريم والتوقير، وكلهم أهل لهذا وزيادة، وكنت في مجالسي الخامسة أزيد القوم تعريفاً بهم ويقدارهم لا لأنهم غير معروفين، بل لأنه كان يطيب لي أن أوطب لسانى بذكرهم. وأم استقرب حين علمت أنى إنما كنت أقفل مثل ما يفعلون فكان الدكتور طه يسأل عنى ويتفقدنى فى كل مكان، فإذا جئته قال: "خفت أن تكون زغت أو ضجرت أو ساءك أمر، خذك معى فإنى لا أمن أن تروخ". فضحك وروى لى غير واحد من أهل الشام كيف كان يذكرونى بالخير الأستاذ الجليل أحمد أمين بك، وثوبقت الصلة بينى وبين الأستاذ أحمد الشايب بسرعة، ولم أكن قد رأيت من قبل وإن كنت أعرف آثار قلمه وأكبرها، أما الدكتور عبد الوهاب عزام والأستاذ عبد الحميد العبادى قصديقان قديمان كريمان، جزاهم الله جميعاً خير الجزاء فقد رفعوا قدر مصر وأعلى شأنها

وأنقذنى الدكتور طه بلباقته من ورطة. فقد سألتى بعضهم عن حلب ماذا رأيت فيها وكيف وجدتھا؟ فقلت بلا تفكير "لم يسمع الوقت لشيء"، وما رأيت فى حلب إلا القلعة القديمة، ومسجد الفربوس الأثرى، والسوق المسقوفة المشهورة. ثم المحافظ، فظنوها نكتة وتناقلوها، فحقت أن تبلغ المحافظ، وهو رجل فاضل، فيسويته منى هذا المزح الثقيل الذى لم أقصد إليه، فما كان من الدكتور طه حين بلغه ذلك إلا أن صدمهم عن اللفظ بهذه الكلمة، وأولها أحسن توليد فاقتموها وأمسكوا

وما أكثر ما أقال إخوانى المصريون من عثراتى وأصلحوا ما أفسد بحماقاتى.

(١)

في مهرجان المعري^(٢٩)

كان الاحتفال الذي أقامه المجمع الطمى العربى فى البلاد السورية بالذكرى
الألفية لمولد المعري - بالحساب القمري - "مهرجاناً" ولم يكن مؤتمراً أدبياً، وكان الذى
خطر له ذلك واقترحه أمين سر المجمع خليل بك مردم الشاعر المشهور، وكان فخامة
الرئيس السيد شكرى القوتلى هو الذى يسر الأمر كله وأقنع الحكومة السورية بأن تعد
المجمع بما يحتاج إليه من النفقة، حتى لقد أعلن أنه مستعد أن يتحمل هو تكاليف
المهرجان إذا لم تستطيع الحكومة تدبير المال اللازم، وكان من حسن الاتفاق أن
اجتمعت اللجنة التحضيرية للمؤتمر العربى بالإسكندرية فى نفس اليوم الذى بدأ فيه
المهرجان، فلهجت الألسنة بذلك، وعد هذا الاتفاق من البشائر المؤننة بالتوفيق. وصار
مدعاة "مظاهر عربية" بل لقد سمعت بعضهم يقول لصاحبه فى الطريق ونحن
منصرفون من مقبرة المعري: إن هذا من "كرامات أبى العلاء"!

رحم الله الشيخ، كان لا يعم من سلك مع الزنادقة والملاحدة والكافرين فلصبح
لا يعم من يسلك مع أولياء الله الصالحين!

وكان قبره مهماً، وعظامه ليست فيه - بليت أو نبشت، من يدري؟ فإن ألف عام
حقبة مديدة من الزمن - فالآن جُد قبره، وسور المكان وزُرعت الأرض وغُرس فيها
الشجر، واجتمع عليه أربعة وأربعون من أبناء العالم العربى وشعرائه وعلمائه يقولون

(٢٩) نشرت فى البلاغ، فى ١٩ أكتوبر ١٩٤٤ (مرآة)

فيه ويبذنون ويعينون! وجعل له دفتر تدون فيه أسماء زوار الضريح، وقد استكتبوني كلمة في هذا الدفتر، كما استكتبوا سواي، فكنت ما معناه أن أما العلاء لو كان دارياً لما رضى عن زيارتي لقبره، ولكنه لا حيلة لي فيما لعله كان حليفاً أن يكره، فإن يك هذا يسوؤه فإنني أرجو أن يكون شفيعي أنه - كما يقول:

ما باختباري ميلادي ولا هرمي ولا حياتي، فهل لي، بعد تحيير^(١)

ولو اتسع المقام لرئت أني ما زرت قبراً قط مذ رشدت.

وحدثوني، وأنا بالمعرة، أن مستشرقاً سأل بعض أهلها عن قبر أبي العلاء، فنابذ الرجل سبياً وقال له: "اسلق بهذا الكافر إلى قبر الزنديق".

ووجدت من عامة أهل المعرة من يسمى الشيخ "أبا علي".

وقد تبينا من الحلقة الافتتاحية، أن إلقاء ما أعدنا من بحوث سيكون مشكلاً عويصاً، فإن هذا، كما أسلفت، مهرجان لا مؤتمر، والوقت المحدد لكل قائل، نصف ساعة ليس إلا، والجمهور يطلب الكلام المؤثر وكنت قد شاورت إخواني قبل ذلك فأشار الدكتور طه بأن تلقى خلاصات ما أعدنا، وأن ندفع بالبحوث المطولة إلى المجمع للنشر في أوانه، وقد فعل هو ذلك، وفعله أيضاً أحمد أمين بك والأستاذ أحمد الشايب والدكتور عزام، أما لنا فتقبلت على كلمتي أحظف منها واختصر فما أجداني هذا شيناً.

وخطر لي أن لعله كان الأوفق أن يكتبني بحفلة الافتتاح وحفلة التتتام، فيحضرهما الجمهور، ويصافق فيهما لما يسمع على هواه، وتعتقد فيما بينهما جلسات في الصباح والمساء لإلقاء البحوث المطولة على الراغبين في الاستفادة من طلاب الأدب والطلم، غير أنني تبينت في أثناء المهرجان أن هذا مستحيل فإن لكل مدينة كبيرة من مدن الشام شخصيتها الخاصة وهي حريصة عليها، فحينئذ بها والتنافس بينها قائم، فلا معدى

(١- من البسيط (الحرر)

عن إقامة حفلات بها كالتي تقام بدمشق والاعصيت، وقد فكرت في هذا وعلمت فلما تمنا برحلتنا الطويلة إلى حمص وحماء وحلب واللاقية رأيت أن المدن متباعدة، وأن الجبال والسهوب تفصلها، والعمران غير متصل بغيرها، فلا غرابة إذا أحسست كل مدينة كبيرة أنها قائمة بذاتها، وأن لها شخصيتها الخاصة التي تتميز بها وتنفرد على خلاف الحال في مصر، فإن اتصال العمران بين المدن يبقى الإحساس بالاستفراد وتميز الشخصية، ويجعل حياة كل بلد مفسرية في حياة البلد الآخر، أما في الشام فحلب مثلاً هي حلب، ودمشق هي دمشق، ولكل منهما خصائصها، وهذا التميز ملحوظ حتى في تأليف الوزارات أحياناً، مثال ذلك أن رئيس الجمهورية دمشق، ومعد الله الحباري بك الذي استقال من رئاسة الوزارة منذ بضعة أيام طيب، وليس هذا بمطرد في كل حال، ولكني أراه يراعى أحياناً كما قلت.

وقد تعجب بعض الإخوان الذين لا يعرفون الديار الشامية لديمقراطية القوم وأدهشهم ورأعهم انتقاء التكاليف الرسمية وإثارة السلاطة. وقلة الاحتفال بمناصب الحكم أو الاغترار بما يصاحبها من جاه وسلطان وأبهة، فإنك تدخل على الوزير كما تدخل على الموظف الصغير، ولا تحتاج إلى أكثر من الاستئذان الواجب حتى بين الأصدقاء، فإذا انتهت العمل رأيت الوزير الكبير والرجل الصغير - موظفاً كان أو غير موظف - يجلسان ويتسامران كأنهما ندان.

ولا عجب في هذا فإنه روح الشرق العربي كله، لا فرق بين العراق والشام وبين فلسطين والحجاز ونجد واليمن. بل هي روح الإسلام الذي يجعل أكرم الناس عند الله أتقاهم، وقد عجز الحكم التركي الطويل عن مسح هذه الروح وتشويهها.

وروح الشام جمهورية بحث، فهي تسمح بالتححرر من كثير من القيود الرسمية وبارسال النفس على السجية. غير أن هذا لا يعزى بسوء الأدب أو قلة الفوق، وليس أحسن أدباً ولا أرق حاشية، ولا أحرص على اللزوم من أبناء العربية في هذه الديار عامة وفي الشام خاصة وقد يبلغ الخلاف والتنافس بينهم أشد مبلغ، فلا يورث التقاطع والتدابير، ولا يمنع حسن المواطنة وحمال المعاشرة، ويقسو بعضهم على بعض

فى النقد، ومع ذلك يئس بعضهم ببعض ويتلاقون ويتكهنون كأنما الذى بينهم هو الود الصريح والحب المحض وأحسب أن ذلك إنما كذلك لأنهم يدركون إدراكاً صحيحاً ما بين الواجب والحق من صلة، فلا ينكرون الحق على صاحبه وهم يتقاضونه واجبه، ولا يفلون نشدان الحقوق ويهملون الواجب، ومن هنا على ما أظن اعتدل الميراث واستقام الأمر

وسرعان ما يتبين المرء أن أهل الشام أكثر توفراً على درس الأدب العربى والتاريخ العربى من غيرهم من أبناء العربية، وما بقيت شاباً هناك إلا وجدته واسع الاطلاع على الأدب والتاريخ، ولعل اطلاعهم على الآداب الغربية أقل وأصيق نطاقاً، وعسى أن يكون المصريون من أجل ذلك أرحب أفقاً وأصح إدراكاً لحقيقة معنى الأدب، ولكنه لا شك فى أن شباننا أكثر من شباننا إحاطة بكتوز العربية وعناية بها، والعربية هى لغتنا، فلا مهرب من هذه العناية، وتلك مزية جليلة لأبناء الشام

وقد نجد شباننا متعجلين يعالجون الشعر بغير آلة، فلا يلتزمون تشجيعاً، ولا يسعهم إلا أن يقصروا وبقيعوا من حلم الشباب الذى ألهمتهم حيويته الدافقة إياهم يقدرُونَ على كل شيء بآلة أو بغير آلة.

(٧)

فى مهرجان المعرى^(٤١)

بدأ "العناء" فى مسجل أبى العلاء على حد قول الأستاذ الجليل إسعاف
النشاشيبي من أول يوم من أيام المهرجان، فقد دعونا فى ظهر ذلك اليوم إلى موائد
مشقة بألوان شتى من الطعام كانت تلوح لما من بعيد شهية، فنلتمظ وننمطق قبل
الأوان فلما قالوا "تفضلوا" ذهبنا نعدو، وإذا بواحد يشدنى من راعى ويقول:

"هل تعرف أن هذه لكلة علاتية؟"

قلت "ماذا تعنى؟".

قال: "كل ما تراه مطبوح بالزيت - حتى الطوى - ولا لحم من أى نوع".

قلت: "أعوذ بالله".

فسال: "والعمل؟ الزيت لا يوافقنى".

قلت: "وهيه كان يوافقك، فأتين المعدة التى تحتمل أن تكتظ بهذه العشرات من
الأوان المطبوخة بالزيت؟ لا يا سيدى، يفتح الله تعالى نواف حرب معارضة، بل ثورة".

وقد كان - وصار حزب المعارضة عوامه الأساتذة إسعاف النشاشيبي وطله
الراوى وأحمد الشايب والعبد لله، واحتلنا طرف مائدة ودعونا عمال الفندق وأمرامهم
بلهجة حارمة أن يجيئونا بطعام آخر مبالغ وإعط القوم بثورينا الموافقة، وحسدونا

(٤١) نشرت فى البلاغ، فى ٢٦ أكتوبر سنة ١٩٤٤، (مر ٢).

ورغموا أنها فكاهة ظريفة، وتظاهروا بأنهم لا يبالون بما يحشون به مطونهم من نار، ويبحث لي، الأمر مصطفى الشهابي يقول إن هناك إشاعة بتني "سأرقصهم" بخطبة على هذا الطعام، فكتبت إليه، أقول إنهم سيحتاجون حقاً إلى من يرقصهم طويلاً بعد هذه الأكلة الشبعة، وأكبر ظني أنهم سيفقدون بعدها في عداد المومي، ويؤسفني أن الله لم يؤاتني القفرة على إحياء الموتى.

واعتبت إذا نصيت إلى الكلام بكرهي أن أشكر طاهي الغنق الذي جاد علينا ببعض ما عنده، وأنقذنا من هذا الهلاك وأن أبرئ المعري المسكين مما توهم هذه الولاية التي كانت ألوانها تعد بالعشرات، ولو كان يئكل كما أكلوا مات بالثخمة، غير أنني لم احتج إلى كلام ما، لأنني بعد أن أصبت الكفاية، زغت كالعادة

وكانت هذه الأكلة بداية المتعب، فقد حملونا في صباح اليوم الثالث في سيارات، وضعوا كل أربعة منا في واحدة منها، فانطلقنا نتهب الأرض ونقطع ١٢٥٠ كيلو متر في ثلاثة أيام! وكنا ننام بعد نصف الليل ونستيقظ في بكرة الصباح مع العصافير، ولا نستريح في النهار لأننا لا نكون فيه إلا على سفر، أو على طعام

وكان من حسن حظي أن كان رفيقائي في السيارة الأستاذ ساطع بك الحصري مدير التعليم في سورية الآن، وكان على عهد المرحوم الملك فيصل في سوريا ورياً فلما دخل الفرنسيون بعد معركة مصيلون خرج هو، وانتهى به المطاف إلى العراق فتولى أمر التعليم هناك وأشرف على الآثار أيضاً، ثم أخرج من العراق مع من أخرجوا من السوريين قبيل هذه الحرب فعاد إلى سوريا، وعكف على التثقيف فلمخرج كتابه الضخم في ابن خلدون، وثنى بمجموعة نفيسة من المقالات، وهو رجل واسع الاطلاع، كبير العقل، مستقيم النظر، ساهر الحديث.

والأستاذ العالم الجليل الشيخ عبد القادر المغربي، عضو المجمع العلمي بدمشق، ومجمع فؤاد الأول لغة العربية بمصر، والمصريون يعرفونه لأنه أقام بمصر زمناً قبل الحرب الماضية وكان يكتب فصولاً اجتماعية في المؤيد ينحو فيها منحى الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده، ومن غريب ما حدثني به الأستاذ المغربي في هذه الرحلة، أنه

زارني مرة في البلاغ ثم انقطع عن زيارتي لأنه قرأ لي فصلاً أشكو فيه من كثرة الزوار، فصبب أنى أعرض به وأشير إليه، فاقصر، فاستعنت بالله من هذا الخاطر

والأستاذ العالم الأديب عر اللبس آل علم الدين الفتوحى، من أعضاء المجمع العلمى أيضاً، وهو فوق ذلك محدث ظريف، وشاعر لبق، يستطيع أن يرتجل البيت والبيتين فى المعانى القريبة يمازح بها إخوانه، وقد قال بيتين يمدحني بهما ونحن نتصعد ونتصوب فى الجبال والأودية، أو ردهما على سبيل التسلية

يحلل ما أعهل من أمرنا بعقله الراجح والسوارن
ذاك الذى أعبه رب الحجى إبراهيم عبد القادر المازن

فقلت له: يا أحمى وذاك الله السوء والمسخ والتشويه، ماذا فعلت باسمى عفا الله عنك؟ أنا أحذف الألف التى بعد الراء لأنى أحس أنها تقفأ عيني حين أراها، فتحنى أنت فتنهتها وتحذف الألف الأولى؟ سبحان الله العظيم.

قال: "ضرورات الشعر"

قلت: "لكنا شرها الشعر"

وكان على إخوانى أسمى غير سعيد بهذه الرفقة، ولكنى كنت على خلاف ما توهموا راضياً مغتبطاً، وأو خُبرت لما اخترت غير هؤلاء السادة الأجلاء فإن فيهم من البساطة وخفة الروح وصدق السيرة وسجاجة النفس ما يحببهم إلى كل قلب، وسرعان ما صار كل منا لصاحبه مألقة، فكان إذا هممنا باستئناف السفر، يبحث كل واحد منا عن أصحابه ويتنظرهم ولا يركب حتى يركبوا، وكان حديثنا ذا شجون كثيرة، بعصه جد ومعظمه مزح، وكان الأستاذ عز الدين لا يزال يستطرد من كل موضوع إلى ذكر الدرر - وهو منهم - وبينهم وعاداتهم وصفاتهم ومزاييهم وشعرهم فكان يركبه بالفكاهة من أجل ذلك فصبر على هزلما أحسن المسير وأجمله، حتى ينجلنا بسعة صدره، وحلمه، فرددت إلى الرفق والمسلنة

ولما صرنا إلى المعرة دعانا الحراكى بك إلى العشاء، وكانت الموائد موقرة بالكثير مما يطبق حملة، وبما لا يطعم أشمره أكل مبطان أن بلتهم أقله، ولما أنشيت علينا الفاكهه رأينا ثيأ أخضر الواحدة منه هي حجم البرتقالة الكبيرة وطعمه أطى من العسل، فقال الأستاذ إسعاف النشاشيبي: "آه! الآن وقعنا على سر المعري، وعرفنا لماذا قنع بالتين! فإن ثلاث تينات من هذه وجبة كاملة ولا حاجة بأحد بعدها إلى طعام آخر".

وخرجنا من المعرة في نحو الساعة العاشرة مساءً فبلغنا حلب عند منتصف الليل، فلوينا إلى مخادعنا على الفور، فأصبحتنا فخرجنا لفرجة ثم دعاسي إحوامي رجال الصحافة في حلب إلى القاء معهم، فزغت من المائدة الرسمية، وذهبت معهم وقضينا ساعات في نادٍ هناك كانت من أطيب ما مر بي في هذه الرحلة وأحلاه، وخرجنا من هناك إلى مساحة مدرسة التجهيز، كما تسمى على ما أذكر، وكان على أن ألقى كلمتي فيها فبعت حين رأيت سعة الساحة فطمعوني وقالوا إبهم بصبوا مكبراً للصوت، ودعوني، أول من دعوا، إلى الكلام. فإذا مكبر الصوت لا يكبر شيئاً لأن به خللاً، فلما ملأت الصياح وبع صوتي، قلت لا فائدة من الاستمرار فما أنظر أحداً يسمعي، ونزلت عن المنصة وبعد دقيقة أو نحوها قالوا - لو زعموا - أن الظل أصليح، فعدت إلى الكلام وفي ظني أنهم ما قالوا إلا الحق، فلما فرغت، علمت أنني إنما كنت أحدث نفسي!

ومن الغريب أن مكبر الصوت صلح حاله واستقام أمره إلى آخر الحفلة! فنذكرت مثلاً العامي "ألى مالوش بخت يلاقي العظم في الكرشة؟".

(٨)

فى مهرجان المعري

كيف رُدَّت عن فلسطين^(١٢)

كأن العزم أن أرجئ حكاية منى من دخول فلسطين إلى أوانها، ولكن جريدة المقطم الغراء - حراها الله خيراً - تقضت بكلمة طيبة مشكورة فى الموضوع أعوت فيها عن كريم عطفها على واستنكارها لما وقع لى، فوجب أن أسط الأمر للقراء قبان فيه لعبه

كانت محطة الشرق الأتني معتلة فى المهرجان، فخاطبني مندوبها الفاضل فى أن أنهب إلى يافا وأنبع حديثاً أدبياً أو حبيثين، فترددت لأنى كنت معترماً أن أعود بالطنرة فى يوم المميس الخامس من أكتوبر، ولكنه تقنعتى وقال إن فى وسعى أن أسجل الأحاديث فى يافا وأستقل الطائرة من الداء، فاتفقنا على أن أسافر إلى فلسطين فى الثانى من أكتوبر واتفق على مثل ذلك مع رملانى الأستاذة الأجله أحمد أمين بك والدكتور عبدالوهاب عزام وعبدالحميد العبادى وأحمد الشايب والدكتور أسعد طلس، غير أن موعد السفر تأخر إلى يوم الأربعاء لرغبة الأستاذ أحمد أمين بك فى الاستراحة يومين بعد المهرجان.

وخرجنا جميعاً من دمشق ضحى الأربعاء فى سيارتين، إلى القنيطرة ومنها إلى

(١٢) نشرت فى "البلاغ" فى ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٤٤، (س٢)

الحدود بين الشام وفلسطين عند نقطة تسمى "جسر بنات يعقوب" وقد دفع إليها الأستاذ حمدي نبيل قبل سفرنا كتاب توصية من الكولونيل مارساك إلى ضباط الحدود يعرفهم بنا، ويذكر أننا داهبون إلى يافا صيفاً على محطة الشرق الأدنى لإذاعة أحاديث أنبية منها

وخرجنا من سورية وبلغنا نقطة البوايس على حدود فلسطين، فخرج لنا ضابط إنجليزي دفعنا إليه الجوازات وأبرزت له كتاب التوصية فقرأه وابتسم وأعاد إلى وقال

"خله معك فعد ينفعكم"

وختم الجوازات بإذن الدخول بعد أن دعاني إليه وألقى على بضع أسئلة - لاني صحفي، والصحفيون على ما يظهر غير مرغوب فيهم، ولكنه لم يشغل واكتفى بالأسئلة وأجوبتها، ثم ودعنا بلطف وتمنى لنا رحلة سعيدة، فانطلقنا حتى بلغنا نقطة الجمارك، وفيها مكتب لرجال الأمن العام فبرزت كتاب التوصية مرة أخرى للضابط فلنذه مع الجوازات وارتد إلى غرفته، وبعد دقائق أعيدت جوازات زملائي إليهم، ودعيت أنا إلى مكتب هذا الضابط، فضحكنا، وقلت

"هذه أفة الصحافة"

وجلست أمام الضابط فسألني عن مسقط رأسي، وعن أبي وأمي، فقلت له مازحاً

"إني الآن كنتم، لا أب لي ولا أم، فقد ماتا رحمهما الله"

ونظر في كتاب التوصية ثم في الجواز ثم قال

"إن اسمك في كتاب التوصية "عبدالقادر المازني" وفي الجواز "إبراهيم".

فأدركت أنه يلتمس حجة يردني بها فقلت له

"يا سيدي، إني غير مسئول عن كتاب التوصية ومعظم الناس يمتصرون الأمر،

ويهملون اسمي الأول، على أنك تستطيع أن ترمى كتاب التوصية في السلة أو تهمله،
وتمسك الجواز وفيه اسمي كاملاً، وصورتني، وهذا وجهي أمامك

فانتقل من ذلك إلى مناقشتني في هجاء اسم المارسي بالإنجليزية في الجواز
فذكرت أنه ليس بإيطيري وإن كان يجيد الإنجليزية وبينت له أنه مكتوب كما ينطقه
الناس عادة.

ثم قلت له: أسمع من فضلك، إنه يستوى عتدي أن تثنى لي في الدخول أو
تمنعي منه، ولكن رجائي إليك أن لا تطيل وتضيع الوقت، فإني إخواني لا يمتطيون
أن يستأفوا السفر إلا إذا عرفوا مصري، فلا تجعلني مسأاً في إعتابهم

فقال: إنها مسألة دقائق ليس إلا

فانصرفت، ولكن الدقائق صارت ساعتين أو زيادة وكنا نجلس في السيارات
تارة، ويتمشي تارة أخرى ولا راحة في الحالين، وظلت إخواني

"إن أكبر ظني أنني مردود عن فلسطين"

فقال الأستاذ أحمد أمين بك: "لئن لا إذاعة، ونسافر إلى مصر دون أن نخرج
على محطة يافا"

فوافقه بقية الإخوان وقال الدكتور طلس: "وأعود أنا معك إلى الشام"

فحاولت أن أتيهم عن الإضراب عن الإذاعة لو أنني الدكتور طلس عن الأوبة
معي فأتوا كل الإباء، واتفقنا على اقتسام السيارات، فيأخذ إخواني واحدة، وأعود أنا
مع الدكتور طلس بالأخرى.

وأخيراً خرج علينا الضابط وقال لي إنه شديد الأسف وإن القدس أبت أن تأذن
لي في دخول فلسطين، وأنه يأسف مرة أخرى لأنه ليس عنده ما يركبني في عوبي
إلى الشام!

فطمأنته وقلت له: "لا تخف عليّ، ولا تحزن، فإن معي سيارة"

فأطمأن وأظهر الصبر، وأراد أن يلقي على أسنطة أخرى فقلت له
"أما بعد رفض الدخول فلا سؤال ولا جواب، وما شئتُك مي وقد ربتني عن
البلاد؟"

وهكذا رجعت مع الصديق الكريم الدكتور أسعد طلس
ولما بلغنا نقطة الحدود الأولى استغرب الضابط الإنجليزي لأنه كان قد أذن لي
في الدخول، وسألني لِمَ هذا "أتراك ارتكبت جريمة؟"
قلت "ليتي قطعت. إنني لعرفت السبيل"

وصار الأمر مشكلاً، لأن تنشيرة الدخول في سورية انتهت بخروجي منها غير أن
موظفي الحدود السورية كانوا من أطراف خلق الله وأرقهم، فثعربوا عن عطفهم
واسمهم، وألفوا "تنشيرة" الخروج، وأرادوا أن يحتوا بنا ويكرمونا فاعتذروا بضيق
الوقت ويعد الشقة، واستأنفنا السير فدخلنا دمشق في منتصف الساعة التاسعة ليلاً،
فإذا أمامي مشكل آخر هو أن الفتائق كلها عصمت بالنواب الذين جاءوا من أرجاء
الشام لمضور جلسة البرلمان في صباح اليوم التالي، فحين أسبت؟ وعلم الأستاذ الجليل
إسعاف بك بهذا المشكله فهمس في أذني أن مقرفته سريراً ثانياً لا ينام عليه أحد،
وأن هذا يحل الإشكال إلى الغد، فهممت بالاعتذار لأنني أعلم أن الامتياز إسعاف لا
يطبق أن ينام معه في غرفته مخلوق فكيف أنفض عليه رقاده؟ ولما مثله لؤثر النوم
وحدي، ولكنه لم يكن لي مقر من قبول ما تقصّل به مشكوراً

وتشهدت، وقلت أكل لقمة، فما طعمنا في نهارنا شيئاً بنكر، وإذا بخادم الفندق
يسألني عن حقيقتي أين هي ليحعلها إلى حجرة إسعاف بك، فتخبرته أنها في
السيارة، ولكن السائق كان قد ذهب بالسيارة لا أدرى إلى أين ونسي أن يترك لي
أشيائي! ولا أحتاج أن أقول إننا وجيناه وإنه رد الطقية معتزلاً من سهوه.

وفي صباح اليوم التالي الخميس - علمت أن المشكل أعقد مما كنت أظن، فقد
كنت واثقاً أنني أستطيع العودة إلى مصر بالطائرة، وكل ما أحتاج إليه هو الانتظار

حتى أجد مكاناً في طائرة عائدة، ولكن الدكتور طلس زار القنصلية ومعه جوارى ليسأل هل له حاجة إلى "مُضَيِّرة" جديدة؟ فكان الجواب المزعج أسي معذوع من لجنير فلسطين برأ وجواً لأن الأمن العام في فلسطين هو الذي منه نحول! فكيف أعود؟ أقطع البحر الأبيض مساحاً وخطر لي أن الحل الوحيد إذا أحفقت المساعي الكثيرة التي بذلتها الحكومة السورية هو أن أذهب إلى العراق ومن ثم إلى مجد عالجار قمصر، فنعود على الأرجح مع الحماج!

وقد كان القنصل الإنجليزي كريماً غاية الكرم، فأرسل برقية إلى القدس وأرسلها برسالة مسجلة ولكنه لم يتلق جواباً قط، وكان كل امرئ في دمشق معنياً بي، ويتهوون الأمر عليّ، وسرسي على الحصوص قول قدامة الرئيس حفظه الله إنه "سكاف الحكومة أن تكتب رسمياً إلى حكومة فلسطين تشكر لها أنها ردت للمازني إلى الشام"

وهمت مسافة دمشق بحملة على حكومة فلسطين، فرجوت منها أن تترث حتى ترى نتيجة المساعي المنولة من جانب الحكومة السورية وجانب القنصل البريطاني

وحاولت الاتصال بمصر مراراً فلم أفلح، وبعثت ببرقيات شمتي إلى البلاغ وإلى بيتي يتوقع الدكتور أمعد طلس وعيره من السوريين فلم يصل منها شيء إلى اليوم، ولم أبعثها باسمي لأن جوازي كان في القنصلية البريطانية والمركبات لا تقلد من الغريب إلا إذا أبرد مرسلها جوازه كما تقضي بذلك الأوامر العسكرية.

وكانت قد مرضت فلمت عرفتني فتفضل الكاونيل مارسالك وزارني وأنشئ أنه مصافر إلى مصر صباح السبت على طائرة إنجليزية لا تنزل في فلسطين وتمني أن تسمح لي صحتي بالسفر معه، وسألني عما يستطيع أن يفعله لي في مصر، فقلت له أسي أستطيع السفر الآن على الرغم من المرض، ورجوت منه إذا تعذر سفرى أن يتصل بحريدة البلاغ ويخبرها الخبر

وكان يجس يدي كل مضع دقائق، فتجسست أنه بفعل ذلك الأمر يكتمه، ولم يكذب ظني، ففي صباح اليوم التالي زالت عني الحمى، قارنتني ثيابي وإذا بي أُنعى إلى مكتب شركة الطيران البريطانية وهناك علمت أن مكاناً حُجز لي بفصل القنصل البريطاني والكلونيل مارساك على طائرة إنجليزية قادمة من طهران وذهبة إلى مصر دون توقف في فلسطين، وهكذا عدت هجأة، وعلى غير انتظار بعد أن كاد عزمي يستقر على السفر إلى بغداد فتجدت هالحجاز.

(٩)

في مهرجان المعري^(١٧)

نوبيا بعد انضمام المهرجان أن نقضى نهاراً في شتوره وإيلة في زحلة، وكان الدكتور بشر فارس لا يزال يلح على أن أزوره في شتوره واقضى معه بضعة أيام، فما استطعت أن أحتمس أكثر من بضع ساعات من نهار قبل أن يبدأ المهرجان فلما انتهى قلنا نلبي دعوته ونتمم مكرمه وأريحته النهار كله، والمثل يقول "العبد في التفكير والرب في التدبير" وهو مثل أنقله عما أريد به لأقول إننا ركبنا السيارات في الصباح، وانطلقنا على طريق شتوره - وهي من أعمال لبنان - فلما قطعنا نحو ثلاثين كيلو متراً انعطفت السيارات فحفظت بنا في طريق في الجبل فسمكت صاحب السيارة عن الداعي إلى هذا الميل، فقال إنك مدعو إلى الغداء عند السيد عبدالحميد دباب من التجار وأعيان بقلين، وما كنت رأيت فلاناً هذا إلا مرة واحدة فألح أن نتغدى معه فاعتذرنا بأننا على موعد، لم يقل شيئاً إلا بمشقة، ثم أبى له كرمه إلا أن يولم لنا فكان أن حملوني إليه وأنا لا أنرى، وإنما ذكرت هذا ليقف القراء على مثال من كرم القوم، ولا بأس من مثل آخر أسوقه، فقد خرجت مرة لتعشى وحدي في مطعم سورى، فلما دعوت الخادم لأحاسبه، قال "منفوج يا سيدي" وأعياى أن أعرف من الذي تفضل فلدى عنى الصواب.

وفي شتوره وجدنا الدكتور بشر قد أعد لنا "الشاي" ودعا إليه معنا طائفة متخيرة من كرام اللتانيين، وكل شاي ككل شاي، فلا حاجة إلى كلام فيه، غير أن الدكتور

(١٧) نشرت في البلاغ في ١٢ أكتوبر سنة ١٩٤٤ (ص ٣)

بشر يئس إلا أن يستكر، أو ليس من الجديد في حفلات الشاي أن يكون فيها قول بمس' وقد أنضجها الدكتور بشر بيديه الكريمتين زيادة في العاية والتحفى،

وخرجنا إلى "رحلة" وهي أشهر بلاد لبنان "بالعرقى" المشهور، فجلسنا في مقهى فسيح على نهر البربون، وكان مضيئاً هناك الشاعر المشهور الأستاذ عمر أبو ريشه، وكانت قصيدته في مهرجان المعري من خير ما سمعت من الشعر، وقد أنست من قصيدته نزعة صوفية، فسأفته عن ذلك وكنا في حلب على ما أذكر - فقال: "إن علنى في محله".

وكان من خير ما أكلنا في ليلتنا تلك على المهر "العصافير" وهي سمينة، يقولونها أو يصنعون بها ما لا أبرى، ويصنعونها في قلب الرعيف حتى لا تبرد، ثم تؤكل بعظمتها

وكان معظم من معنا لبنانيين وكنا نمتطرد في الحديث من موضوع إلى موضوع فتناولنا كل شيء، جادين وهازلين، فأنحسست بعد هذه الجلسة وأمثاله، مع إخواننا اللبنانيين أنهم قلقون يزعسون في إيجاد رابطة بين بلادهم والبلاد العربية الأخرى، ولكنهم يعمون أن يحتفظوا باستقلالهم وحدودهم المالية أنق احتفاظ، ويحشون أن تؤدي المشاورات العربية إلى ما يمكن أن يتحيف من استقلالهم، أو يرد حدودهم عما دخل فيها، ومن أجل هذا أرضاهم وسرهم أن الذين اشتركوا في مباحثات اللجنة التحضيرية أثروا أن يسمعوا ما اتفقوا عليه "جماعة" من "الدول" العربية، لأن كلمة "الدول" تفيد معنى الاستقلال، وكلمة "الصناعة" تقضى فكرة الوحدة التي يخشون أن يكون المقصود بها آخر الأمر إدماج بعض البلاد في بعض وما أظن بهم إلا أنهم قد سرهم على الخصوص النص الذي اتفرد به لبنان لتأكيداً لاحترام استقلاله وحدوده

وقد يحب القارئ أن يقف على السر في كل هذا الحرص على النص على احترام الحدود الحالية، والسر فيما أعلم هو أن لبنان ألحقت به في عهد الانتداب الفرنسي بلدان كانت هي الأصل داخلة في سوريا مثل بعلبك وطرابلس وصيدا . إلخ، فلبنان يجب أن يبقى له ما أنصيف إليه وألحق به، ولم نر سورية بأشأ من هذا فاعتزمت بالحدود القائمة

أما فيما عدا ذلك فالأمر بين سوريا ولبنان يجري ككتهما بلد واحد، فلا جوازات سفر بين القطريين، ولا عملة متفصلة وأمر الجمارك مشترك، والتعاون قائم على خير وجه، ولا فرق بين لبناني وسوري، فمعظم موظفي البنك السوري اللباني وموظفاته في دمشق وغيرها من بلاد سورية من اللبنانيين والأبناي، وكثير من البنى التي في بيروت يملكها سوريون، وأهل سورية يصطافون في جبال لبنان الجميلة، وإن كانوا قد بدأوا يعمون بمصايفهم الخاصة، وقمح سورية وسمنها تمد بهما لبنان، كما يمد لبنان سورية بما فيه من فاكهة وزيت وعرق إلى آخر ذلك.

وقد كنت وأنا في الشام أتوقع أن تنتهي المشاورات بما يزيل مخاوف إخواننا، وكنت أؤكد لهم أن الأمر لا يمكن أن يكون إلا على ما يحبون وأمين لهم أن مصر نفسها حريصة كحرصهم على كيانها الخاص واستقلالها بشورها واحترام حدودها وكذلك الدولة السعودية والعراق، وليس ثم طمع من دولة في أخرى، وإنما المراد إبعاد وسيلة أو أداة يتسنى بها التعاون والتكافل، وحسبنا جميعا ذلك.

وقد صفق ظني والله الحصد.

في مهرجان المعري^(٤٤)

ليس أعجب من أن يطالب صحفي بالإدلاء بحديث إلى صحفي آخر، غير أن هذا الذي أراه عجيبيّ كان يبدو غير عجيب لبعض الصحفيين الشبان في دمشق، وقد ألطف أحدهم في المسألة وأنا أحاول أن أصرفه بلطفه فلما أعياني أمره قلت: 'سل ما بدالك'.

فرماني بطائفة من الأسئلة بطلب بحثاً طويلاً ونظراً ومراجعة، مثل: كيف تركت الحالة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية في مصر؟ وما رأيك في حل قضية فلسطين؟ إلى نظائر كثيرة لهذه الأسئلة المخرجة. وقد هربت من كل جواب يكلم بضحك حمله هو على محمل الجد فذهب به فرحاً إلى مدير شركة الأنباء التي يعمل فيها، ثم عاد إليّ من غده يعاتبني ويقول: 'إني جعلته غرض استهزاء، فقلت له:

'يا أخي وما ذنبي إذا كنت تنبئ إلا إحراجي بمسئلة لا أستطيع الجواب عنها هنا'.

وصرنا بعد ذلك صديقين وغفر لي إسأتي إليه، وزاد فتفضّل بتعريفني بزعم الحزب الشيوعي هناك، وزعيم الشيوعية هذا شاب منيد القامة عريض الألواح واسع العينين يرافهما حديد الفؤاد فصيح، وقد سألني عن الشيوعية ما رأيي فيها، فقلت له:

(٤٤) نشرت في كالأخ في ٢٥ أكتوبر ١٩٤٤، (ص ٢).

منك نستفيد، فما أعرف عنها شيئاً.

فشرع يعرفني بها فقلت له: أسمع إن كنت تطمع في إلحاقك بحزبك فخير لك أن تقصر فقد جريت في حياتي على قاعدة لم أحول عنها قط، هي أن لا أتقيد بحزب أو مذهب، وإنما أخذ من كل مذهب أطيبه وأنفعه.

فكف، وصبرت بعد ذلك كلما بخلت غروهي وجدت فيها كويماً من الشررات والمطبوعات والرسائل عن روسيا والشيوعية، وقد احتفظت منها برسالة واحدة رأيها نافعة لما فيها من البيان، وأهملت ما عداها.

ومن طريق ما يحكي أنني كنت في غرفتي مرة فاستقنن على أحد الحدم، ودخل وفي يده بشرة قال إنه استعارها مني في عيالي، لأنه وجد فيها كلاماً عن أجور العمال وإجازاتهم وما يجري هنا المجري، وهذا شيء يعنني ويعني إخوانه، فقلت له

لا عليك، استعمر ما شئت من هذه المطبوعات، فما أعتب بها شيئاً، وإذا شئت فخذها كلها ولا تبقى منها واحداً، فاستركها هنا على كل حال.

فصار خدم الفندق بعد ذلك أصيقاتي، وتعهوني، ويروني، وسهروا على راحتي، ومنحوني وديهم وعطفتهم، فلم يسعني إلا أن أقابل لطفهم وكرمهم بمثلها، فكلفتي ذلك غير قليل، ولكني كنت سعيداً بمودتهم، والحقيقة أنني أجنني أميل إلى هذه الطبقة طبقة العمال مني إلى مواها، وأكثر حباً لها، وأنس بها، وما نمت قط على ذلك، ولا جريت من هؤلاء الناس إلا المروءة وكرم النفس والإخلاص والوفاء وحفظ الجميل، ولا عرفتهم يحتاجون إلا إلى الفهم، ومتى فهموا الأمور على وجهها، وأتركوا الحقائق صاروا كما تحب وترضى، ولي منهم إخوان كثير أعتمد عليهم، وأعتز بصداقتهم، وأزهر، وإذا فخر غيري بمن من إخوانه أو معارفه فلاناً بالاشا أو اليك، فخرت أنا بشي من أحب إخواني إلى فلاناً وفلاناً من العمال بارك الله فيهم وأدام لي وديهم ولا حرمي ما أطيب به نفساً من صفاء قلوبهم وصديق مرانهم.

وعمال الفندق هم الذين كان لهم الفضل في إيجاد غرفة خاصة لي بعد أوبيتي من

جنود فلسطين، فقد مادروا إلى نقل أمتعتي إليها قبل أن يبرحها نزيلها، وأطلقوا الفندق
أنى استوليت عليها واحتللتها

ومما يستحق الذكر أنى لما عدت إلى الفندق في تلك الليلة المنحوسة، من فلسطين
قال لي أحدهم بعد أن أظهر السرور برجوعي

“والله إني ما توقعت خيراً مذ رأيت السيارة التي ركبتهما إلى فلسطين”

فسألت عن السبب فقال - “رأيت كلمة - يا ساتر - مكتوبة على زجاجها فانتقبص
صبري وقلت في سرى يا ساتر استر”

ومن الغريب أن هذا هو الذي شعرت به حين رأيت هذه الكلمة، وقد حدث بهذا
الدكتور أسعد طلس، فضطه، ولكن انظر ما حدث.

على مسافة عشرين كيلو متراً من بعشق - في الطريق إلى القنيطرة - انكسرت
حوامل السيده ويسعونها السوسنة فوقفت السيارتان طويلاً حتى ربطت بالحبال
واضطربنا بعد ذلك إلى السير على مهل محافة أن تتعطل السيارة.

وسقطت منى ورقة مخمسة جسيهات مصرية في القنيطرة على الأرجح، وكنا قد
وقفنا بها قليلاً لشغري بها طعاماً فلم نجد خيراً أو أنظف من الطعمية والخبز،
ويظهر أنى أردت أن أعيدها إلى جيبى - بعد أن أعياني صرفها - فوضعتها خارجه
وأنا أظن أنى رسمتها فيه. ولما رددت عن فلسطين طلب السائق الذي كان مع
إخواني، خمسة جنيهاات من زميله يستعين بها حتى يقبض أجرته، فاعتذر له زميله
بأن ما معه لا يبلغ هذا القدر، فقلت له - أنا أعطيه ما يطلب على الصاب - ويشت عن
الورقة فلم أجدها، وكانت هذه هي الخسارة الأولى التي تكبدها في هذه الرحلة
المحقة، وقد تلتها حسارة أمدح لا داعي لنكرها

وأصبحت ببرد من طول الوقفة والعرض عند جسر نخات يعقوب، وكانت ثيابي
أخف ما يلبس، وأهملت التوقي، ولما عادت بنا السيارة، ضل السائق الطريق، فظل
يحملنا أنا وصديقي الدكتور طلس هنا وهناك ثم يرتد وهو لا يهتدى، نصف

ساعة، حتى خفنا أن يدركنا الليل قبل أن نصل إلى نقطة الحدود السورية

ولست ممن يطيطرون، ولكنى أعترف بأن كلمة "نا ساتر" حين رأيته مخطوطة بالدهان الأحمر على زجاج السيارة أمام السائق، لم تقع من نفسي موقعاً حسناً، وكانت عيني تتجه إليها كلما حدث شيء.

وشئيه بهذا ما وقع لي مرة منذ ربع قرن تقريباً، وكنت يومئذ أسكن بيتاً على نحوم العالمين وأنى لعائد إليه عصر يوم وإذا بفقيرة عمياء مسندة إلى جدار تقتهد وتقول "استرحنا والحمد لله" وأيس في هذه العبارة ما يسوء، ولكن صدرى انقبض لها، وسمعت نفسي أقول "أعوذ بالله"، وفي منتصف تلك الليلة توفيت زوجتي، جاءها المخاض، فجاءها الطبيب فنزقت وماتت! وقد سمع منى غير واحد وصف مصرعها -- فقد كنت مشاهداً للأمر كله -- فنهشوا

وما شمت بإنسان قط، ولا شمانية بهيت على الحصوص، فإن الموت يدركنا جميعاً، ولكن هذا الطبيب مرض فمات بعد ذلك بعامين، وأشهد الله العالم بالسر أنى شمت، وفرحت وأحسست أن الله الرحيم قد مسح على قلبي القروح

(١١)

في مهرجان المعري^(٤٥)

كان الأمير مصطفى الشهابي محافظ اللاذقية، قد أتبعنا قبل أن يفادر دمشق بعد أن حضر افتتاح المهرجان وأكل "هنيئاً" من الفداء العلاني الذي اجتويناه وأبيناه أنه سيعد لنا الفداء هي حرش جميل قريب من اللاذقية

والأمير مصطفى أديب عالم، وعضو في المجمع العلمي العربي بدمشق، وكان في طليعة المرشحين لعضوية مجمعنا اللغوي، ولكن لأمر ما عدل عنه، ومن تواليفه العلمية "الرسالة النباتية" وقد نشرها مجمع دمشق، ومجمع الألفاظ الزراعية بالفرنسية والعربية، في مصطلحات العلوم الزراعية الحديثة من عامة وخاصة وزراعة البساتين، وعلم الحراج^(٤٦) وتربية الخيل والأنعام والنحل والأسماك والطيور الأهلية وما له صلة بالزراعة من نبات وحيوان وحشرات وآلات وصناعات، إلخ، وقد أخرجته مطبعة الجمهورية السورية

وقد تولى من مناصب النبالة، وزارة المعارف، ومحافظة حلب، ثم محافظة اللاذقية، وله في كل ما تولى آثار باقية، فإنه قوي حازم، وعالم مصلح وكانت منطقة اللاذقية تسمى في عهد الانتداب "جبل الطويلين" وكانت ذات

(٤٥) نشرت في "البلاغ" في ٢٦ أكتوبر سنة ١٩٤٤ (م٢).

(٤٦) "المراجع جمع حرجة وهي كما في المعجم الوسيط: غيضة الشجر الكثيفة لا يقدر أحد أن ينفذ فيها" (المحري).

استقلال إداري ومالي. ولكن الأمير مصطفى عيّر الاسم، وتبلغ مساحتها ستة آلاف كيلو متر مربع، وسكانها قرابة نصف مليون نسمة، منها اثنا وستون في المائة من المسلمين العلويين، وعشرون في المائة من المسلمين السنيين، وثمانية عشر في المائة من المسيحيين، وأسرة نزيهة واحدة، وكانت فيها أسرة يهودية واحدة ترحلت فأصبحت المحافظة خلواً من اليهود.

ومما يستحق الذكر عن اللانقبة أن كانت بها مدينة عربية شامية منذ ألفي سنة إلى ألف وخمسمائة سنة قبل المسيح عليه السلام، وكانت في العهد الذي انتهى وجاء الاستقلال الحالي على أثره، فترة بين أحمد والمسيح، فقلبها الأمير مصطفى بحكمته وعقله ألفاً صافية، وكان الطويون يشجعون على اعتقاد أنهم "نصيريون" فتعير كل هذا، بل لقد شجع بعض المشايخ على أن يكون "رباً" أي إلهاً في الأرض ولا يزال هذا "الرب" على قيد الحياة، ولكنه في حكم المعتقل؛ وما زال فيما يرى رباً ولكنه معير عبداً؛ فتأمل كيف كان القوم يخلفون حتى الأرباب!

ومما يشهد للأمير مصطفى بالسرعة في الإصلاح أن في محافظة اللانقبة الآن أربع مدارس ثانوية، وعدد كبير من المدارس الابتدائية وما يسمى المدارس "الإكمالية" ودار كتب جديدة وروحة للمحاضرات لم يكمل بنائها، وكان فيها خمسون كشافاً قصاروا ألف وخمسمائة، يهتقون بالعروية والوحدة، وهذا يريك من أي معدن صنيغ الأمير مصطفى.

خرجنا من حلب إلى اللانقبة ضحى، في طرق تتلوى التواء شديداً، ثم نهينا نصد في طرق ممهدة "مزفتة" على قولهم على ربوس الجبال والأكام والربى، أكثرها مراقى غاية في الوعرة، فلما كنا نخرج إلى طريق الساحل وجدنا من ينتظرننا ليميل بنا إلى الطريق المفضي إلى الحرش وفيه اللعبة الموعودة، وكان الأمير قد حدثنا أنه غير مرصوف، ولكنه أمر بتسويته، وأنه أقل من خمسة عشر كيلو متراً، فإذا به بطول حتى يجاوز الثلاثين، وقد سمرت في طرق شتى في الجبال - في قلاطين ولبنان وسورية ولكني لم أر أوعر ولا أكثر تراءماً، من هذا الجبل الشاهق ولا أجمل مناظر،

ولكننا لصعوبة المرتقى وضيق الشعاب، وجدة الانعطاف، وكثرة التراب، كنا نغمض أعيننا فلا نكاد نرى ما حولنا أو تحتنا على الأصح، وكان أكبر إشفافنا أننا سنعود من هذا الطريق بعد الغداء، وقد احترقت في بعض الطريق السيارة التي جاءت لتقودنا، فوقفنا قليلاً نتنفس، ونسخط على هذه الرحلة، ونعرب عن زهدنا في أكلة تكلفنا هذه المشقة، ونلوم الأمير مصطفي، ويستعيد بالله من هول الإياب

وأخيراً وصلنا إلى البقعة التي تخيرها الأمير، فإذا هو على حق، وإذا هي صعيد قصب فيه منبع ماء تصب فيه وتظله أشجار عظيمة التفت أفتانها والتيس بعضها ببعض، وورف ظلها، وكأننا سمعناها وصفها يد الإنسان، وقد مدت الموائد في هذه الرقعة لندبة، ولكن الأمير حدثنا أن إحدى سيارات النقل التي حملت الطعام من اللادقة انقلبت وتعرض ما فيها واحتلط بتراب الأرض؛ فقلت:

”يا أمير! وبعد هذا التعب الذي تجسّمناه؟“

قال: ”لا تخف، فقد بقي ما يكفي“

وقد صدق، فقد كان الباقي من الخراف، وغير ذلك فوق الكفاية، وسألته:

”ومن أي طريق أقبلتم؟“

قال: ”من طريق البحر“

فقلت: ”ولماذا لم تجنّبوا بنا من حيث جئتم؟“

قال: ”تروا الأحراش الطبيعية“

قلت: ”يا أخي! والله لقد كنا لا نرى شيئاً“ ولقد كنا كالأطفال الخائفين يغطي وجوهها بأيدينا وننظر أحياناً من بين أصابعنا، هات الأكل والسلام!“

(١) أجمع هذا الحديث بالرواية (الاربع)

وجاءوا براقصين من البهو يدق أحدهم طبلته دقاً عتيقاً ويرقص الآخر رقصة
الدبكة المشهورة في لبنان، ثم انضم إليه آخرون فصاروا حفلة كبيرة، وأسر إلى أحد
أعوان الأمير أنه كان ينبغي أن يجيئنا براقصات، ولكنهم لم يجدوا ولا واحدة.

وقبل أن يبدأ الرقص كان أحد الرجلين يصيح بكلام لا أتبينه ثم يذكر اسماً
يهمس به بعضهم في أذنه، فنذكر أسماء طه حمصين وأحمد أمين وعزام والشنتب
والعبادي وسماه العبدى والملازنى وطلقة الملازنى ثم أبى العلالة المعري فقال أبو على
- إيه؟ فأمسروا إليه أنه المعري، فلم أسمع كيف يطلقه بين أصوات الضحك

ثم خرجنا على طريق يبيع فمسيح إلى اللانقة فبلغناها قرب المغرب، وذهبوا بنا
على فندق كبير علمنا أن الحكومة هي التي بنته، وبعائى الأمير إلى بيته لأستريح حتى
يحبس موعد الحفلة العلانية، فقلت إنى أريد أن أطمئن أولاً وأعرف غرفتى بين هذه
العرف، فإني أخشى أن لا أكون في إحداها وحدى، فطمأنتني وطمأنتني معي، فلما عدت
وجدت حقيبتى حيث تركتها، ولا عرفة لى أعرفها وأوى إليها، فجعلت أصبح بكل من
أراه، ولم أكف عن الصياح وإظهار الغضب حتى دلونى على غرفة رضيت بها

(١٢)

في مهرجان المعري^(٤٧)

ذاكرتي ضعيفة ومع ذلك أعمد عليها وأركن إليها، وليس بعد ذلك فساد رأي وقلة عقل، وأحسب أن الذي يحملني على هذا التعويل عليها أنني أعرفها تحفظ الصور وإن كانت تنسى ما عداها، فكل ما أراه يبقى، وكل ما أسمع أو أقرأ يذهب، وما أكثر من ألقاهم في الطريق، وأكون قد رأيتهم من قبل فأتوهم أن لي بهم معرفة فأتلقى إليهم السلام، على منبيل الاحتياط. وأقرأ الكتاب وأرى نسخة منه في مكتبة فأتشتردها، وقد صار عندي من بعض الكتب عدة نسخ، ويبدأ لي أن خير ما أصنع، إذا حابطني كتاب في إحدى المكتبات، أن أنون اسمه حتى أرجع إلى البيت فأنظر لطفه عندي فأنسى الرقعة وما سطرت فيها، وينفق بعد أيام أو أسابيع أو شهور أن تقع عيني على هذه الرقعة فتعجب، وأتساءل لماذا كتبت اسم هذا الكتاب؟ لأرجعه؟ أو لأشتريه؟ وأفعل ما يعلب علي الظن

وقد سررت أن وجدت في دمشق ندأ لي في هذا الباب، وهو الدكتور الجابري مدير الرقابة هناك وكنا عند الدكتور أسعد طلس، فتهنأ بتيارتي، هو يقول إنه أسرع مني نسياناً، وأنا أزعج أنني السباق في هذا المضمار، فراح يروي قصصاً عجيبة، ولكنه كان يذكر تفاصيلها بدقة، فلاحظت ذلك وأنكرت أن يكون هذا حال من تخونه الذاكرة، فطالبتني بأمثلة لما يقع لي، فقلت:

وكيف يسمني هذا وأنا أعمى عاشقاً وأصيح سالماً؟ وأرتدى ثيابي لأخرج حتى

(٤٧) نشرت في "البلاغ" في ٢٨ أكتوبر سنة ١٩٤٤ (ص ٣).

إذا هبطت بضع درجات من السلم وقفت أسأله: إلى أين؟ وقيم الخروج؟ ويعينني أن أهتدي، فأعود أنراجي وأقعد وتحبشي زوجتي هي أمر ثم أنصرف، فإذا عدت لقيني ما السؤال عما صنعت، فأستغرب وأسأله: "صنعت ماذا؟" فتقول محتجة: "لم تتفق على كيت وكيت؟" فأقول: "والله نسيت" وكانت في بدلية الأمر تظن أني أدعي النسيان ثم اقتنعت على الأيام، وكنت عن الاعتماد علىّ، أو تكليفي شيئاً، أو عقد أطراف المنايل أو دس رقعة هي جببي، فما وجدت لشيء من هذا حدودي، وأسلمت أمرها لله ولمسوء حظها معي.

وقد اعترف شهود تلك الجلسة - كما اعترف الدكتور الجابري - بأنني أنا محرر قصب السبق ولا جدال، وكان هذا فوراً لي، ولكنه هو مقلوب أو كما يقول ابن الرومي "يرفعه الله إلى أسفل".

على أن للنسيان مزاياء فإنني أسمى المساءات والأحقاد والهجوم والمتاعب وأندم ملء جفوني، وكفى بهذا ريحاً.

أسألت كل هذا لأقول إن الأمير مصطفى الشهابي دعانا في الليلية إلى العشاء في داره، أو في حديقته على الأصح ولما كدنا نفرغ من الطعام أقبلت فرق الكشفة بالمشاعل وأرحم في الباب منها جماعة، ثم تقدم علام صغير ففني وطرب ورجع بصوت لم أسمع أحلى منه، وكان واقفاً أمام شجرة ووراءها من لا أرى وهو يشبع في يراع معه، وتكرر هذا وكان صاحب اليراع يضرب معازف شتى أيضاً، وبسمعنا غير ذلك أناشيد شتى، وأعجبت بالعارف وحنقه، فاقترحت على الأستاذ عزمي الشاشيبي مدير محطة الإذاعة بالقبس، وكان قريباً مني، أن يدعوه إلى الإذاعة معها، فقبلت فقلت إلى حيث كان هؤلاء الفنانين واقفين وقلت لأنفسي إنه يحسن أن أقيد أسماعهم لأنكرهم بما هم أهله بعد أوبتي إلى مصر، ففعلت وأوصيت العازف أن يقابل الأستاذ عزمي الشاشيبي فسر بذلك، وقد كان، واتفق معه عزمي على السفر إلى فلسطين للإذاعة وقد علمت أن هذا العازف أستاذ للموسيقى في مدرسة خيرية هناك، وكنت أود أن يتفق عزمي مع الفلام المعنى أيضاً ولكنه قاله: إن هنا عسير لأنه قاصر، فتسقت

وقد أعيانني ثن أجد الرقعة التي نويت فيها أسماء هؤلاء، فجعلت أرجي ذكرهم والقول فيهم، لعل أفتدى إلى مكان الرقعة حتى ينست، وكففت، وقد كانوا ينتظرون كلمتي فيهم، فقد وعدتهم أن أبعث إليهم ما أكتب، فالآن سيخيب ظنهم، ويتهمونني بخلاف الوعد، ولست أرى لي حيلة، فإن أفتى هذا النسيان وإنني لأخشى أن أنسى اسمي يوماً ما، ومما هوى هذا الوهم أو الخوف أنني قرأت قصة منذ سنوات كل ما أنكره منها أن يطلها أصيب بصدمة، فلما أبيل كان قد نسي نفسه ولم يعد يدري من هو؟ ومسح اللوح كله فلم يبق فيه سطر واحد من الماضي، فلما قابل خطيبته بعد ذلك لم يعرفها، وقد عشقها مرة أخرى وخطبها من جديد، ولكنها هي كانت ضئيلة بحبهما القديم، فظلت تطاوله وتحاول أن تنشر ما انطوى وتبعث ما مات، حتى عانت إليه ذاكرته لا أدري كيف.

وإنما بقيت هذه الخلاصة ولم تغب كما يغيب غيرها مما أفرأ لأنها أرعجتني وخوفقتني، وزادت أعصابي تلقاً على تلقه، ففأ لهذا أحرص على وضع بطاقة باسمي وعنواني في جيبى، وإنني لأعلم أن هذه سخافة، فلي يبلغ النسيان من هذا المبلغ، فيما أرجو على الأقل، وإذا كُتبت على أن يصيبني ما أصاب بطل تلك القصة فما أظن أن البطاقة تجديني، ولأخلق بي أن أتساءل اسم من هذا؟ ولماذا احتفظ ببطاقته؟ أتراني أعرفه؟

ولست أمالي هذا النسيان، فإنه يريحني، وإن كان يتعب غيري ويوشق على أهلي خاصة، ثم أنه لا ضير من نسيان ما أقرأ، لأن الفائدة من القراءة تحصل سواء أنسيت ما قرأت أم ذكرته، وشبيه بذلك أن تاكل ثم تنسى أى طعام أكلته، فلا يمنع ذلك أن الفائدة من الطعام قد حصلت، ولكن النسيان يتعب إذا وجبت المراجعة، وليس البلاء أنى أنسى، وإنما هو أنى لا أضع علامة على كتاب أقرأه ولا أدون شيئاً في مذكرة، فإذا أردت الرجوع إلى شيء مما قرأت حرت أين أهليه، وقد حاول بعض إخواني المشفقين أن يعيدوا النظام وتكوين المذكرات ففعلت أفعل كما أشاروا، وشرعت في ذلك ولكني مللت بسرعة، ورأيت في هذا تعطيلاً لى، وتضييعاً للوقت،

والحقيقة أنني اعتدت هذه الفوضى طول عسري، فمن العسير بعد هذا الزمن المديد أن
يجيء أحد فيحاول تعويدي خلاف ذلك والجرى على العادة أسهل، وأنا سرّيع الملل،
وكلما ثقل على أمر قلت لأنفسي "وقيم كل هذا العناء؟ كل شيء باطل وقبض الريح!
فليكن ما يكون!"

فى مهرجان المعرى^(٤٨)

حلب مدينة الموسيقى، وقد قال لى بعضهم إن فى كل بيت كماناً أو عوداً أو غير ذلك من العازف، حتى بيوت النصارى واليهود والأرمن، فافضحكى هذا وقلت له: "ما كنت أعرف قبل اليوم أن كون المرء نصرانياً أو يهودياً أو أرمنياً يمنع أن يكون موسيقياً"^١ وكانت شهرة حلب أنها تحافظ على القديم وتحرص عليه وتبلى أن تخرج بفنها إلى هذا الذى يسمونه بجديداً، ولست من أهل هذا الفن ولا دراية لى به، وإن كنت فى سبيل حياتى قد أضعت عاماً ونصف عام وأنا لأحاول أن أنظم العرف على الكمان، وكان أستاذى هو الخواجه تلماح، وكان مكانه على مقربة من سراى البارودى التى كانت فيها "الجريدة". وليس نذبه أنى أخفقت، أو انقطعت عن الطلب، فقد كنت قليل الصبر، وشق على أن لا أبلغ مبلغ سامى الشوا فى أسبوع! وكنت أستمى أن يسمع أحد ما كنت أخرجيه من الأصوات المنكرة التى تشبه المشرجة، فكنت أصعب على "الفرس" ما يكتم أنفاس الأوتار ويحلبها خافقة - أخفقت والسلام. ولا داعى لنشر هذه الفكرى الملوثة التى لا يعط من أمرها شيئاً سوى القدامى من إخوان ذلك الزمان، وكان الذى أعرانى بالموسيقى أنى شكوت إلى طبيب حائق ما أتوهمه من اصطلاح العال والأمراض على، فتراد أن يصرفنى قليلاً عن القراءة، ويشغلنى عن هذه الأوهام فلتشار على أن أدرس الموسيقى

(٤٨) نشرت فى "البلاغ" فى ٢ نوفمبر سنة ١٩٤٤ (ص ٢).

ولم أسمع في حلب شيئاً من الموسيقى على شدة حب أهلها لها وبكثرة المعارف فيها، ولكنني التقيت بحلمي عند الصديق فخرى البارودي بعد ارتدائي عن فلسطين وهو ضخم جداً وعرضه كطوله - تقريباً - وثيابه أكسية عجيبة من نسج القفاطين اتحد منها سراويل ودراعة وفوق هاتيك معطف من صوف يصل إلى القدمين، وعلى رأسه عمامة أو ما يشبهها، ولم أشك حين رأيته في أنه من أهل العلم بالموسيقى والتحرر فيها، فما يختلف إلي مكتب فخرى إلا الراسخون في هذا العلم، وتربع فخرى على عرشه، ومال فتناول الطلبة وجعلها في حجره، ومصح عليها ينقر ونقرتين ثم أمر بتوشيح قديم لا أعرفه ولم أسمع به، فنضاً الرجل معطفه وبدأ في ثيابه المصططة الزاهية، وأنشأ يغني بصوت لا طو ولا مطرب ولكن الإيقاع فيه جيد، وكان يصرب بجمع إحدى يديه في كف الأخرى ليصطب التوقيت أو "الوحدة" كما يسمونها، ثم حمس وأخذته خفة فانتفض واقفاً وجعل يرقص رقصةً توقيعيةً على نغمات الصوت الذي يغنيه، فكنا من فرط الطرب نهض منكمه ونفعل كما يفعل.

وهذا "توشيح" أو موشح عتيق جداً على ما قالوا لي، يقل من يحفظه ولكنه هزبي فتمشي في مفاصلي مثل نشوة الخمر، وتكما يحدث لي تلك قبلي رزين، ولا فخر، وما أكثر ما أسمع من الغناء الذي يقاوم أن فيه تجديداً هلا أطرب ولا تتحرك - كما يقول المأمة - شعرة واحدة في رأسي، وأنا أحب الموسيقى الغريبة وأفهم بعضها وأطرب له ولكن هذا التلقيق الذي يرعومونه تجديداً يسلب موسيقانا لونها وطعمها وصبغتها، ويفقدنا خير ما كان لها من مزجة - أي موافقة طباعتنا وقطرتنا.

وانكر أنا سهرنا ليلة عند سليمي ياشي في بغداد، فلمسمعنا غناءً مصرياً حديثاً، فقلت لها

يا ستي! هذا شيء شبعنا منه فهاتي غناء عراقياً أصيلاً، والأفضل أن يكون بدويّاً

فلسمعنا أصواتاً قوية لم نستطع معها أن نحفظ بوقارنا واستحال علينا الجلوس أو السكون.

ولمست لى، كما أسلفت، دراية بالموسيقى، وإيما الذى أبرهه أن نفسه تستجيب للضرب القديم ولا تستجيب لهذا الصرب الذى يقولون إنه جديد. وقد يكون عيرى مثلى أو لا يكون، ولكنى أنا كنت هكذا طول عمرى، وكنت وأنا طالب فى مدرسة المعلمين، أسكن بيتاً فى حارة أزيك بحى الصليبية، وكان رط من العمال يمرور به فى بكرة الصباح المطولة، أو المقرورة ولا سيما فى الشتاء ومعهم علام يقى، بأعلى صوت سمعته فى حياتى - وهذا ما مزيل إلى - والكبار خلفه يرددون كلمة أو كلمتين فى نهاية كل مقطع، فكنت أرمى اللحاف وأشب من السرير أو عنه، وأفتح مصراعى النافذة، ولا أنالى أن أتعرض للبرد بعد النفا، وأطل لأسمع، حتى يغيب الصوت وصارت هذه عادة حتى كنت أستيقظ وحيدى قبل أن يقبل العمال، ولا أكاد أفتح النافذة حتى يبدأ الصوت الطور يهوى إلى من بعيد

ولا يد من كلمة على قلعة طيب، لا لأن لها علاقة بالموسيقى بل لأنها كانت أشقى لنفسى من كل دواء وأجدي على من ألف طيب، ذلك أن أعصابى فى متهى التلف فأتا لا أزال أتوهم أن قلبى ضعيف لا يتحمل أيسر جهد، وقد أتعبت الأطباء وأعيانهم أن يقنعوى أنى سليم القلب، وإن لم يكن قلب مصارع، وأنه فوق الكفاية لجسمى الضئيلة فلما كنت فى طيب دعونى إلى زيارة القلعة فتعيت معهم، وأربت الاكتفاء بالنظر إليها من الطريق، فإنها شىء عظيم شامخ جداً، وقد بُنيت فوق تل أو ربوة، وحولها خندق واسع، فأتوا أن أسمع ظم أشأ أن أقول لهم إنى أخشى أن أجهد هذا القلب المظالم، وزعمت أن ركبتي ستخذلانى ولا شك فأتوا إلا مصاحبتهم وهوتوا الأمر فخرجت، وبصيت معهم، ونهينا نصد وتصد حتى ظلت إننا قد بلغنا السماء وما هناك بكثير من مائتى درجة زد على ذلك ظلمة هذه المنقبة وضيقها وعدم استواء الدرجات المساء التى يسهل جداً أن تزل عنها القدم، ولكل شىء آخر حتى الصعود فى هذه القلعة، فتشبهت ورحت أخرج مع القوم، ثم انحدرنا، ومضينا إلى أثر آخر، ثم زرنا السوق

المشهوره، وخرجنا منها إلى دار المحافظة، فصعدت مرحاتها وقعدت قريباً من المحافظ، فاقبل علىّ يكلمني ويحدثني عن حلب، وأخيراً تذكرت أمي نسيت هذا القلب طول الوقت، وأنى لم أشعر من جاذبه بشيء، لا خفقان ولا سرعة، ولا اضطراب ولا شيء على الإطلاق كما كنت تأثماً ولم أكأيد كل هذه المنآت من الدرجات! فكنت أرقص، وسمعتني بعض إخواني أقول ملا مناسبة (بارك الله فى قلعة حلب!) فسألونى عن السبب فقمرت بعيني ولم أجب، وتركهم يظنون ما شاعوا.

وماذا أبالى، وقد ابلعت نفسي، ويسكن روعى؟

نعم، بارك الله فى قلعة حلب!

(١٤)

في مهرجان المعري^(٤٩)

زارنا في دمشق وفد من شبابه، وكان ذلك قبل المهرجان على ما أنكر، وكنا نتعشى، فاشفقت أن نقضي الليل في الإصغاء إلى خطب لا طائل نحتها، والرد عليها، وحاولت أن أنزع، ولكن رسولهم إلينا كان كفه موكل بي، فسبت بقطعة الشيطانية كل فج.

وكسوا عشرين أو نحو ذلك، فجلسنا معهم في حلقة وقلنا تفضلوا فقد أعزناكم أذاً، فإذا هم لا يريدون خطباً ولا ييقنون كلاماً قارعاً، وإنما يريدون أن يسألونا عن الوسيلة العملية لتيسير الاطلاع والحصول على الكتب والمجلات الطمعية.

وقد ذكروا لنا أموراً أنهضنا، ذلك أن المجلة المصرية التي تساعها بقرشين ساع في الشام بخمسة وعشرين قرشاً سورياً أو خمسة وثلاثين، والكتاب الذي ثمنه في مصر عشرون قرشاً يرتفع ثمنه هناك إلى ثلاثمائة قرش أو أربعمائة، وغير منكور أو مريود أن هذه أثمان تمجز الطالب المتوسط الحال عن اقتناء الكتب أو المجلات المصرية وتضطره إلى الاكتفاء بالأقل أو الأرخص، وتلك خسارة عليه وعلى الكتاب المصريين والصحافة المصرية فما حل هذا المشكل؟

وقد عرفت فيما بعد أن بعض كتبنا - وثمنه في مصر قروش عشرون أو خمسة وعشرون - قد بيع بما يعادل ديناراً من ذهب، وأبل هذا إنما كان لفظة ما ذهب من نسخة إلى الشام، أو لعظم قيمة الكتاب أو للسببين معاً

(٤٩) نشرت في "البلاغ" في ٤ نوفمبر سنة ١٩١١. (ص ٢)

ولم أر صحفًا مصرية وأنا هناك إلا في المنرة القليلة، وكنت لا أعرف مواعيد وصولها، وكان الذي يصل يُخطف خطفًا فلا يبقى منه شيء بعد دقائق، فاكتمت بالصحف المحلية، وبها الكفاية المقيم هناك، ولكنها لا تكفي من يريد الوقوف على أخبار مصر كما اعتاد أن يقرأها كل صباح ومساء بالتفصيل الوافي

ومثل هذا يشكو منه السوريون واللبنانيون أيضًا - فإن كتبهم وصحفهم ومجلاتهم لا تناع في مصر ولا تعرض في مكباتها ولا يطلع عليها إلا من يتلقونها بالبريد على سبيل الهدية

وقد قلت لمن حادثتهم في ذلك إنني أستغرب أن يعجز السوريون واللبنانيون عن تنظيم النشر لكسبهم وصحفهم في مصر وهم من أنشط الشعوب وأحنقهم وأقدرهم على تولي مثل هذه الأمور، وجاليتهم في مصر كبيرة قوية، وإن كان كثيرون من أفرادها قد تمصروا وانتهى الأمر.

وأحسب أن هذا حال لا يرضى أحدًا لا من المصريين ولا من السوريين واللبنانيين فإن بنا جميعًا حاجة إلى تنظيم النبادل وتوسيع نطاقه.

وقد كنت أشرت قبل هذه الحرب على بعض قوى النفوذ والجاه في مصر أن يسعى لتقريب شركة قوية للنشر برأس مال كبير تجرى في أعمالها على النهج المألوف هي شركات النشر الإنجليزية، وأكنت له أنها تجارة رابحة على التحقيق وأن كل ما تتطلبه هو تنظيم الأسواق في البلدان العربية، فلم يصنع شيئًا لأنه شغل عن هذا الأمر بما كان يومئذ يولي بعنايته.

والحاجة إلى هذا التنظيم في مصر دائمة عظيمة، وأذكر أنني طبعته في سنة ١٩٢٠ كتابًا على نفقتي، وكنت أخشى يومئذ أن أكون قد أسرفت فقد طبعته منه أربعة آلاف نسخة، ولكن التكاليف كانت هينة، فلا محل للخوف من خسارة تصيبيني، على أن الكتاب نقد في وقت وجيز، وكان أغرب ما حدث بعد ذلك أن جاني كتاب من الإسكندرية يقول فيه صاحبه إنه سمع أنني أخرجت كتابًا اسمه كذا، ويعني هذا أن

الكتاب الذي بيع في القاهرة والحجاز وجبلوه لم يسمع به أحد في الإسكندرية
العاصمة الثانية لمصر"

والحقيقة أن تنظيم أسواق الكتب في مصر والبلاد العربية يفسح المجال لتنشيط
التأليف، فإن الدين لفتهم العربية لا يفلتون عن [سبعين مليون]، فإذا قلنا إن عشرة في
المائة ليس إلا من هذه الملايين السبعين يقرأون بالعربية، فإن المجال يكون ذا سعة
عظيمة أمام المؤلفين والمترجمين في كل علم وفن

والتنظيم هو كل شيء، وسبيله أن تقوم شركة كما أسلفت، وتوفد مندوبين إلى
البلاد العربية يعقدون اتفاقات مع المكتبات المختلفة وبور النشر الأخرى والصحف
للإعلان والنقد، حتى إذا تم ذلك وصار قائماً على قاعدة علمية وطيدة اتفقت الشركة
مع المؤلفين والمترجمين على اختلافهم في مصر وفي الأقطار الأخرى، ثم لا تترك أمر
النقد وما إليه للمصادفة، بل تدفع الكتب المختلفة إلى النقاد وتستكتبهم أراهم النزاهة
فمها وتجريهم على تعيهم في ذلك مجزية كافية وتقتضى هي ما يكتبون فتدبث به إلى
الصحف لنشره بأجرة في أيام معينة، ويكون قبل ذلك قد ورعت الكتب على المكتبات
جميعاً في مصر وغيرها، حتى إذا ظهر الإعلان والنقد وجد المصهور الكتب معروضة
فأقبل عليها يقننيها، وهذه الطريقة هي التي تمنى بفضلها أن ينفذ بعض الكتب
الإتحادية في أيام معبودات، وأن يعاد طبعها مرات، فيريح المؤلف ما يكفنه ويشجعه
على التفرغ لفنه أو علمه أو يانه على العموم، وينتفع الجمهور، ولا نحتاج أن نقول إن
الشركة تريح ربحاً وفيراً

وقد جربت طائفة من المكتبات المصرية هذه الطريقة فحصلت نجاحاً غير قليل،
وأصبحت تسمى نفسها بوراً للتشور، ووسعها أن تتوسع فتخرج من بعض الكتب
خمس عشرة ألف نسخة، وليس ثم ما يجمع أن يرتفع الرقم إلى ثلاثين ألفاً أو أربعين،
فإن القراء موجودون، وكل ما يحتاجون إليه هو أن يسمعوها بالكتب ويعرفوا أين
يجنونها في غير غناء،

ومعظم القراء بصاجون إلى ما يفرهم باقتناء الكتب ويحضهم على طلبها ويسهل

عليهم الموصول عليها، ومعذور من يزهد في ذلك أو ينصرف عنه إذا كان لا يعرف أن كتاباً من الكتب صدر، أو أين يجده في غير مشقة، أو ماذا فيه مما يدعو إلى المرحص على اقتنائه، فالتيسير واجب، وإذا قلنا التيسير فقد قلنا التنظيم، وبه يتسنى النشر في أوسع نطاق في البلاد العربية كلها، ويسهل التبادل بينها ويتفرغ حملة الأقلام لما يحسنون، ويتاح للنقد أن يرتقي، وتتفتح الصحافة بما يبشر فيها إعلاناً ونقداً

فى مهرجان المعري^(٥)

كانت مائدة العشاء التى أقامها فخامة السيد شكرى القوتلى رئيس الجمهورية فى ختام ليالى المهرجان، مظهراً لروح سورية حقيقية، وهو جمهورى صميم، وإن كانت سورية قد عرفت - وعانت - الملك العضود فى تاريخها الطويل الحافل، وقد حملنا إلى قصر الرئاسة فى سيارات لا مدنى من أين جئنا بها، ولا من هو الذى كان يتولى أمر إعدادها، وقد فانتنى أن أكون فى السيارة التى أظننى إلى القصر وعادت بى منه [مع] رملانى فى الرحلة الطويلة إلى شمال سورية - مناطق الحصرى بك، والشيخ المقرنى، والأستاذ عز الدين التوتخى، وكنت ضئيلاً بهم، وحريصاً على صحبتهم، معتراً برفقتهم - ولكن العوض كان جريلاً، فرافقت فى الذهاب والإياب الأستاذ إسعاف النشاشيبي والأستاذ أحمد الشايب

والقصر الجمهورى دار صغيرة فيها من البساطة أكثر مما فيها من الأبهة، وعلى أبوابها، وفى مداخلها، حراس وشرط، ولكك تحس وأنت داخل أن هؤلاء إنما بقفون لنحيبك والترحيب بك لا لحراسة أحد، فكثرت بعض ما تزان به المعجب والحفلت مبالفه فى التخفى، ومن يحرسون؟ ومن يتحرزون؟ إن رئيس الجمهورية من الشعب، والشعب منه، وما كان راغباً فى هذا المنصب، ولا طالباً أو ساعياً، وإنما كانت رغبته وسعيه أن يكون الرئيس الأسبق هاشم بك الأتاسى على رأس الجمهورية، ولكن هاشم بك أبى كل الإباء وأصر على أن هذا الأمر ليس له سوى شكرى بك، ولو بقى الأمر لاختيار شكرى بك لنا قولى شيئاً لا من الرئاسة ولا من الوزارة.

(٥) نشرت فى "البلاغ" فى ٩ نوفمبر سنة ١٩٤٤، (ص ٢)

والواقع أن مناصب الحكم لا تعد شيئاً في سورية، فليس عليها تنافس، ولا هي سبيلها ومن أجلها تنور الخصومة وتضطرم العداوة وتتشق الصفوف وتفترق الكلمة. وقد زرنا حمص في أويتنا من رحلة الشمال، وقصدنا إلى دار السيد هاشم الأتاسي الرئيس الأسبق لتحيته، ثم تغدينا في بستان البلدية فهرقت أتاسياً آخر هو أخو الأول، تقلد منصب الوزارة مرة من قبل، ولو شاء لتقلد رئاستها الآن وبعد الآن، فإن منزلته وأسرته وثقافته وهمته تؤهله لما يحب، ولكنه يشيع عن ذلك كله إشاعة المستخف، ويؤثر أن يكون رئيس بلدية حمص! وعلى هذا فقس.

واستقبلنا فخامة الرئيس في القاعة الكبرى وإنما توصف بالكبرى بالقياس إلى غيرها - وكان يتقل بين هذا الرهط العظيم المحشود ويقف مع كل فريق لحظات يتحدث ويلاطف ويجمال، ثم قبل اهبطوا فهيطنوا إلى الحقيقة وهي واسعة - حيث صفت الموائد فقعدنا حيث طاب لنا أن نقعد، ولكن الرئيس أبقى إلا أن يحف به المصريون فلذنا منه وجعلنا على جانبيه وأمامه، في غير كلفة، واختص الأستاذ إسعاف بك النقاشيبي بتكريمه فقلع عليه أن يكون أمامه، وجعل يقول إن إسعاف بك أستاذ، وإنه قضى في القدس عام كذا نحو عامين فكان يزور الأستاذ إسعاف كل ليلة في داره فيستفيد منه أدباً وعلماً.

وخيل إليّ، وأنا أراعي الأستاذ إسعاف، أنه يقول في سره 'يا أرض ابلعيني' من قرط النسياء فقد اضطرم وجهه فصار كالطماطم الناضج، وراح رأسه يهتز يمين ويسرة، فضحكت في سرى - أنا أيضاً - إذ تذكرت واحداً من أصدقائنا القديما عليه السلام، كان لا يترك كلما تعجب أو أثار شيئاً يهز رأسه على هذا النحو، وكان المرحوم السباعي يشبه رأسه في امتزازه هذا برأس الأرنب المصنوع من الجبس!

وأكبريت في فخامة السيد شكري هذا التواضع، وبذلك الإقرار العلني بفضل لا يلزمه شكره، وأكبريت من إسعاف بك نظامته واستحياءه على فضله وعرارة علمه، فما هيمن لا يستحي خير.

ولكن الأستاذ إسماعيل ترب اللسان حاضر البديهة، سريع الخاطر، يتكلم فكثته يقرأ في كتاب، فما لبث أن تطب على حيائه فانتطلق يسبح مسجاً بوصف فضائل الرئيس ومراياه، والرئيس يستوقفه ويستعقر الله، ولكن من ذا يمد السيل المنهمر؟ والقلب الوضع، وانعكست الآية، وصار الرئيس هو المطرق حياً، وهو الذي يحاول أن يبدو للناظرين كئيبه هو المعنى بهذا المديح، فبعث بالشوكة تارة، ويفرك لابل الخبر طوراً ويستقت وراءه حيناً، ويتناول سيجارة ليشطها ثم يردّها

وما كنا ندرغ من الطعام، وتنهياً للقيام - فقد كان المقرر أن تُعفى من الخطب - حتى رأينا شيخاً يقار مكانه ويقل فيصف قبالة الرئيس كئيب ينتظر الإذن، فينظر إليه الرئيس ملياً ثم يأتي له الألب أن يردّه، فيقول "تفضل"

وقد استغريت ما سمعت، فما كان هذا مقامه، ورأيت الرئيس يلتفت إلى الأستاذ أحمد أمين بك وسمعه يقول - "ما رأيك" قلم يجب الأستاذ، ولكنه نهض بعد أن قرغ صاحبا، فقال كلاماً حسناً يعد رداً على ما سمعنا وتعجبنا له، فأنقذ الموقف.

وصار الواجب بعد ذلك أن يقول أحدهما كلمة شكر، فقالها الدكتور طه، جزاه الله خيراً، وأحسن كل الإحسان، وأثنى أطيب الثناء على وزير المعارف تصوح بك البخاري الذي لم يفارها لحظة واحدة في أسبوع المهرجان، وكان لا يفتر في رعايته لنا، ولا يقصر في تعهيدنا وبرنا.

ولقد جاعني معاليه بعد أن نهضنا عن الموائد وتفرقنا في الحديقة وشكا إلى أن الدكتور طه بالغ وأسرف، فقلت له:

يا سيدي إن الدكتور طه إنما عبر عما نطوي جميعاً لك من الحب والإجلال والشكران، وأو لم يشكره طه، لشكره أنا وكنت أشد منه إسماعيل، وما أراه إلا قصر في حقه.

فقال: أنت شر منه.

ومضى غني، وهو أشد ما يكون استحياءً!

وكان الأستاذ نحيب الرئيس الأديب الشاعر وصاحب جريدة القدس - قد كتب مقالاً عريضاً ينتقد فيه محافظ معشوق وانتقد أن جلس المحافظ في مائدة الرئيس ويجانبه الأستاذ بصوح نابيل نقيب الصحفيين وصاحب جريدة الأيام، فشكا إليه المحافظ ما قال فيه بجيب، فما كان من بصوح إلا أن قال إنه يوافق زميله على كل حرف خطه فسرفى هذا التضامن بين الزملاء، وبمست أن يكون هذا حالنا في مصر

وسمعت أعجب حوار وأمتعته ونحن نعود إلى الفندق، وكان السائق يهب الأرض والأستاذ إسعاف يكره السرعة فاستمهل السائق، فقال هذا

‘لؤلؤنا على الأرض؟ فمالذا نخاف؟’

فقل الأستاذ إسعاف: ‘ولكن الله يأمرنا أن لا نلقى بأنفسنا في التهلكة’

فرد عليه السائق بلل المكتوب على الجبين لارم تشوفه العين، فصاح به الأستاذ: ‘ويحك! أقول لك القرآن منهي عن هذا فتحتج على بعد الوهاب؟’

فأسر السائق على الاحتجاج بمواويل عبد الوهاب ولج الأستاذ في الاحتجاج عليه بالقرآن والحديث، ثم رأى السائق يزيد على السرعة أنه يتلفت يمنة ويسرة فخاف العاقبة، ولكنه أثر المزح فارتجل حكمة تقول: ‘أو يقول هو فيها إذا ركبتم الفيل فلا تتلفتوا ذات اليمين وذات الشمال’ فكان جواب السائق: ‘أن العرب لم يعرفوا السيارة، وظللنا نستمع إلى هذا الحوار اللئيم حتى بلغنا الفندق بسلام، فكان القتال مسكاً

(١١)

في مهرجان المعري^(٥١)

عرفت في الشام بدوى الجبل وهو شاعر أديب، ونائب من اللاتقية، وكان الترتيب أن ينشد قصيدته في احتفال اللاتقية، ولكنه دُعي إلى حفلة دمشق الأولى

وبدوى الجبل ليس اسمه، بل وصفه، وقد غلب عليه الوصف حتى لا يكاد يعرفه بغيره أحد، وحتى صار ينادى به في مجلس النواب، وقد سمعت رئيس المجلس - وكان يومئذ فارس بك الخوري - في الجلسة التي شهادتها بعد ارتدائي عن فلسطين، يقول "سميتو عليكم بدوى الجبل المراسيم" إلخ، فقلت لنفسي، هي يسالة القوم تسهل عليهم الأمر، ولولا ذلك لعاموا ما عانيت من السير والارتباك، إن كيف أناديه من بعيد مثلاً وكيف أدعوه حين أخاطبه؟ أقول له "يا سيد بدوى؟" أو "يا حضرة البدوي؟" أم أهمل ألفاظ المجاملة كلها وأمرى وأمره إلى الله؟ وكيف يليق ذلك وما سمعت لي به معرفة، وإن كنا قد اختلفنا بسرعة؟ وأنا رجل أحرم في صداقاني على إبقاء بعض الحدود، ولا أرفع الكلفة كل الرفع وإن كنت أرسل نفسي على السجية، لأنني وجدت ذلك أبقي للصداقة وأدوم للعودة، حتى زوجتي وأخي وأبنائي أتوخي معهم الاحترام والأدب رغبة في طيب المعاشرة وحسن المخالطة، واحتياجاً لتغير النفوس من جراء سوء الأدب والتطاول.

وقد وجدت في "يا أستاذ" مخرجاً غير مريح، فقد شاع هذا اللفظ حتى فقد

(٥١) نشرت في "الملاغ" في ١٤ نوفمبر سنة ١٩٤٤ (ص ٢)

قيمته، فكل امرئ يقول لكل امرئ آخر "يا أستاذ" وقد سمعت كمسارياً يقول لصبي حافي القدمين عاري الرأس وعليه مرقعة تبدي من يده أكثر مما ستر "تكررة يا أستاذ" ولعله كان يتهمك أو يتفكك، ولكنى امتنعت، واستنقذت هذا الانتدال، وعريت نفسي بأن "أستاذتي" أنا، خاصة، لم يعتد إليها الامتحان، وإن كنت أرى خصوصتها قد صار كالعموم.

وسألت غير واحد عن اسم "بدوى الجبل" فكان يطول تفكيرهم ويترددون ويتلعثمون، فقلت أسأله هو نفسه، ومهدت لذلك بقولي له "إنى أرى الناس كلهم يسميهم أبلؤهم، فلا خيار لهم فى الأمر وإن كان الاسم بغيضاً، ولا أعرف سواك رجلاً أوتى الشجاعة اللازمة لإطراح ما سماه به أبوه والاعتياض منه الاسم الذى يروقه، فماذا كان الاسم الذى تلقينه من أبويك؟ ولماذا أثرت تغييره؟ أعنى ماذا كرهت منه؟"

فقص على هذه القصة قال إنه لم يغير اسمه، ولا اعتاض منه سواه، ولكنه فى أول عهده بقرض الشعر، بحث بقصيدة إلى صحيفة الأستاذ يوسف العيسى ألف باء - ونيلها باسمه الصريح محمد سليمان أحمد - فتشر الأستاذ العيسى القصيدة وجعل التوقيع تحتها "بدوى الجبل" فاستغرب هذا وزاره وسأله عن سبب ما صنع، فقال له إن القصيدة جيدة، واسمك غير معروف، فإذا رأى الناس اسمك الذى لم يسمعو به من قبل، ساء رأيهم فى القصيدة، أو قرئوها وهم أميل إلى استضعاف الشعر، سلفاً، ولكنهم حين يرون كلمتى "بدوى الجبل" خلقون أن يستغربوا ويتوهموا أن هذا الشاعر مجسد مشهور يؤثر - لسبب خاص - أن يتكرر، فيكون هذا باعثاً لهم على إحصاء الظن سلفاً، أو على الأقل وزن الشعر بغير هوى.

وقد صدق ظنه، فاعجب الناس بالقصيدة وأقبل بعضهم على بعض يشاؤون "من ترى يكون بدوى الجبل هذا؟ ولماذا يتكرر؟" وقال قوم إنه خليل مردم، وذهب آخرون إلى أنه شفيق جبرى، وكلاهما من شعراء الشام المعبودين وأخفقوا فى ذلك اختلافاً عظيماً واقتنع السيد محمد سليمان بصواب الرأى، فخرج فى الشكر حتى اشتهر مائة "بدوى الجبل".

ولم أستعرب هذا لأنه عين ما وقع لي فقد كان زملائي في المدارس لا يعرفونني إلا باسم "عبدالقادر" لأنني في حداشي لم أكن أحفل بلقب "المازني" حتى ملت إلى الألب، وعكلت على كتبه القديمة أقرأها، فعرفت قيمة لقبى الذى كنت أستحق به وأهمله، فلما أردت أن أنشر فى الصحف بعض ما كنت أنظم وأكتب، عكست القضية، فكنت أدبل القصيدة أو المقال بهذا التوقيع "ع.ا.المازني" فلبز ما كان خافياً، وأحجب ما كان ظاهراً معروفاً، وناظلت على هذا إلى سنة ١٩١١ أو ١٩١٢، وكنت يومئذ أنمذلق وأتقعر، ولا سيما فيما أنشره فى مجلة (البيان) لصالحها المرحوم الأستاذ البرقوقي، فكتب الدكتور هيكل (وكان يومئذ مثلفا لا بك ولا ماشا) فى صحيفة (الحريفة) مقالاً فى (كتاب البيان) يقول فيه ما معناه إن لعل اسم المازنى هو الذى يرجع إليه السبب فى تقعره، فكان من أثر هذه الغمرة أن بذت التكلف، ونزعت إلى البساطة

واتفق يوماً أن كنا بمجلس المرحوم البرقوقي، وكان "الواء" أو "العلم" لا أنرى أيهما - قد نشر لى قصيدة طويلة، وكان معنا السيد الفاياتي، فجعل يسأل (يسأل من هذا المازنى؟) وأنا معه، فضمكت، واشتد إلحاحه فى السؤال لما نقبته فى (الجريدة) وقد عرف السر بعد ذلك وصرتنا صديقين

ثم صرحت باسمى كاملاً بعد أن اطمأنت نفسى، واستخفيت عن التستر أو انتقاء الظهور جهرة، فقد كنت أخشى الحيبة، وأشك شكاً كبيراً فى قيمة ما أكتب أو أنظم، ولكنى وجدت من تشجيع الإخوان وعطفهم ومروءتهم ما قوى قلبى وجرائنى

وأذكر لبوى الجبل - كما أذكر الدكتور أسعد طلس - أنهما لم يفارقانى قط بعد نوبتى من فلسطين مطروفاً عنها، وقد أبى الدكتور طلس إلا أن يعود معى، وإن كان

القوم قد أننوا له في الدخول وتلك منة كبرى له، ويد لا أنصاهما أبد الدهر فقد يسر لي كثيراً مما كان خليفاً أن يتعسر، وظلا كلاهما معي بعد ذلك حتى ركبت الطائرة إلى مصر، وكانا يسعيان هنا وهناك، ويحاولان تذليل كل عقبة، وتسهيل كل صعب، ولا ينفكان يسانني بكل خطوة ولا يكفان عن ببشيري وتطميتي، ولا أدرى كيف أشكر لهما هذا، ولا أرى العجز يصلح عنراً ولكني مع ذلك أطمع منهما أن يفتقرا لي تقصيري، فإنهما هما وقومهما جميعاً أنبل من أن يتقاضوني شكراً على مروءة.

(١٧)

في مهرجان المعرى^(٥٢)

سوريه الحاضرة وإيدة الحركة العربية التي قامت، جهراً وسراً، في أخريات العهد العثماني، وقد كان لكثيرين من أقطاب سورية الآن، مشاركة في تلك الحركة، وهذا رئيس القولة السوريه الحاليه، السيد شكري العوتلي، ما نحا من الموت إلا بأعجوبة، ويفصل من الله فقد كان الأتراك في أثناء الحرب العظمى الماضية يطاردون أحرار العرب ويشنقونهم وكان السيد شكري ممن قبض عليهم، وأخذ في الحال بأن يلحق بسواه من الأحرار، وسأله عن زملائه الأحرار، فبقي أن يقول شيئاً، وأصر على الكتمان وأثر أن يدركه الموت على أن ينكب أحداً

وكان هناك كثيرون قد قبض عليهم وسألوا كما سأل السيد شكري، فلم يقولوا شيئاً، ولكن واحداً منهم أراد أن يضلل القوم فراح ينكر لهم أسماء كثيرة ما بل الله بها من سلطان، أو لا علاقه لأصحابها بحركة عربية أو غير عربية، فكان التحقيق يدور مع هؤلاء الأبرياء أياماً، ثم يطلق سراحهم.

وكان القائمون بالتحقيق يبعون زوراً وبهتاناً أن فلاناً عد [أقر]، وعلاناً قد أنفسي السر، ليحملوا الآخرين على الاعترافه وليوقعوا بين المقيوض عليهم ويوعروا الصدور فتجري الألسنة بالحقيقة.

وأم يكفهم هذا فجعلوا التحديق إحدى وسائلهم، فكانوا يجلدون المعتقلين، ويسمون لهم الشوك بين الظفر واللحم، ويقطعون غير ذلك.

(٥٢) نشرت في جريدة البلاغ في ١٨ نوفمبر سنة ١٩٤٤، (ص ٣).

وكانوا كثيراً ما يعذبون المقبوض عليهم وعلى مرأى ومسمع من السيد شكرى، ليرى ما سيحل به إذا لج في الإنكار. وأبى إلا الكتمان، فاشفق السيد شكرى أن يضعف إذا أصابه مثل هذا التعذيب المنكر، وخشى إذا حاق به شيء من هذا أن نخسه الإرادة، فإن الطاقة البشرية مصبودة، والمراء يصير ويتشدد على الألم، ولكن لا إلى غير نهاية، فاعتزم أمراً، وتوكل على الله.

وكان كثير التعبد أمام المراس، فكان الحراس يكبرونه ويوقرونه فقال لأحدهم يوماً، إن هذا السجن قد طال، وطال شعر بدنك، وفيه حاجة إلى موسى الصلابة فإن النظافة من الإيمان فغاب الحارس ساعة ثم جاء بالموسى فى الخبز، فإن تزويد السجناء بعثل هذه الآلات محظور فكيف إذا حملها الحارس نفسه إلى السجنين

وأوصد السيد شكرى الباب وبعد إلى رسفه فقطع بالشفرة شرياناً فيه فتدفق الدم وكان قد أعد ورقة وعوداً من القش، فجعل يفسس العود فى الدم ويكتب فى الصحيفة، وقد أنحى فى هذه الرقعة على الظلم والظالمين وأعنهم واستنزل عليهم غضب الله والملائكة والناس أجمعين

وأتى عليه الغزف فضعف فالتطح على الفراش، وترك يده مدلاة يسيل منها الدم حتى بلغ الباب وخرج من تحته.

واتفق فى ذلك أن كان الدكتور قدرى بك ماراً فرأى الدم، وكان أحد المقبوض عليهم، وهو طبيب والأطباء غير كثير، فالحاجة إليهم شديدة، فهو لا يزال يستعان [به] داخل المعتقل، وكان قد قيل له كتباً أن السيد شكرى وقى به، أو أقر عليه، فسخط وتهم، فلما رأى الدم، حدث نفسه أن السيد شكرى لا بد أن يكون قد أدركه الندم، وأناب إلى الله وتشفع إليه تعالى بيمينه فانتحر.

وقال لنفسه حسناً صنع، ومضى فى طريقه، ولكنه ما لبث أن وقف متردداً وقال إن هذا الرجل قد كفر عن ذنبه [بتوبته] وبما حاول من الانتحار، والتوبة تغسل الذنب وتمحو الخطيئة وعلى الله لا على الناس، حساب المسمى، ثم من يبرى، فقد يكون الرجل

مظلوماً، لعله ما اعترف ولا أقر بشيء. وعسى أن يكون ما بلفظي عنه مزوراً ملفقاً وهو برىء العهد أنراهم كانوا يتركوتنى على قيد الحياة [ـ] وكر راجعاً إلى الباب، وأهوى عليه مكتفه فحطمه ويدخل على السيد شكرى، فإذا هو فى غيبوبة من كثرة النزف، فعصب له يده عصياً قوياً ليرقى العرق وينقطع الدم، وجعله مستحيماً بالحراس، فذهبوا به إلى مستشفى فظل فيه حتى أقبل إلى البرء، ورجعت إليه قوته على الأيام

وأثار الكتاب الذى كتبه بدمه ضجة عظيمة، فإنه كتاب رجل مشف على الموت، وتلك ساعة لا يهون فيها الكذب والتضليل، وكيف يكذب وهو يوشك بعد ثوان أن يلقى ربه، والدم، بدلاً من الدماء، شئ مروع، فكان لهذا كله أثره ونجا من القتل غير واحد بفضل،

وإنما أقدم السيد شكرى على هذه التضحية الكبرى إشفافاً من عواقب الضعف الإنسانى، فأنز أن يموت هو وينجو غيره.

وهذا خير صحيح لا يرتقى إليه شك، يريك من أى معدن صيغ السيد شكرى القوتلى، فهو يتقلد اليوم منصب الرئاسة فى الجمهورية السورية بفضائله وحقه، والسوريون جميعاً يعرفون له هذه المزية ويقولون له بها، وقد يحتفلون على غيره ولكنهم لا يختلفون فيه، وإجماعهم على توقيره واللقبة به تام، فما أحصوه بشيء فى حياته كلها، فظل رجل سوريا الذى تتطلع إليه الأنصار فى كل حادث، وظل هو الرجل الذى لا يطمع فى شئ، ولا يشتهى شيئاً، ولا يطلب هذه الدنيا وجاهها، حتى حملوه حملاً إلى دار الرئاسة وهو فضلاً عن تلك يقرأ ويدرس، ولا يترك عقله يصدأ، ولا يغتر بمناصب، ولا يرى أنه زاد به شيئاً، أو أنه صار وفقاً عليه

وقد سئل السيد سعد الله الجابرى عن استقالته من الوزارة ما سببها، فكان جوابه: "وهل مناصب الحكم وفقاً علينا؟ إنها للامة لا لنا"، وخطب السيد فارس الخورى، بعد توليه الوزارة، فى أمر، فقال: "إنما نحن هنا على حين فقط" وهكذا يقول السيد شكرى القوتلى ورجال سوريا جميعاً، بآرك الله فيهم.

(١٨)

فى مهرجان المعرى^(١٢)

أظن أن القراء ينتظرون منى كلمة فى صحافة الشام فقلما يراها المصريون من غير إدارات الصحف أو عند من يتلقونها بالبريد

ولول ما ينبغي أن يكون المصريون منه على بينة ووفين، هو أن صحافة الشام ليست تون صحافة مصر، فى الجوهر، وإن فرق ما بينهما لا يعدو المظهر

والقراء فى الشام أقل منهم فى مصر لا لأن الأمية هناك أشيع، فإن الأمر على نقيض ذلك، بل لأن عدة النفوس أصغر، والمواصلات أبطأ، والأبعاد بين البلدان أطول، وقد جاءت الحرب بمصاعب أخرى شتى، فالورق قليل، والغلاء شديد، والتليفون لا يصعب، والسيارات لا تغلظ بالكفاية من العجلات الصالحة، والسكة الحديدية سلحفاة فلا غناء لها، وتكاليف إخراج الصحيفة غير يسيرة، وعلى الرغم من ذلك كله احتفظت الصحافة فى سوريا بمستواها، واجتذبت إليها طائفة صالحة من صفوف الشبان المثقفين

ولم أر أنشط ولا أشد إخلاصاً من الصحفيين السوريين لعملهم، فهم ينتشرون فى الأرض، ويظهرون فى كل مكان، ويستقون كل خبر، ويحيكون بكل دقيق وجليل من

(١٢) نشرت فى "الإلاخ" فى ٢٦ نوفمبر ١٩٤٤ (٢٠س)

الأمور، ويقفون على كل حافية، ولا تدعو عليهم مع ذلك عجلة، حتى ليخيل إليك إذ تراهم أنهم لا يزالون عملاً وإنما يزجون قراعاً.

وقد طفت بإدارات الصحف في دمشق لا لأن هذا ما تقتضيه الزمالة، بل لأن فيها إخواني وأصدقائي، فكان يدهشني أن أرى المكاتب خالية، ولا يكاد بعضهم يدخل حتى ينكفئ خارجاً فحطت اتصال في سرى.

آلين إذن المحررون والمخبرون والمترجمون؟ ومن ترى يتولى ترتيب المواد المختلفة، والإشراف على الطبع وما إلى ذلك؟

وقد تبين بعد ذلك أن الأمر في هذا الفراغ الذي تمجيت له هو أن الحركة دائمة، والسرعة عظيمة، فالجلوس إلى المكاتب قليل، وكل امرئ يؤدي عمله ويدفع به إلى صاحب الجريدة أو الموكل بالإشراف، أو إلى المطبعة ريثما يؤوب الغائب، ثم يطلق خارجاً عسى أن يقع على جديد أو مفيد.

ولقطة الورق وضيق الصحف وصغرها اقتصررت على الجهد، وأغلقت ما يراد به التسلية وتركت ذلك للمجلات والصحف الأسبوعية والسوريون على العموم أميل إلى الجهد في صحافتهم وأشد عناية باللغة والأسلوب، والقراء ينتظرون من الصحافة اليومية على الخصوص أن تقيدهم لا أن تسليهم.

وقد تكون اللغة العربية في مصر أرقى، وأساليب الكتابة أجود، وأحسب أن السوريين لا ينكرون على مصر هذا السبق والتقدم، ولكن الروح العربية هناك أعمق وأعم وأشمل، وما من سورى، متعلم أو أمي، إلا وهو يعد نفسه معرّفاً في العروبة، فلا فينيقية ولا فرعونية، ولا خيرة بين أصول شتى، متقاربة أو متباعدة، وإنما هي العروبة صرفاً.

وأسماء الصحف نفسها تشهد بذلك وتطنه بقوى لسان وأعلى بيان، ومن هذه الأسماء "آل فباء" و"فتى العرب" و"القبس" و"الوعي القومي" وما يجري هذا المجرى، وليس في سورية من يستغرب أو ينكر اسماً من هذه الأسماء، أو يصر أنها ثقيلة على

اللسان حتى باعة الصحف ينادون بها ككثتها أحلى الأسماء وأخف الكلمات وأعنيها
والأمر في مصر على نقىض هذا، فإن اختيار اسم سهل الدوران على اللسان من
أشقى المتعلمات المصنعات التي يعانيتها من يهم بإصدار صحيفة ما يومية أو أسبوعية أو
شهرية، والمصري يعنى عند اختيار الاسم، بسرعة ذمومه وخفته على ألسان البائع حين
يرفع به عقيرته ويدهوره في شقيقه، وأنكر أن محطة (ريدز دايجست) حين أرادت أن
تصدر طبعة عربية في مصر رأته أن تعقد مسابقة كلفتها مائلاً وجهداً للاهتمام إلى
الاسم الموافق فكان المختار

ومن الخطأ أن يتوهم أحد أن المسئلة مسألة نوق، وأن النوق الشامى عبر النوق
المصري، هالذى يتقبله هذا لا يتقبله ذاك ولا يقف على قلبه، فإن السوريين لا
يستقلون أو يستهجنون اسماً من أسماء الصحف والمجلات المصرية، ولا يرون أنها
مدع أو غير موافقة إلى آخر ذلك، وإنما الأمر مرجعه إلى روح العروبة كما قلت،
فالسورى الذى يريد إصدار صحيفة لا يعنيه إلا أن يكون الاسم عربياً صحيحاً
مقبولاً، يؤدى المعنى المنشود ويحرك النفس لما يريد، وقد يؤثر التواضع والتطامن
فيسمى جريته (القبس) أو (الفاء) أو يرى أن يجهر بقايته ولا يخاف بها فيطلق
عليها اسم (فتى العرب) أو (الوعى القومي) - وهي صحيفة اللانقية - وهم في
الحالين المعنى العربى وباله إليه لا يحوله عنه.

وتلك مزية للشام لا تستغرب، فقد كانت وما زالت موئل العروبة وأبنائها هم الذين
يرجع إليهم الفضل في إرخار نيار الحركة العربية في هذا القرن، أما مصر فإنها على
أصالتها في العروبة، لا تعد بالقياس إلى سورية إلا إحدى الروافد، وإن كان لا شك
أنه رافد عظيم غمر الماء جم الحدود.

(١٩)

فى مهرجان المعرى^(٥٤)

أقيمت حفلتا المهرجان الأولى والثانية فى قاعة المحاضرات بالجامعة السورية.

وأكرر ظنى أن من القراء من يضحكون الآن، إذ يقرأون هذا، ويقولون إن المارنى قد عاد فبدأ من البدايه، فإذا كان كل يضع عشر مقالات سيكتفى منا راجعاً إلى الفائحة، فمتى يا ترى نرجو أن نختم هذا الحديث؟

وأنا أكره أن يزعم القارئ شىء، ولها أبادر فقطمئنه، فما ذكرت الحفلتين الأوليين إلا لأذكر القاعة، وحتى القاعة ليست متقفاي، وإن كانت رحيمة وطويلة عريضة، ومصدرها مُطلى بأعلام الأمم العربية جميعاً، ولكن هذا الصدر كان إلى ظهورنا على المصصة، فكنا لا نراه إلا إذا لوينا أعناقنا لياً شديداً

وكانت القاعة غاصة بالرجال، ومجهزة بما يحمل صوت المتكلم، ولو كان حفيظاً كصوتى، إلى آخر من فيها، بل يجعله يجلس كالرعد، وإذا كان معدته قوياً كصوات فخامة السيد القوطى، أو السيد عارف النكدي أو السيد شفيق جبرى الشاعر، وهذه لا حاجة بها إلى معين فإنها تسمع الصم.

وللقاعة شرفات ثلاث ممتدة على الجوانب الثلاثة - من فوق - كانت هى أيضاً، غاصة، ولكن بقليل زهرات دمشق، وكن جميعاً "يجلسن" سافرات لا يرجعن ضعفتا،

(٥٤) نشرت فى "البلاد"، فى ٢٢ نوفمبر ١٩٤٤ (ص ٢)

ولا يترفقن بطيننا الواهي الجزع، على أن قلبي مات من زمان فلا خوف عليه أن
يصاب بسهم من هذه العيون التي لا أمان لها، فكنت أغافل جيرانتي وأصعد طرفي
وأختلس النظرات من حين إلى حين، ولم يكن هذا مني من قبيل العبث أو على سبيل
الشيطنة وإنما كان لأني أفكر وأتمجيب.

وملت على جار لي وقلت مازحاً "هل نساء الشام سميات؟"

فجاهد أن يخفض صوته وهو يقول هامساً، ويوده لو تسنى له أن يصيح.
"العمى! ألا تراهن؟"

فلم أرحمه وسألت: "إذن لماذا يتحجب؟"

فرماني بنظرة ولم يجب.

وأشرت عيني في مقاعد الرجال - تحت - وعبت إليه أغمره قابتسم، وهو يلتفت
إليّ ويسأل: "هل ركبك عرفت؟"

قلت "لا تخف عليّ، بل خف على نفسك! انظر! وأومات بصمعي إلى آخر الصف
الأول الذي يواجهنا ونحن جلوس على المنصة.

فنظر، وهز رأسه وأدار إليّ وجهه وسأل "ماذا؟".

فكانت هذه فرصة أثّر فيها لنفسى، فصمت به "العمى! ألا ترى الأتسة فك
طرزى جالسة بين الرجال؟"

فزى ما بين عيني، وزام، فانصرفت عنه بعد ذلك، إلى ما يدور في نفسى

والأتسة فك طرزى أنبية صنيقة لي، عزيزة عليّ، وأقد لقيت من كرمها وعطفها
ومروعتها ما يعيننى شكره، ولتعبتها حتى خيل لي أنى أزهدت روحها، ولكنها ظلت

غير واضحة في الأصل (المحرر)

على عهدي بها من الوفاء وصديق المودة، وكانت جلستها هذه بين الرجال في مهرجان المعري، دون بات جسما، مظهراً يققاً العين ثورتها على الحجاب، وقد كنا في رحلتنا الطويلة إلى شمالي «موريا نخوض في كل موضوع ولكنا كنا نؤور ونلف ثم نكر إلى حديثها أو حديث الحجاب والسفور في الحقيقة، فكان الأستاذ الشيخ المغربي يقول إنه لا ينكر السفور أو ينهاه، على أن يكون شرعاً، ولكن ينكر أن تخرج المرأة وحدها وأن تجالس الرجال.

فأقول له «ولماذا؟ ماذا تخشى عليها؟ إن فضيلة المرأة المحجوبة المسجينة في بيتها التي لا تخرج إلا في حراسة الزوج أو الأخ أو الابن، هي فضيلة الجدران الأريمة، وأحلو بها أن تفقد القدرة على المقاومة والكفاح لأنها استغنت عنهما بما يحميها من غير ذات نفسها، فلم تتعوبهما»

وضريت له مثلاً فقلت: إسي كنت في حادثتي، لجهنم، أخاف السرد، فلا أزال أستكثر من الثياب، وكنت أأف على رأسي قوطة كبيرة عند النوم فكان الزكام كثيراً ما يصيبني ويعبني، فاستشرت طبيباً حلقاً، فلما رأى كثرة ما علي بدني من الثياب، وكان الوقت صيفاً، قال إن هذه هي العلة، فإن ثيابك هي التي تقاوم البرد دون جسمك، فأقل تعرض للهواء يسقمك لأن جسمك لم يتعود المقاومة، فينبغي أن تعود ذلك، والصيف هو فرصتك، فخفف ثيابك شيئاً فشيئاً ونم عارياً إلا من غطاء رقيق وأبعد النوافذ في البداية ثم افتحها قليلاً قليلاً حتى تألف ذلك، فصدرت عن رأيه فلما جاء الشتاء ألفتني قد استقنيت عن المعطف وعن الأريمة الصوفية أيضاً، وأنا الآن أسن مما كنت وأضعف، وإن كيانتي لركيك جداً، ولكن الشتاء أحب الفصول إلي، وأنا أقوى على احتماله من الضخام الأبدان، لأني عوبت جسمي المقاومة ولم أكلها إلى الملابس، ولم أعول عليها في ذلك. وهذا مثال المرأة المحجوبة، والمرأة السافرة، فالأولى لا قدرة لها على المقاومة إذا لاحتاجت إليها لأن غيرها يتولاها عنها - وأعتى بخيرها جدران البيت والرجال الذين يحمونها - أما السافرة فقد نزلت إلى الميدان وبرزت إلى الرجال فهي خفيفة أن تكتسب على الأيام القدرة على المقاومة، وأن تستفيد حصانة

ذاتية نفسها عن وقاية الجبران وحماية الرجال.

وكان الأستاذ سامط بك الحصري مصفى إلى حوارنا هذا ونص في السيارة، ويشارك فيه، فقال الأستاذ الشيخ المغربي "هل أنت سفوري يا أستاذ؟"

قال الأستاذ: "نعم، في حدود الضرع"

قال سامط بك: "وهل يذاك سافرات؟"

قال الأستاذ: "لا".

قال سامط بك: "إنني لست سفورياً"

وأكد له أن التسفور لا مهرب منه، وإن من العبث محاولة الوقوف في وجه تياره، وإنه حير للأمة أن تشتبك المرأة في حياتها بنصيبها العادل.

على أني أود أن أقول إن حجاب المرأة السورية لا يمنعها أن تقوم بجهد مشكور في خدمة بلادها، وقد أنشأت السوريات جمعيات شتى لحماية الطفولة ورعاية اليتامى وغير ذلك، ولكن النطاق بطبيعة الحال محدود.

وكانت الجملة الأخيرة للمهرجان في الجامعة السورية أيضاً، فأناب الجنس اللطيف عنه فتاة وقفت تدافع عن المرأة وتنقذ أقوال المعري فيها وكانت فصيحة أبقة وإن لم تكن بأرعة الجمال، وأحسب أن الطبيعة لا تجود بالمزايا بغير حساب، وقد ناصرت "الشرقات" نائبتها مناصرة قوية، فكثرت من التصفيق، ولم يكن الرجال أقل تشجيعاً، فتعجبت الرجال يتقبلون دفاع الفتاة عن جنسها بسدر رحب، ويشجعونها ويثنون عليها، ولا يرون أن يناصروا رجلاً منهم أساء الفن بالمرأة واتهمها في عقلها وبينها وخلقها، أما النساء فيتعصبن، ولا يكتمن عصبيتهن، فهل كن يفطن ذلك لو كن غير حبسيات أو غير شاعرات يكتهن مهضومات الحق معصوبات في المجتمع؟ أما كن خليقات أن يفسحن صدورهن كإفساح الرجال ويتقبلن كل رأى فيهن لهن أو عليهن - يلي، وإن هذه لمزية الحرية، فوثرها المصود.

أبو العلا المعري

كلمة الأستاذ المازني في العيد الألفي^(١)

(١)

ألقى الأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني، وكيل نقابة الصحفيين وممثل النقابة في الاحتفال بذكرى أبي العلاء المعري بدمشق، كلمته عن هذا الشاعر الفيلسوف يوم الخميس الماضي وفيما يلي القسم الأول من هذه الكلمة على أن نتبعه بالقسم الثاني غداً إن شاء الله

* * *

اسمحوا لي - قبل أن أدخل في الموضوع - أن أتوجه بالشكر إلى المجمع العلمي العربي الموقر على تفضله بدعوتي ودعوة نقابة الصحفيين المصرية التي أولتني شرفاً عظيماً بتبجي تمثيلها في هذا المهرجان التاريخي، وكنت لما تلقيت دعوة المجمع الكريمة منذ شهور لا أرى أن الحال تسعف بتليتها، ثم رأى مجلس النقابة أن ينييني عنه ففاجئني مفاجأة سارة فله مني الشكر على ما أعان ويسر، وإعل مما يسركم أن أبلغكم أن رجال الصحافة المصرية مجتمعون اليوم وفي هذه الساعة بنايهم بعصر وأن كلمتي تتلى عليهم الآن، لا لقيمتها بل على سبيل التأكيد لمشاركتهم لكم في الاحتفال بذكرى هذا الشاعر الجليل.

(٥٥) نشرت في 'البلاغ' في ٢- سبتمبر سنة ١٩٤٤ (ص ٢ 1)

والشكر أولاً وآخرًا لحكومة سوريا الشقيقة على ما أظفقتى وخصمتى به من التسهيل والتنازل وما نقلتني لا مصقولة ولا مكلفة، ولولا حسن صنيعها لكان الأرجح أن لا أدرك الاحتفال في حبيبه

وأرى بعد ذلك واجباً أن أصحح خطأ غير مقصود مرجعه إلى آفة لا برة لي منها على ما يظهر، فقد كنت قبل حضوري إلى الأستاذ الجليل محمد كرد علي بك رئيس المجمع الموقر أقول له إن عنوان موضوعي هو آيو العلاء شاعر إنساني والواقع أنني كنت إلى ذلك الوقت حائراً لا أفتدى ولا أدري أية ناحية من آبي العلاء يحسن بي أن أتناولها وراة حيرتني على أن معظم أعلام الألب قد وفدوا على معشوق ليقولوا في المعري، ويقتني أنهم لن يتركوا لي باباً أنخل منه نوكة صغيرة أنقلت منها وكان الوقت قد ضاق والمراجعة الواجبة طويلة، والمشاغل لا هينة ولا قليلة، والمروان آخر ما أكتب وهو على كل حال شيء لا أحسنه، ولقد نخرت كتاباً لي في المطبعة سنة كامله حتى وفقتني الله فاهتديت على اسم له وأصارحك أنني ما تسنى لي أن أكتب كلمتي هذه إلا قبل مقدمي بيوم واحد قلنا لهذا أخشى أن يكون عنوان كلمتي مضللاً أو أسماً على غير مسمى، ولهذا وجب التنبيه وإبراء النعمة، أما الموضوع الذي سأكلوه فلا أدري ماذا أنعموه وكل ما أدريه أنني أحوم فيه وأدور حول آبي العلاء.

* * *

يرجع عهدي بآبي العلاء إلى أيام الطلب والتحصيل أي إلى نحو خمسة وثلاثين عاماً أو تزيد - ولعل الأصح أن أقول إلى بداية أتمام الطلب فما أعرفها تنتهي أو تنتهي الحياة نفسها، وما زالت الدنيا مدرسة لا يتخرج فيها المرء ولكن يخرج منها، وما فتئت أرجع إليه حيناً بعد حين، حتى تقضى من العمر خير شطريه وأطيبيهما، وأطوليهما فيما أخشى، فما يتكافأ شطران من عمر تكافؤ شطري بيت منظوم، ولا يلتزم رننا معنا ما يلتزم شعرلوتنا من الوزن والقافية، فلا تنفك أوزاننا بتغير وتتووع وتتفاوت، ولولا ذلك لضفنا بأنفسنا وسئمنا أن تجرى حياتنا على استواء وعسى أن تكون هذه حجة لي يضجره استواء البحور العربية.

وأنكر أنا كنا في الفرقة النهائية للتعليم الثانوي، وكنا ذات يوم نعرّب أحياناً للمعري في الفخر وما أقل ما كان يفخر فدخل علينا المرحوم عاطف بركات باشا - وكان يومئذ مفتشاً للغة العربية، وكانت فيه صراحة تلتبس بالفتاظة والجفوة وقال اسمعوا، هذا الشعر يصلح للإعراب ككل شعر آخر، ولكنه من أردأ ما قال المعري وسأحدثكم عنه حديثاً وجيزاً أوجهكم به إليه، فإنه شاعر جليل القدر ملى في حياته مذهب بصره فحيل بينه وبين السعي والتصرف وعكف على الدرس لا يشغله عنه شاغل وبوفر على ما كان في زمانه من علوم وأداب وفنون، حتى الرياضيات والموسيقى والفلك، فلم يكد يفوته شيء، وإزم بينه وسمي نفسه رهين المحبسين محبس الدار التي لا يفارقها، والعمى الذي لا يفارقه، وراح يتفكر ويتدبر، ويملى ما ينور في خاطره ويضطرب به فؤاده، فله شأن عير شأن من سبقوه وتلاه من الشعراء الذين يتكسبون بالشعر وينخدونه أداء للرزق، وقد جارى عبره قبلاً في البداية ثم كف وأقصر، وستحتاجون وأنتم تقرأونه إلى المعجم فإن الشيخ كان يتكلف الإعراب على أن المعجم لا عنى عنه لقارئ الأدب العربي ومستجدون أبا العلاء فيما عدا ذلك أصفى من الجدول الرقاق

فكان أن اقتنيت سقط الزند والزمميات وعكفت عليهما وما أظن به إلا أنه قوي في نفسي ملى في أيام الشباب إلى التشاؤم وأعداني مخطايره السود ولكنه علمني أن أنظر بعيني، وأفكر بعقلي، وصدني عن التقليد والمحاكاة، وجبب إليّ الحبر والرحمة والإنصاف ويغض إليّ الظلم والبغى، وإن كان لم يهديني، وله العذر فما كان امتدني حتى يهتدي سواء

ولم يتغير رأيي فيه بعد أن زنت خبرة بالمياة وتجربة للعنينا وإطلاعا على الألب، مما زال عندي في المحل الأول بين الشعراء، وإن كان لا يعجبني ينس من الخير والصلاح، وعرفه عن الدنيا ونكوصه عن الضرب في رحمة الحياة، ولكني أفهم نواحي ذلك وأعذره، ولا شك في أن الزهد والاعتزال يتنافيان الطباع حتى في العيوان، ولكنه لم يكن زاهداً، وإنما كان يترهد ويشيح بوجهه عامداً، ويروض نفسه على الحرمان أو

كما يقول اليميني فيه: 'روض نفسه وقنعها على الكفاف فعدا شماسها انقياداً، وألقت إليه مقادراً، ولا بد أن تطلع نفسه وفيه بقية من حب الدنيا، وليس هذا بصحيح كل الصحة أعني أن نفسه لم تلق إليه مقادراً ولم يعد شماسها انقياداً كما سنرى

وقد عرف عنه أنه في صباه كان يلهو ويعبث ويلعب الشطرنج والنرد وهو القائل بعد أن تقضى الشباب^(٥٦):

ألم تربي حميتُ بناتِ صدرى	فصبا روجتُهنَّ وقد عساه
ولا أبروتُهنَّ إلسى أنيسى	إذا سورَ الوحوشِ به أُنيسه
وقال الفارسون حليفُ زهدٍ	وأحطأتِ الظُّنونُ بما فرسه
ورُصتُ صعبابُ أمالي فكانت	حَيولاً في مراتعها ضمه
ولم أعرض عس اللذات إلا	لأنَّ حيلارها عنى عنسه
ولم أر فى جلاص الناس خيراً	فمن لى بالنوافر إن كنته

فهو كما ترون يخطئ أهل القراسة الذين يزعمونه حليف زهد ويقول إنه راض صعباب أماله فظلت كالفرس الشمويس الذى يمنع الراكب ظهره، وما أعرض عن اللذات إلا لأن حيلارها تقوته، وهو يشتهي أن يقس بالناس ولكنهم كالنظباء النافرة التى تدخل كتابها، وكان واسع المطامع فقاته أن يكون بحيث يحب فتقر وأثر العزلة وقد صاح مرة^(٥٧):

أيايتى نبيّ يجعلُ الحمر طليقةً فتحمل ثِقلاً من هُمومى وأحزاسى

(٥٦) من النوافر ويسى بالنافرسون أهل القراسة (المحرر)

(٥٧) من الطويل (المحرر)

ثم اثر الاحتشام والتجمل وكره نفسه أن يسكر ويحف عقله فقال.

رهيات لو حلت لما كتبُ شارباً مُحَفَّفَةً هِيَ الخلم كَفَّةٌ مبراسي
وهو كثير التحديث لنفسه بالحمز، يأسف مرة على حرمانها فيقول^(٥٨).

عَنَيْتُ أَنْ الخمر حَلَّتْ لَشَوْءٍ تُجْهَلُنِي كيف اطمأنت بي الحال
وتارة يكرر بغير داع أنها لو كانت حلالاً لما شربها فيقول^(٥٩).

لو كانت الخمر حلالاً ما سمعتُ بها لعمسى الدهر لا سرّاً ولا علناً
فليحفر الله، كم نظمى مآربنا ورباً قد أحلَّ الطيبات لنا

وهو في "رسالة الغفران" يصف مجالس الخمر والمنازمة عليها ويقول إباحة اذنة
الشرب هما يعرض لهم من السكر، ولولا ذلك لكان غيرها أعذب، وهو القائل أيضاً^(٦٠).

ولولا أنهبها بالقلب تُزرى لَكْتُ أَحبا الندامة والنديم
وقال في نعمها والتحذير منها^(٦١).

البابليةُ بابٌ كُلُّ بليّةٍ فسوقيسُ هُجُومُ ذاك الباب
حرّتْ ملاحاةُ الصديق وهجره وأذى الديقم وفُرقةُ الأحباب
أُمُ الحبيب . وإن أُميتَ لهيبُها يمزاجها واهت كأم حباب
هتكت حجابُ الحَصَصات وجثمت مَهَنُ العبيد تهضمُ الأرباب
وتوهمُ الشيب المدالف أنهم لبسوا على كبر يرود شباب
وإذا تأملت الحوادث ألعيت صُهَيّ الدنان أعادى الألياب

(٥٨) من الطويل، (المحرد).

(٥٩) من السسط، (المحرد).

(٦٠) من الزاهر، (المحرد).

(٦١) من الكامل، (المحرد).

وقال أيضاً في هذا المعنى^(٦٣)

هي الراحُ أملاً لطول الهجاء وإن حصَّها معشرُ بالمدح
فلا تُعجبك عروسُ الأدام ولا يُطربك مُعسرُ مدح
ومن يفتقدُ لُبَّه ماعةً فقد بات فيها يحطبُ قدح
فبيحٌ مِن عدِّ بعضِ السعار تعريقُه نفسه في قدح

قال في الدنيا [التي] عالج الانصراف عنها^(٦٤)

أيها الدنيا حاك الله من رتبة دل
مسا تسلي خلدي عب لك وإن ظن السلي

وقال أيضاً^(٦٥)

طال مبري فقيل أكثمُ شيعا ن وإني أنظموا طيان
أي جائع متمم الجوع، وقال يصف مجاهدته نفسه^(٦٥)
فَهَجَنِي حَدُّ يَحَارِي أنا مَنِي كَيْفَ أَحْمَرِي؟

وقال^(٦٦)

حيستك ألفار ذوتك عن المأسى قمضى الصحابُ وأنت ثاور حابسُ

(٦٣) من المقارب (المحرر).

(٦٤) من مجروء الرمل (المحرر).

(٦٥) من الخفيف (المحرر).

(٦٥) من تلحيد (المحرر).

(٦٦) من الكامل (المحرر).

وقال (٦٧)

وما يترك الإنسان دنياه راحياً بعز ولكن مستظماً على قمر

وقال (٦٨)

والعر في الشروة، والعيش في ال حيرة، والحرفة في المعيرة

وقال (٦٩)

تأرعى إلى الشهوات نفسى فلا أنا منجح أبداً ولا هي

وقال (٧٠)

أريدُ لَبانَ العيش في دار شقوةٍ وتأبى اللبالي عبر بحلٍ والبان

ويُعجنى ثَبانَ خمضٍ وصحةٍ ولكن ريب الدهر غير شئاني

وما جبل الريان عدى بطائرٍ ولا أنا من حود الحساك بريان

وفي رسالة الغفران يجعل ابن القارح يلتقي بأشتين من الحور من الضرب الذي نقله الله من الدار العاجلة لما عمل من الأعمال الصالحة، فيقبل على كل واحدة منهما يترشف رضابها فيهيجه ذلك إلى ما به ويصيح: **إِنْ أَمَرْتُ الْقَيْسَ لِمَسْكِينٍ، مَسْكِينٍ، تَحْتَرِقُ عِظَامُهُ فِي السَّمِيرِ وَأَنَا أَتَمَلُّ بِقَوْلِهِ (٧١).**

كَأَنَّ الْمُدَامَ وَصُوبَ الْقَمَامِ وَرِيحَ الْخَرَامِ وَصُوبَ الْقَطْرِ

يَعْمَلُ بِهِ يَرْدُ أَسْبَاحِهَا إِذَا غَرَدَ الطَّائِرُ الْمُسْتَحِرُّ

إِذَا غَرَدَ الطَّائِرُ الْمُسْتَحِرُّ إِذَا غَرَدَ الطَّائِرُ الْمُسْتَحِرُّ

(٦٧) من الطويل (المحرر).

(٦٨) من السريع (المحرر).

(٦٩) من الزاخر (المحرر).

(٧٠) من الطويل (المحرر).

(٧١) من المختار (المحرر).

ولا يزال المعرّي في هذه الرسالة يلتفت إلى مواضع معينة في جسد المرأة ولا يخلو من هذا من دلالة، وفي الفصول والفتايات تقرأ له كثيراً من أسئلة هذه الكلمات.

يَا أرض، لا قرض عندك ولا قرض، توبعت المال مرددته سائلاً، والحليل واكلكه راعماً، ليتك أكلت المال وردت الخليله إنما لنا كرجل [على] الصدى (العش) لا يجد ورداً ولا مورداً، فهو ظمان أسناً (أي لا يجد نصيبه من الماء ولا موضعاً يرده فيطفي ظمأه)

وإن الله خلقني لأمر حلوات سواء ففلقنت المبهمة بغير انفراج، وفطام ابن العامين أيسر من فطام ابن الأعوام، وأعياء تلقيب الهرم على الألباء، وقد صرعت نفسي في الشبيبة فالفيتها صاحبه جماع، فالآن وقد اسمكت الظلال (قصرت) إن تركتها أسعت، وإن زجرتها علا انرجار. كن كلامي صغير الريح (ما تكتمه من الورق) ما لها إليه التفات، وقد سنعت الحياة، وأخاف أن [تقبل] فأتقم على ما حزن وساء، وأنا أفعلت الحرم، ملت عن الجند و[مشيت] في الخمار، وقد خلصت من الحباله فكيف عدت، وعلى علم وضعت القدم في النار، أكلت يا نفس، وإك الطلق، لقد ضيعت آخرتك وبهايك، ما وفق رجل نفس الله وخشى الناس، أسعى للنفس فيما تكره كثر لها غاش، أنا وهي شيء لا يمتاز، تتراد الملامه كأننا اثنان، تلك محاربة في حور، إن جنت على أو جيت كيف يقع القصاهر؟ أفنيت الشبيبة سوى مصاد قد أن له أن [يبدل] سبباً، إلخ.

ولا داعي للإكتار من الشواهد، فإن أبا العلاء إنسان وليس بإنسان من لا يشتهي الحياة الرضية والمتعة المرضية والسلامة من اليأس والضراء، وإن أبا العلاء لإنسان عريق في الإنسانية، يحب الحياة كما نحبها جميعاً، ويفرعه المصير الذي لا معدى عنه ولا مهرب منه، تكمل قوله (٧٦).

وكلكم يُبْدى لندياه بعضه على أنه يُحْفى بها كمد الصب

وقوله (٧٣).

نفسى الفراء فتخطاه وتحرمة
لو أن عشقك للذنبى له شبح
وكل قلب على حب النفس جبال
أهديته للأمت السهل والجبال

وقوله (٧٤).

أشربت حوك لا ينهيه عن جسدى
مسوى ترى لدماء الإنسان شراب
وقوله (٧٥).

وصدقت هذا العيش فى حنى له
واعترنى يخداعه وكذابه
وقوله (٧٦).

شقىا بديانا على طول ودها
قدونك مارسها حياتك واشقها
ولا تظهرن الرهد فيها فكلنا
شهيد بأن القلب يضمر عشقها
وقوله فى "القصوى والغايات".

آيها الدنيا البالية، ما أحسن ما حلتك الحالية، أين أعمك الخالية، إن نورك
المتوالية، والنفس منك غير صالية، كسبت الدوائف فقلبتها، وأعطيت الدوائف فتعلبتها،
ما خلوت من الجرائم ولا خليتها، قلقتى ننيائى فما قلقتها، اكنلتها فما اكنلتها
(راقبتها فما أصبت شيئا)، أسب نفسى وتمسيتى، وأريد الخير لا يحسنى أحب الدنيا
كنها تمسيتى، والحرمن يوضعنى ويخبئى والغريزة عن الرشد تدبى، ويوحى كل
الويع. أحب الدنيا وأتتها ليمت فى، وقد يمت من بلوغها، واليانس مريح، فالأم
التشوف إلى الضلال.

إبراهيم عبد القادر المازنى

(٧٣) من البسيط (المحرر).

(٧٤) من البسيط (المحرر).

(٧٥) من الكامل (المحرر).

(٧٦) من الطويل (المحرر).

أبو العلا المعري

كلمة الأستاذ المازني في العيد الألفي^(٧٧)

(٢)

ننشر فيما يلي القسم الثاني من كلمة الأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني، وكيل نقابة الصحفيين في الاحتفال بالعيد الألفي لأبي العلا المعري، وسنشر غداً القسم الثالث.

* * *

ومن قوط حيه الحياة وبطقه بها وحرصه عليها وأسفه على ما فاتته فيها وحرمه، كان جزعه من الموت، واستهواله له، وطول تفكيره فيه وفيما يليه، وحيرته بين الجبر والاختيار وشكه في كل شيء، إلا أن الموت حق ومصير محتوم.

إذا ما تباشر أهل القلām به فالتباشرُ معنى هلك
ألم تَرَيَا أن سلك الرَمَلان أفنى السُلُوك وأفنى السُلُوك^(٧٨)

يُمِرُّ الحَوْلُ بعد الحَوْلِ عَنِّي وتلك مصارعُ الأقوامِ حولي
كَأَنِّي بِالْأَلَى حَفَرُوا لِحَارِي وَقَدْ أَخَذُوا الْمُحَاغِرَ وَاتَّحُوا لِي^(٧٩)

(٧٧) البلاغ ١ أكتوبر سنة ١٩٤٤ (ص ٣ - ٤).

(٧٨) من 'التقارب' (الحزب).

(٧٩) من 'لواقر' (الحزب).

سِئَالُ نَاسٍ مَا تُرِيضُ وَمَكَّةُ كَمَا قَالَ نَاسٌ مَا جَدِيسٌ وَمَا طَسَمُ
أَرَى الْوَقْتَ يُغْنِي أَنْفُسًا بِغَنَائِهِ وَيَمَحُو قَمَا يَبْقَى الْحَدِيثُ وَلَا الرُّسَمُ (٨٠)

تَبْكِي عَلَى الْمَيِّتِ الْجَدِيدِ لِأَنَّهُ حَدِيثٌ وَيَسَى مَيْتَكَ لِلتُّنْقَادِ (٨١)

لَوْ كُنَّا نَنْطِقُ مَيِّتٌ لَسَأَلْتُهُ مَاذَا أَحْسَنُ وَمَا رَأَى لَنَا قَلَمُ (٨٢)

إِذَا الْخَطِيُّ أَلْبَسَ أَكْثَمَ مَعَانِهِ فَتَقَسَّدَ فَنَى الْخُبْسُ وَاللَّابِسُ
وَيَبْلِي الْمُحْيَا فَلَا ضَاحِكُ إِذَا تَسَرَّ دَهْرٌ وَلَا عَابِسُ
وَيَحْبِسُ فِي حَدَثٍ ضَبِيقُ وَلَيْسَ بِمُطْلِقِهِ الْخَابِسُ
فَسَمَا هُوَ فِي سَلَفٍ سَابِقُ وَلَا هُوَ فِي حَدَثٍ قَابِسُ
يُجَاوِزُ قَوْمًا أَجَادُوا الْعِظَاتِ وَمَا فِصْلُهُمْ أَحَدٌ نَابِسُ (٨٣)

أَسْمَا الْيَسْقِينَ فَمَا لَا يَفْقِنُ وَإِنَّمَا أَكْثَى اجْتِهَادِي أَنْ أَطْنُ وَأُحْدَسُ (٨٤)

(٨٠) من الطويل (المحذر).

(٨١) من الطويل (المحذر).

(٨٢) من الكامل (المحذر).

(٨٣) من المتقارب (المحذر).

(٨٤) من الكامل (المحذر).

ومدّ وقضى مثلُ القصرِ غايتهُ وفي الهلاكِ تساوى الدُّرُّ والبردُ^(٨٥)

ففى السوترِ والموتورِ وعند الله علمُ الداهيين

* * *

ولا آخرُ لقوله شعراً ونثراً - فى الموتِ والفناء - حتى الكواكبُ لا منجاة لها من
هذا المصيرِ

يجوزُ أن تظلمَ الشمسُ التى وقدت من عهدِ عادٍ وأذى نارها الملكُ
فإن حبت فى طوالِ الدهرِ حُمُرُها فلا مُحالة من أن ينقضى القلکُ^(٨٦)

رُحِّلَ أشرفُ الكواكبِ داراً من لقاءِ الردى على ميعاد
ولبارِ المریجِ من حدثانِ النخِ لمُطفئٍ وإن علتْ فى اتقاد
والشرى رهبةً بالفتراقِ الشعلِ حتى تُعذَّ فى الأفرادِ^(٨٧)

وقد زعموا الأفلak يدركها الیلى فإن كان حقاً فالتجاسةُ كالطُهرِ^(٨٨)

* * *

(٨٥) من السبیط (المحرر).

(٨٦) من السبیط (المحرر).

(٨٧) من الطیف (المحرر).

(٨٨) من السوط (المحرر).

وما مصير من يفكر على هذا النحو؟ مصيره ولا ريب إلى اليأس، وإلى أن يستوى
عنده الجهل والعدم والهدى والضلال وإلى حيرة مضنمة لا مخرج منها، ولهذا تراه لا يبتك
ينفى ويؤثت ويقول بالرأى ونقيضه

وما فسدت أخلاقنا باختيارنا ولكن بأمر سيئته المقادر^(٨٩)

ومن يظهر بأمر يستقيه فأقصية المهيمن وفقته^(٩٠)

ما باختيارى ميلادى ولا هرمى ولا حياتى فهل لى بعد تخيير^(٩١)

تخييرى الأمر كى تحظى به هيهات ليس على الرمان تخير^(٩٢)

لو ينطق السيف نادى ليس لى عمل إذا قضى مالك الأفلاك أنصاسى

وإن كهنت فأمر الله أكهمنى وإن مضيت فأمر الله أمصانى^(٩٣)

* * *

وهو مغلوب على أمره فى كل شئ

من ومع صاح الفستى ربه فلا يقولن تؤمخت^(٩٤)

(٨٩) من الطويك (المحرر).

(٩٠) من الوافر (المحرر).

(٩١) من البسيط (المحرر).

(٩٢) من الكامل (المحرر).

(٩٣) من البسيط وكهنت وأكهمنى بمعنى جيت وأجيتى (المحرر).

(٩٤) من السريع (المحرر).

مهاسى عقلى عن أمور كثيرة . وطعمى إليها بالعزيمة جاذبى (٩٥)

فضى الله فيا بالدى هو كاشر هتم وهاعت حكمة الحكماء
وهل يابق الإنسان من ملك ربه فيخرج من أرض له وسما (٩٦)

* * *

ولكنه يعود فيقول بالاختيار

تقلدب للآثم يا اختيار	أو انس بالعريد مُقلدات (٩٧)
-----------------------	-----------------------------

تحير فيما وحدة مثل ميتة وإما جليس في الحياة منافق (٩٨)

هما أدب الدهر الذى أنت لاثم ولكن بنو حواء جاوروا وأذهبوا (٩٩)

* * *

ثم يتردد ويضطرب ويختار فيقول

تخالفت الأشياء في عقب الردى وتلك بحار ليس يدرك عبرها
وقيل مومن الساس تسطيع فعلها وقال رجال بل تبس جبرها (١٠٠)

(٩٥) من الطويل (المحرر).

(٩٦) من الطويل (المحرر).

(٩٧) من الواقر (المحرر).

(٩٨) من الطويل (المحرر).

(٩٩) من الطويل (المحرر).

(١٠٠) من الطويل والأشياخ نضى الأشياء والأمثال (المحرر).

أرى شواهد جبر لا أحققه	كأن كلاً إلى ما شاء مجرور ^(١٠١)
------------------------	--

قالت معاشر كل عاجر خرع	ما للخلاق، لا بطة ولا سرع
مديرون فلا عتب إذا خطعوا	على المبيء ولا حمد إذا برعوا
ونقد وجدت لهذا القول في رمي	شواهدا وبها هي دونه الورع ^(١٠٢)

* * *

وهار في الثواب والعقاب، ورأى أن من الظلم العقاب الجبر. ولم يطمئن إلى الجبر، قطع في الغفران، وأمن بالعقل وكفر به:

جاءت أحاديث إن صحت فإن لها شأنا ولكن فيها ضعف إسناد
فشاور العقل واتركه غيره هدرًا فالعقل خير من غير ضمه النابذ^(١٠٣)

والعقل غرس له بالصدق الثمار^(١٠٤)

* * *

ثم يرجع فيقول:

هي الأفهام قد صدقت وكنت ولم يظفر لها أحد بعقل^(١٠٥)

(١٠١) من البسيط (المحرر).

(١٠٢) من البسيط وهي رواية كل عاجر خرع أي ضعيفا (المحرر).

(١٠٣) من البسيط (المحرر).

(١٠٤) من البسيط وشرحه الأول: أنا العقول فلقه الله كتب (المحرر).

(١٠٥) من الوقار (المحرر).

وقد أُعْجِلَ النَّاسُ أَفْكَارَهُمْ	فَلَمْ يُقْتَهُمْ طَوْلُ إِعْمَالِهِمْ ^(١٠٦)
وَبَعْضُهُمْ الْأَقْوَامُ مِثْلَى أَعْمَى	فَهَلِمُوا فِي حَيْدٍ تَصَادِمٍ ^(١٠٧)
قَدْ بَغِضْتُ السَّهَامَ أَيْضَ الْمَقَابِرِ	مَنْ فَلَمْ يُثَبِّتِ الرِّمِيَّةَ بِمَعْنَى ^(١٠٨)
مَأْتُمُومِي فَأَعْرَضْتِي إِحْبَاتِكُمْ	مَنْ ادَّعَى أَنَّهُ دَارٍ فَقَدْ كَذَبَ ^(١٠٩)
إِنَّمَا نَحْنُ فِي ضَلَالٍ وَتَعَلَبٍ	لَوْ فَإِنْ كُنْتَ ذَا يَقِينٍ فَهَاتِهِ ^(١١٠)
أَنَا الْحَقِيقَةُ فَهِيَ أَنْتِي دَاهِبٌ	وَاللَّهُ يَعْلَمُ بِالَّذِي أَنَا لَاقٍ ^(١١١)
أَنَا أَعْمَى فَكَيْفَ أُهْدَى إِلَى لَدُنْكَ	يَهْجُ وَالنَّاسُ كُلُّهُمْ غُمِيانٍ ^(١١٢)
فَهُمُ النَّاسُ كَالْجَهْلُولِ وَمَا يَظُنُّ	غُرًّا إِلَّا بِالْخُسْرَةِ الْعُلَمَاءُ ^(١١٣)

* * *

(١٠٦) من المتقارب (المحرر).

(١٠٧) من العقيق (المحرر).

(١٠٨) من الضيف (المحرر).

(١٠٩) من البسيط (المحرر).

(١١٠) من العقيق (المحرر).

(١١١) من الكلام (المحرر).

(١١٢) من الضيف (المحرر).

(١١٣) من العقيق (المحرر).

وحسبنا هذا القدر من الشواهد وقد قيل إن علة الطل هي عمام، وأن هذه المحنة هي التي حملته على التردد وإيثار العزلة، ورياضة النفس على الكفاف وأن أفنته هذه هي مفتاح شخصيته، فلا مسيل إلى فهم المعنى على حقيقته إلا إذا ردينا كل عمل أو قول له على هذه المسببة التي أصابته في طفولته لغير نذب جناء.

وغير مرئود ولا منكور أن نهاب البصر مسنة، ولا مسيل إلى الشك في أن المكفوف لا يسمه إلا أن يشعر بما حاق به من المكروه وما حرم من المزية، وإلا أن يالم ويأسف ويتحصر ويثلف وإن أظهر الجلد وأبدى التشدد، ولا يمكن أن نخلو خسارة هذه الجارحة النفيسة من أثر عميق في نفس المرء وتلكيره واتجاه عقله ونوع إحساسه بالحياة والناس.

كل هذا مسلم لا خلاف عليه، فمما يستوى أن تكون أو لا تكون للإنسان هذه الجارحة وإلا كان خلقها عبثاً وتزايد لا داعى له، ولكنى لا أرى رأى القائلين برد كل شىء إلى فقدانها، ولا أنها هي مفتاح شخصية المعنى، فليس من الحتم أن يحدث نهاب البصر هذا الأثر، وقد عسى يشار جنيناً ولم ير ضوء النهار وتحصر وتالم ونقم وسخط، ولكنه لا تزهد ولا اعتزل بل تزل إلى المعتكز، وخاص الغمار، وشرب في الزحمة، وكان حيواناً كبيراً، وروى "بيرك" الأريب الإنجليزي المشهور في كتابه "الجيل والجميل" أنه يعرف عالماً أسمى كان استاذاً لعلم الضوء في الجامعة، وهو قد ولد مكفوفاً، وقرأت منذ شهور كتاباً اسمه "العالم تحت أنامل" لكتاب أمريكي حديث اسمه "كارستن ونستاد" ذهب بصره وهو طالب في مدرسة عالية أى بعد أن أمتع البصر نحو عشرين عاماً، قال الفسارة أفدح، والحرمان أوجع، وقد ترجم في هذا الكتاب لحياته ووصف ما كان من أمره بعد هذه المحنة وكيف غالبها فقلها، وهو لا يعتمد إلا على العمى ولا يحتاج إلى من يتخذ بيده ويقوده ولا يرشيه إلا أن يعامله الناس كمن ليس بينه وبينهم فرق، فلا هو أسمى ولا هم بصراء، لونه، ووصف كيف كان يشارك الطلبة في ألعابهم ومغامراتهم حتى اللزقة على الثلج في الجبال.

وعندى أن نهاب البصر لا يورث صاحبه ما زعموه في أمر المعنى إلا إذا اجتمع أمران على الخصوص، حس مرهف دقيق في المكفوف، ومجتمع لا يزال يشعره أنه

مكتفوف كأن يبدى العطف عليه أو يعيره أو يتعجب لما يكون منه مما يعد، مستعصياً أو مستكثراً على مثله، وأحسب أن عامل المجتمع أقوى الاثنين، فإذا تلقى الناس الكفيف على نحو طبيعي وعاملوه كقته مثلهم بلا فرق، ونزوهه عن العطف والتعجب، فإن أثر العمى في نفسه على الرغم من دقة الشعور به، يمكن أن يخف جداً لأن الجماعة تصبح عوناً له وتشجعه على مغالبة رزئه والنظب على قيده وتقيه بسلوكها نحوه من التهوريل بعصابه على نفسه.

ومن المصقق على كل حال أن ذهاب البصر ليس هو الذي حمل المعرى على اعتزال الناس ورفض الحياة، وإيثار الوحدة والعزوبة وكراهة أكل اللحم وبيع الحيوان والطير، ولو شاء المعرى لتولى القضاء في المعرفة أو حمص كما تولاه أبوه أبو محمد عبد الله وعمه أبو بكر محمد وجده سليمان وابن أخيه أبو اليسر، ولو شاء لما حرم نفسه طيبات لما أحل الله، بل لو شاء أن ينهر مع الفواة بدلاتهم ويسيم سرح اللهو مثلهم لفعل، فما حال العمى أو الصمم أو الكساح بين أحد وبين ما يشتهي من ذلك فإذا قيل إنه كان حساساً جداً، وأنه يستنكف ويكره لنفسه أن يراه أحد خفيف العلم أو على حال تزيى به، وأنى شعوره بكرامته كئن بقي له أن مطلب فيمنع ويشتهي فيحرم، قلنا إن هذا ليس من العمى بل من دقة إحساسه الموهف وفراط شعوره بنفسه

ودع هذا واسأل ماذا حرمه العمى؟، إنه شاعر أنيب وعالم متفلسف، وقد عرف له أهل زمانه ومن جاء بعدهم من الأجيال غزارة الفضل ووفرة العلم، وحدة النكا، وسعة الإحاطة باللغة، والحنق بالنحنو وجودة الشعر، والإلمام بكل علم معروف في عصره، وكان تلاميذه يعدون بالمئتين ويزحمون داره ولما مات أتشد على قبره المراثي أربعة وثمانون شاعراً، فهو قد فار في حياته بالنسب الأجل من الشهرة والتوقير ولا يزال إلى يومنا هذا في المحل الأول والأرفع بين شعراء العربية، أما فيما عدا ذلك مما هو من الصياة الخاصة الشخصية فما حرم شيئاً لو كانت الآلة تعوزه فيه كما يقول وإنما حرم هو نفسه وأثر لها العزوف وأبى عليها كل متعة، فالأمر مرجعه إلى إرادته لا إلى عناه

وإذا قلنا إرادته فقد قلنا ما ينزع به إليه مزاجه السوداوى الخاص وما بنى عليه من الطباع، وهذا عندي هو مفتاح شخصيته والذى أورد إليه ما كان من سيرته وقد جاءت عوامل أخرى فقوت استعداد الخاس قد نشأ في بيت علم وفصل وتقوى، وكانت لأسرته مكانة عالية ومزلة ملحوظة في بلدته الصغيرة. وحسبك من شعوره بكرامته وكرامة بيته في هذا البلد ومقامه بين أهلها أنه وهو عائد من بغداد بعث إلى أهل المعرة بكتاب يبينهم فيه أنه اعترم أن يلزم ويعتزل الناس، كما يفعل الحاكم أو القائد حين يقدم على بلدة فيدع كتابه أو "منشوره" يسبقه إليها بيلاغ منه، وكان هو إلى ذلك عالماً ضليحاً وأديباً رفيحاً فاجتمعت له كرامتان: كرامة علمه وأدبه وفضله، وكرامة بيته وآله، وخلق حساماً جدياً حتى لكتما يحس الدنيا بأعصاب عارية لا يسترها لهم ولا يقيها جلد فهي أبداً مكشوفة معرضة للمؤثرات مباشرة، ولهذا كان يخجل أن يرى وهو بكل مخافة أن يرى منه ما يعابه ومثله يحرس على اجتناب ما يعرضه للمهانة أو الزاوية أو السخرية، ومن هنا لجأته في تقص نفسه وقوله إنه كلب لتيم وإنه جاهل وساقط وناقص وإنه أعمى ضال كئتما يريد لفرط شعوره بذاته أن يسبق الناس إلى نومه، ولا يدع لهم ما يقولون فيه أو يعيرونه به، ومثله ينزع إلى العمل والإنصاف، لأن الإنصاف سبيل النجاة والأمن لمن كان يظن فطنه إلى مواطن ضعفه وقصوره ويص بها إحساسه، حتى لقد عرف الذين يفتنه لإنصاف الناس، ولا عجب بعد ذلك أن يكون رقيق القلب رحيمه، وإن كانت رحمته مفرطة حتى ليقشعر بدنه حين يقدمون له [فرجاً] أو يصي له به الطبيب في مرضه ويقول: "استشفوك فوصفوك فهلا وصفوا شبل الأسد؟" وقد ثقلت عليه محنة العصي وشقت جداً لأنها ظلم حاق به بفقر ذنب فظل ثائراً على هذا التلثم كثورته على كل مظاهره الأخرى في الحياة، ولم تكن ملازمته داره واقتصاره على أكل البقول ونفوره من اللحم، إلا ضريراً من التحامل على النفس وتعذيبها لا يستغرب، فإن تعذيب النفس نوع من إثبات القوة فكأنه لما أنس من

نفسه العجز عن أن يكون ذا بأس وصولة بين الناس تحول إلى نفسه وحمل عليها وعالج رياضتها ليتعم بالشعور بالقوة والاعتدال، وكل امرئ يتزع يطعمه إلى تعويض النقص الذي يعرفه أو يحسه أو إحساساً غامضاً، وتلك حقيقة لا تحتاج إلى بيان وأحسب أن مما يجرى هذا المجرى شدة تكلفه في "الزوميات" وإلزامه بنفسه فيها ما لم يلزم أحدًا، وإكثاره من الغريب فيها وفي نشره، وتحريره الحوشي وغير المأثوس من الألفاظ، حتى كتاب "الفصول والفايات" جعله فصولاً عايلته أحرف مرفوعة أو منصوبة أو مجرورة، وذلك كله لإثبات القدرة والرموخ في الطم والاستبحار فيه، بل التفوق والتميز

إبراهيم عيد القادر المازني

أبو العلاء المعري

كلمة الأستاذ المازني في العيد الألفى^(١١٤)

(٣)

ننشر فيما يلي القسم الأخير من الكلمة التي ألقاها الأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني، وكيل نقابة الصحفيين، في الاحتفال بالعيد الألفي للمعري وهو.

* * *

وهنا موضع سؤال لماذا أحب المعري أبا الطيب المتنبي كل هذا الحب؟ وأعجب به وأكبره إلى هذا الحد؟ حتى تعرض للأذى من أجله؟ وألف فيه كتاباً سماه "معجز أحمد"، لقد كان يتعصب له تعصباً عصبياً وليس هو بالذي يخفى عليه أن هناك شعراء آخرين لا يقلون عنه شاعراً، وأن معاني المتنبي ليست كلها مما ابتكر وإن كثيراً منها يوجد في أشعار غيره، ولقد ألف في أبي تمام كتاباً سماه "نكري حبيب" فما هو سر هذا التعصب المفرط؟

عندي أن السر هو شخصية المتنبي لا شاعريته، فقد كان المتنبي يمثل كل ما ينقص المعري، أو ما يحس المعري أنه ينقصه: الجراءة، والإقدام، والثقة بالنفس، والأطمئنان إلى صواب ما يرى، والجزم في الأمور والفصولة التي تخرج المعنى مخرج النمل السائر وتجعل منه عملة متداولة، وعلى الخصوص اليقين الجازم والثقة بالنفس، وانتفاء الحيرة والافتناع بأن فهمه للناس والحياة صحيح لا يرتقى إليه الشك، وكل هذا ينقص المعري، فهو أبداً مضطرب لا يستقر، وحلتر لا يهتدي، لا يطمئن إلى رأى، ولا يتش بصواب ولا يرضى

(١١٤) نشرت في "الإلاخ" في ٢ أكتوبر سنة ١٩٤٤، (ص ٣).

عن نفسه، ولا يحول عينه عما يدركه من قصورها وعيوبها ولا يحس أن في وسعه أن يجترئ ويلقي بنفسه في عباب الحياة ويفرق تياره إلى حيث يتطلع ويرجس أو يراه من حقه.

وأحسب أن كل من قعد يفكر ويتدبر على نحو ما يفعل المعري، لا بد أن يضطرب اضطرابه، ويضل ضلائله، ويقع في مثل حيرته، فإن هذه أمور إشكال لا سبيل إلى الامتداء فيها إلى ما يقنع العقل، وليس المعري يبدع في هذا فإن له لأنداءً كثيراً في الشرق والغرب، وقد كنت منذ أيام أراجع رواية "هملت" لشكسبير الشاعر الإنجليزي، فإذا بي أقرأ لهملت وهو واقف مع حفاري القبور وفي يده جمجمة

"أتظن أن الإسكندر كان هذا منظره في الأرض؟"

فيقول رفيقه هوراشيو: "تماماً".

فيقول هملت: "وكانت له هذه الرائحة؟ أف؟"

هوراشيو: "هو كذلك يا سيدي".

هملت: "إلى أي دراه نصير يا هوراشيو. لماذا لا يتعقب الضيال رفات الإسكندر النبيل حتى نجده يسد ثقب برميل؟.. مثلاً: مات الإسكندر، دفن الإسكندر، عاد الإسكندر تراباً، والتراب من الأرض ومن الأرض يصنع الصلصال، ومن هذا الصلصال الذي تحول إليه ماذا يمنع أن يصنعوا منه ما يسد برميل بيرة؟".

فتكرني هذا قول أبي العلاء

إذا غدتُ بطنَ الأرضِ مُضطجعاً فشمَّ أقبِدْ أوصابي وأمراسي
تسّموا بترابي علّ فعلكم بعدَ الهُمودِ بواقيني بأعراسي
وإنْ جعلتُ بحكمِ الله في خزفٍ بقضي الطهورِ فبقي شاكراً راضي^(١١٥)

(١١٥) من البسيط (المصري)

والبيت الأخير هو الشاهد، وتأمل صيغة عملت بلوقيليا حبيبت:

إلى البير، لماذا تريدني أن تكوني أما لأثنين؟ إنني أنا نفسي رجل شريف إلى حد ما، ومع ذلك أستطيع أن أتهم نفسي بشيء يبدو معها أنه كان خيراً لو لم تلدني أمي، وأنا رجل متكبر جداً وبني من المفريات بالشر فوق ما يحيط به الفكر ويصوره الخيال أو يتسع لارتكابه الزمن، ماذا يصنع أمثالي وهم يحظون بين الأرض والسماء؟ إننا جميعاً أوعاد إشوار، فلا تصدقني فحداً منا.

ثم يقول لها "إذا كان لا بد لك من الزواج فتزويجي مغفلاً، فلن العقلاء يعرفون كيف تملئهم وحرشاً شنيعة، إلى البير، انهض بسرعة.

وما أكثر ما أبدأ للمعري وأعاد في هذه المعلني، وما أشبه رأي عملت في المرأة برأي شاعرنا الذي يعد النساء [فوارس] لفئة وأعلام غي.

وتأمل مناجاة عملت: "تكون لو لا تكون؟ هذه هي المسألة، وهي مشهورة، يقول فيها إن الموت رقعة تنتهي بها آلام القلب وجراح الجسم وأوجاعه، كما يقول المعري.

إِنَّمَا الْمَوْتُ رُقْعَةٌ يَسْتَرْيَحُ إِلَـ حَسْبُكُمْ فِيهَا وَالْعَيْشُ مِثْلُ السَّهَادِ (١١٦)

ولكن الموت قد تتخلله الأحلام فلي أحلام نراها يا ترى إذا سلجنا الحياة كما يتصالح المعري. كيف لي بمخير، يعتام نفائس ما أحذر عليه، يطمئن بعد الموت كيف أكون؟ وكما يقول.

وَبَيْنَ الرَّدَى وَالتَّوَمِّ قُرْبَى وَنِسْبَةٌ وَشَتَانُ بُسْرَةٍ لِلنَّفْسِ وَاسْتِغْلَالُ

إِذَا مِتُّ لَا قَبِيْلَتُ الْأَحْيَةِ بَعْدَ مَا طَوَّتْهُمْ شُهُورٌ فِي التُّرَابِ وَأَحْوَالُ (١١٧)

(١١٦) من الخفيف وفي رواية أخرى: نَصْبَةُ الْمَوْتِ (المعري).

(١١٧) من الطويل (المعري).

وكما سأل

”ميجانك مؤيد الأبد هل للمنية سبب إلى الرقاد؟“

ولا يزال هملت يلهج بمحنة الحياة وسهام القضاء وسياط الزمن، وظلم الظالمين، وصلف المخبر، وبطء تحقيق العدل ووقاحة نوى الأمر ويعيهم وإحناء الظهر تحت أنقال الصاية، واحتمال ذلك الشقاء فزعاً مما يعد بالحياة ومن بعدها مجاهل لم يعد منها مسافر، وهذا خوف يقل العزم ويفرى المرء بالرضى بأنكم يعرفها واتقاء ما يجهل وذلك كله ما كان يلهج به المعرى

ويتكرر مثل هذه الآراء في الناس والصاية ومصائر الخلق في روايات أخرى مثل تيمون الأثيني وماكبث والملاك إير وغيرهما

وندع شكسبير وما يجريه على ألسنة أبطاله، وينقل إلى جوفته الشاعر الألماني وروايته ”فوست“ على الضموم، وهي كما وصفها الشاعر ”جولة بين الأرض والسماء، وفوست رمز للإنسان الذي يتشد المعرفة ويبقى أن يحيط علماً بسر الحياة وقد وجد أن المعرفة المستفادة من بطون الكتب التي كان يحكب عليها لا تفيد يقيناً ولا تكشف له عن سر ولا تبينه مجهولاً أو مغيباً، وقد بلغ من يأسه أن باع الشيطان نفسه وعاهده أن يسلمه روحه إذا وصع إبليس أن يفديه البعة والاطمئنان واليقين فبدأ معاً رحلة طويلة لا داعي لوصف مراحلها فإن القصة معروفة، وقد ذاق في رحلته مرارة الذم وشاق به القضاء الرحيب فالتمس ما وراء ذلك لعل الخيال يغنى حيث لم تقى الحقيقة، وقد أعياه على الرغم من مقدرة الخيال، أن ينحى الاستار المسدلة ولم يحده رفح طرفه إلى السماء ومحاولته أن يطوف في الأبد ويجويه، ولم يقنعه أن يتقبل الصاية كما تجيء وإن كانت لا ترضيه، وإشقاء عقله الذي طفى على نفسه، ولم يستقد إلا الحيرة اللازمة وإدراكه مبلغ [...] ^(١١٨) ولم يصل إلى شيء من ثالوث أفلاطون - ثالث الحق والجمال والخير - واستعان بالشيطان على ضعفه البشري فأن بالندامة والحصار

(١١٨) كلمة غير واضحة في الأصل المتاح ربما كانت ”جهلة“ (المحرر)

وليست هي إلا قصة أبي العلاء في حيرته ونشدانه الحقيقة واليقين في كل ما يستجلبه ويفكر فيه، بل قصة كل مفكر من بني الإنسان في هذا العالم.

وقد ترجمت منذ ربيع قرن وزيادة قصة روضة اسمها "سائين" وقد سميتها "أبن الطبيعة"، وهي لارترزيباشيف، ومن أشخاصها من يدعي يوري يشهد جنازة متحرر هيسنهول أنه لم يعد موجوداً، وأنه كان شيئاً فنصيح لا شيء، ذهب كالتراب المكنوس ولم تنق منه إلا القبة على النعش وفتح الإنجيل فيقرأ فيه أن من يهبط إلى الأرض لا يصعد أبداً فيقول.

"ما أصدق هذا وأحكمه، حتم فطيع، هكذا أنا أعيش ويلج بي الظلم إلى الحياة واللذات، ثم أقرأ هذا القضاء المبرم ولا يسعى حتى أن أخرج عليه"

ويناجي القوة الخفية فيقول.

"ماذا جنى الإنسان عليك حتى تسخرى منه هذا السخر؟ إذا كنت موجودة لماذا تخفين نفسك عن عيني؟ لماذا تجعليني إذا أمنت بك لا أؤمن بإيماني؟ (كفني العلاء تماماً) وإذا أجبتني فكيف أعرف أنت المجيبة أم نفسي؟ وإذا كنت على حق في رعتي في الحياة وطلتي لها فلماذا تسلبني هذا الحق الذي منحني إياه؟ إذا كانت بك حاجة إلى الأمان فبعيها نحملها من حبتنا لك، ولكننا لا نعرف أيها أعظم قيمة الشجرة أم الإنسان؟ إن الشجرة دائمة الأمل إذ قطعت استطاعت أن تقوم مرة أخرى وأن تسترد الخضرة وتقوّ ب حياة جديدة، أما الإنسان فيموت ويذول، يرقد فلا يهض مرة أخرى، ولو أنني كنت على يقين من أنني سأنحيا مرة ثانية بعد ملايين السنين لرضيت أن أنتظر في صبر كل هذه القرون في الظلام".

وهذه معان تقرؤها كلها في المعرى تثرأ وشعرأ، فقد مزق قلبه بها طول حياة، ومما يستحق الذكر أن بطل هذه الرواية (سائين) يبدي رأياً في يوري الذي (عذب نفسه بالسؤال الذي لا يجدي فكلته يديه في المعرى وذلك حيث يقول.

"إن الإنسان لا يمكن أن يكون فوق الحياة لأنه جزء منها وقد يسقط ولكن مرجع السخط إلى نفسه، فهو إما لا يستطيع أو لا يجزأ أن يأخذ من خيرات الحياة ما يمد

حاجته، ومن الناس من يقضون حياتهم في السجن، وهناك آخرون يخافون أن يفروا منها كالطائر الأسير يقرق من الطيران إذ يطلق له والجسم والروح يكونان كلا متجاوباً لا يزعجه إلا دنو الموت الرهيب، ولكننا نحن نقضى على هذا التلازم بسوء فكرتنا عن الحياة فقد زعمنا أن رغباتنا الطبيعية حيوانية وصرتنا نفس العار والفجل منها وتخفيها في صور وشيعة والضعاف منا لا يقطنون لهذا بل يقضون حياتهم في الأغلال المشرورية عليهم أما الضحايا فلو أن الذين تقعد بهم أروهم المظوية ولا شك أن القوى المحبوسة تتطلب منفذاً، وأن الجسم ينشد السرور واللذة وأنه يتعذب من جراء عجزه وقصوره فهو لا وأمثالهم حياتهم صراع دائم وشك مستمر يتطوفون بكل ما يقرون أن يعينهم ويفضى بهم إلى نظرية أخلاقية أحدث وأجد، ولا يزالون كذلك حتى يهربوا وهم يخافون أن يعيشوا ويصوموا

هذه حال المعري وصفها أديب روسي على لسان شخص متخيل أصدق وصفه أراد أن يطلق فوق الحياة فعبث، لأن ذلك مستحيل لا يستطيعه إنسان، وتهيب الحياة ففر من ميدانها، وخاف نفسه فألجمها وألزمها القيد فانتقمته منه وثارت نفسها القوى التي حبسها وسد عليها كل فج، فتعذب وراح يتسائل لم ولماذا؟ ويبحث عن الحق والخير والعدل، ويحاول أن يتخذ بيهيمته من أستاذ غيب الله المسئلة وهي كثيفة، فما اهتدى إلى شيء يستريح إليه العقل وتطمئن به النفس، وصار كما يقول بطل هذه القصة يخاف حتى أن يعيش ويص..، لكنه يتالم، ولأنه يجهل المصير.

* * *

ويعد فإن مجال الكلام ذو سعة، ولكنني نسيت الوحيد الذي قال لو يقول في أبي العلاء وليس من حقى، ولا في مقدورى، أن أحاول الإحاطة بكل جانب وأن ألم بكل ناحية، فحسبى ما قلت على القصص فيه والعجز، وإننى لشاكر لكم صبركم وسعة صدركم، ومعتز إليكم من التقصير والتطويل.

والسلام عليكم.

إبراهيم عبد القادر المازني

رحلة العراق

(١٩٤٤)

رحلة العراق^(١١٩)

(١٩٤٥)

(١)

هذه رحلة ثالثة إلى العراق، أطول من أختيها، وأوسع نطاقاً وأحفل بالمرئى والمسموع، ولم تكن لى على بال، ولا كنت أتوقع - على الأقل في أيام الحرب - أن تنهى مناسبة تقتضيها، وكنت أشهد مهرجان المعري وأشترك فيه أو أتجاد وأتشدد كقيرى على ما صماه الأستاذ إسعاف النشاشيبي بحق (العناء في سبيل أبى العلاء) وإنما بي أجد في غرقتي بالفندق بوقية من (أحمد زكى الخياط مدير الدعاية العام) يثنى فيها على أنبى ويشيد بفضلى، ويدعوني إلى زيارة بغداد وإداعة سلسلة من الأحاديث الأدبية والثقافية من محطاتها اللاسلكية، فتمجبت لهذه البرقية الطويلة المحشوة بالمدح والإطراء، وأخذتني خفة من الرهو، وما كنت أعرف من أحمد زكى هذا، ولا كنت سمعت به، ولم أكن أدرى أنه يضطلع بعبد جسيم، ويتولى أمراً عتيماً، وأنه من القليلين القليلين لا بد أن يكون لهم شأن أى شأن في مستقبل بلادهم، وتسمت، فإن محطة إذاعة بغداد إذا كانت قد بقيت على حالها كما عرفت في سنة ١٩٣٩ تعد (محطة جيب)، وكان لا بد لى من العود إلى مصر، فقلت: تشكر سعادة المدير العام للدعاية ونعتذر، ولويت البرقية وأنا أحدث نفسي، أن العراق أخرج إلى نهضة علمية واقتصادية منه إلى الدعاية، فما هذا الحال المقلوب؟ وما هذا التقليد الذى لا حكمة فيه ولا جلوى منه؟ من أجل أن ألمانيا لها وزير دعاية كجولز ينبغى أن يكون لبلاندا أيضاً

(١١٩) نشرت في "البلاغ" في ٢٢ يناير ١٩٤٥، (ص ٢).

مدير دعاية؟ وإلى أى شيء ندعو نحن الفقراء الضعفاء للساكنين؟ وهل كل ما بيننا وبين الدول العظمى من فرق بون أن دعايتها يتولاها وزير، ودعايتنا يتولاها مدير؟
ولم لا؟ أليس التشبه فلاح كما يقول الشاعر؟ ومن أولى من العراق بلد الشعراء والشعراء بأن يتبع الشعراء ويهيم معهم في كل وادٍ؟

وفي اليوم التالي تلقيت بريقة أخرى من صديق في بغداد أثير عندي، هو الأستاذ فخرى شهاب السعيدى ينبئني فيها أنه همّ بالحضور إلى دمشق ليقنعني بالسفر إلى بغداد وتلبية الدعوة التي جاعتني من الدعاية الملعنة، ويمشئ على القبول، فاستغربت، فإني أعرف السيد فخرى محامياً طموحاً، وأديباً حائقاً، ولا أعرف له صلة بدعاية أو إذاعة، وأثنى لي أن أعرف أنه أصبح المراقب العام للإذاعة؟ وقلت لنفسى آه! الآن فهما! هو إذن فخرى الذي أوعز إلي المدير العام أن يعزوني! ومعزرة يا سيد فخرى! وأنت لمعزى عليّ، وأنى لأكره أن أورد لك رجاء أو أخيب أملاً، ولكنى عائد إلى مصر بإذن الله، فما عن هذا معنى؟ واعتدت إلى القوم، وقلت لهم إنني مستعد بعد أويتني إلى بلادي أن أبعث إليهم بطائفة من الفصول في الأدب، يستطيع أن يتلواها عني أحد المتابعين، ولا داعي لهذه الرحلة الطويلة

ثم كان ما يعرفه القراء من منعي من اجتياز فلسطين، براً وجواً، كما أبلغت ولما كنت لا أحسن السباحة ولا أستطيع حتى لو كنت أحسنها، أن أقطع البحر الأبيض المتوسط سباحة إلى مصر، فقد خطر لي أن ألبى دعوة العراق وأمكث فيه أسبوعاً أو أسبوعين، ثم أنطلق من هناك إلى نجد فالبحران، وأشهد الحج، وما أكثر ما يثاب المرء رغم أنفه، ثم أركب البحر من جدة إلى السويس، وأعود بسلامة الله وأمتغني عن فلسطين التي تقف كالشمس في حلقى، لا أدري لماذا؟

ولكن الله كان أرحم من أن يجشعني هذه المشقات كلها، أو يكلفني أن أجوب نصف الدنيا القديمة لأرجع إلى بلادي، فيسر لي السفر بالطائرة وأمسأ إلى مصر من دمشق.

وتشهدت، وحمدت الله، وقرت عيني، واستأنفت عملي من حيث كان قد انقطع،
وحلفت زوجتي أن لا تدعني أسافر بعد ذلك مرة أخرى مخافة أن يصيبني سوء من
فلسطين هذه التي ترفض عنها رداً غير جميل.

فقلت لها "يا امرأة! ألم تسمعي بالمثل القائل إن 'سكة أبي زيد كلها مسالك'؟

قالت "لا يعني أبو زيد ولا مسكته ولا مسالكه، لقد كنا نسال عنك كل يوم من
المطار فكانوا يطمنوننا ويقولون: غداً يحضر... غداً يحضر... ونحن على أحر من
الجمر من القلق والخوف، والبلاء أنك تسافر وتقيب ما تقيب، فلا يخطر لك أن تكتب
إلينا رسالة أو تبعث إلينا ببرقية أو حتى ببساطة بريد، كئن كتابة ببساطة يكلف شططاً!
لا يا سيدي، والله العظيم إذا سافرت لأخرجن من البيت، ولأتركن لك أولادك فما عدت
أطيع أن أتحمل هذا الكرب! وما الداعي لهذه الأسفار كلها؟ لماذا لا نقعد في بيتك
كخلق الله؟".

فنقول: "ما هذا الجهل يا امرأة! ألا تعرفين أن للأسفار خمس فوائد ذكرها
الشاعر؟"

فنقول: "والسبي بلاش تريقة".

والتريقة يعاميتنا هي القشمة بعامية العراق، ومعناها بالعربية أن تتركب امرء
بالعبث والسعابة.

وأرى أن أختصر هذا الحوار اللطيف فنقول: "طيب ثبت".

فنقول: "أنت تنوب؟ يموت الزمار وأصابعه تلعب".

فالجأ إلى الحيلة وأقول: "أعز بالله يا شيخه! لماذا تذكرين الموت؟"

فظنن قليلاً، لأنها تعرفني أنطير، وتمتذر، وتروح مع ذلك تدور من وراء خديعتي،
وتحاول أن تنتزع مني وعداً بالكف عن السفر، فنقول معلياً: "مرة واحدة فقط، ثم
نقدم كخلق الله؟".

فتنسى طيرتى وتقول: "أما قلت لك إن الزمار يموت وأصابه تلعب لا فائدة"،
فأقول: "إذا كنت تعرفين أنه لا فائدة من الكلام وتؤمنين بالله وقدره وأن المكتوب
على الجبين لا بد أن تشوفه العين، فلماذا لا تريعين نفسك؟"،
فأقول: "مكتوب؟ تقول مكتوب، كنتك تسافر برغمك؟ والله إنك لكالعصفور لا يبقى
على شجرة واحدة أبداً"،
فأقول: "صحيح، والذنب ليس ذنبه، وما خير جناحيه إذا كان لا يفارق الشجرة؟"
فتصجر وتقول: "طيب، طيب، سافر كما تشاء، سافر عداً، اصنع ما تريد، الأمر
لله يا مبسوط! ربنا يكيدك كما تكيدني؟"،
فأقول معاتداً: "أنا أكيد؟ والله إني لرجل طيب".
فتصيح: "طيب ما يمدح نفسه إلا إبليس! ولو كنت طيباً لما سافرت وتركتنا
ونسبتنا وخلفتنا نضرب كفاً بكف وتقول يا ترى ماذا جرى، اسمع! من الآن فصعداً
لا تسافر وحدك! وجلي على رجلك"
فأقول: "أما قولى إنك تشتهين أن تسافرى؟"
فتقول: "كلا! لا أشتوى السفر، ولكن لا أطيق هذا القلق، لو كنت تعنى بئن نكتب
إلينا سطرًا واحدًا لاسترحته ولكنت تخرج من البيت فتعود لا تذكرنا كأننا لسنا في
الدنيا"
ولها العذر، فلئن بى كسلًا شديدًا.

رحلة العراق (١٢٠)

(٢)

وسهل أن يقول المرء أَسَافِر، كأن كل شيء ميسر، ولكن الصعب أن يسافر فعلاً، والطريق غير معروفه والميت في ثورته، فقد شق على أهلى أن يعينوا وحدهم على خلاف عادتنا طول العمر، وليس من المروعة ولا معا له داع، أن يعف المرء بأهله ويهمل شعورهم ويزبريه، وقد كنت في تلك الأيام أسأل الله جاهداً أن يلهمني الحكمة والسداد، ولكن ذلك كان رهناً بطريق السفر، وأمرى ليس بيدي، فإن فلسطين موصدة الأبواب في وجهي، ومواعيد الطائرات الإنجليزية التي تقصد رأساً إلى دمشق ولا تنزل بفلسطين لا توافقي، حتى إذ وجدت لي فيها مكاناً - وذاك عريز - وطريق السيارات طويل شاق مضن، ولكنه يتيح لي أن أقصى أول أيام العيد مع أهلى وفي ذلك لهم مرضاة.

وقد كان - ركبنا طائرة مصرية إلى بيروت في صباح اليوم الثاني من أيام العيد فهبطت بنا في مطارها قبل الظهر، وكنت قد "أشرت" على جواز سفرى من القنصلية الفرنسية بمصر، فقال لي عامل الجوازات إنه لا يد من "تأشير" جديد لأن لستنا أنشأ قنصلية له في القاهرة وسألتني:

"هل تقاضاك الفرنسيون شيئاً؟"

(١٢) نشرت في "البلاغ"، ٢٤ يناير ١٩٤٥، (ص٣).

قلت: كلا، فقد كانوا كراماً فأبوا إلا أن يكون التشهير بالمجان.

قال: إذن متقاضياك تمن رسم التشهير.

قلت: أترك يا مولانا

وأنتقدت ما طلب، وقد سررت هذا المظهر الجديد لاستقلال لبنان

وحملونا في سيارة شركة مصر للطيران إلى مكتبها في بيروت، ووضعوا حقائبنا على الرفوف، وألفيتني واقفاً وأمامي ثلاثة أو أربعة يتلغلغلون، فسألت أحدهم:

"هذا فندق؟"

قال: أليس! شو فندق؟ هادا مكتب.

قلت: إنما خلفت أن يكون، لا رأيت حقائبي توضع على الرف...

فبدأ مني حمال وقال إنه مصري الأصل من نسيات، وأنه يستطيع أن يدلني على فندق يؤثره المصريون على سواء. فقلت: امض بي إليه، ففعل، وكنت أبغي أن أنزل في فندق نورمندي، فإني أعرفه ولكني نسيت اسمه، وذهبتني ذاكرتي مرة أخرى، فقلت لنفسي: لا بأس إنما هي ليلة واحدة تقضيها على نحو ما، ثم نرحل في الصباح.

وذهب بي الرجل إلى فندق ريجنت وهو ضخم فخم، فقلت للواقف إلى مكتب

الاستعلامات:

"السلام عليكم."

قال: "بونجور مسيو،"

قلت: "يا أخي، إذا حييتم بقحية، إلخ... نهاية، أريد غرفة."

فرد بالفرنسية، وأنا لا أعرف منها إلا حرفاً، ولكني فهمت إجمالاً أنه يعترض،

فقلت له:

"اسمع، دع هذه الفرنسية.. مجها خمس دقائق، وحاول أن تفهم شيئين إذا كنت تريد أن تظل مصادقتنا صافية لا يحكرها معك.. الأول أنى أريد غرفة، أى غرفة، وبأى ثمن، والثانى أنى لا أحب الآف والدوران ولست أبوى أن أجوب بيروت كلها بحثاً عن غرفة، وهناك أشياء أخرى كثيرة يحسن بك أن تفهمها، ولكن لكل شيء أوانه، والصبر طيب، وفى الوقت فسحة كافية، والدليل طويل."

فحملق الرجل كأنما كنت أخاطبه بالسريرية، وبغ إلى دفتر فبوتت فيه اسمى وعنوانى بمصر وحسبى وأصلى وفصلى، وعمرى (بلا نقص، ولا زيادة طبعاً) بالعربية

فحنى وجهه على الدفتر، وزوى ما بين عينيه، ثم هز رأسه وقال: وهو يد يد.
"فوتر باسيور سيلفويليه".

قلت: "باسيور، تعرفها، لأنها شبيهة بالكلمة الإنجليزية المكتوبة على الجواز، والندب للعهد البريطانى بمصر وسيلفويليه تعرفها أيضاً لأنى من قوم مهنيين مؤمنين خراف لطاف وإن كانوا مصريين، تفضل، وأنتك تفهمنى كما أفهمك".

فتناول الجواز ونقل منه اسمى وأصلى وفصلى - بالفرنسية!

فلم يصغى إلا أن أسأله: "لبنانى؟".

قال: "بلى".

قلت: "سبحان من أنطقك أخيراً فليت من يدعى لماذا تؤثر أن تلبس غير جلدتك"

ورأيت غلاماً قبعته إلى الحقائق وأشرت إليه أن يحملها إلى غرفتى.

وطلبت دفتر التليفون، فإذا هو بالفرنسية، فسألتهم ألا يوجد دفتر بالعربية؟ فهزوا رؤوسهم، فلو كان مسمى سوط لألهيت بها ظهورهم أو رؤوسهم - سبان - ووجدت غناء فى الاهتمام إلى الأسماء التى ألقبها، فقلت لا بأس أبداً من البداية، وكلما وقعت على اسم يخليل إلى أنى أعرفه، أطلبه، وقصيت فى هذا ساعة وزيادة، طلبت فيها مئات دون

أن أعثر على واحد، فقد خرجوا جميعاً يعيون، ويقصفون، ويلهون، والله وحده يعلم متى يرجعون، لا بأس أيضاً، فسيعوبون لا محالة، وحينئذ يطمون أنى شرفت بيروت، فيخفون إلى، فلا خوف من الوحدة، ولا جوع من قضاء هذه الليلة مسفرة، ويحسن بي أن أستريح في الغرفة إلى موعد الفداء.

وأشهد أن المطبخ اللبناني عظيم، وليس هذا أول عهدي به، ولكنها الحرب وما جرت به الحرمان، مراعى أن الألوان كثيرة، ومقاديرها كبيرة، والمواد التي كان الظن أنها معلومة، وفيرة ولا علم لي إلى هذه الساعة بما أكلت، ولكنه لحم وخضر وأربر وأسماك ومكرونة على الأرجح. فقد كنت سبعان ملئوي الأمعاء من الجوع حين جاست إلى المائدة، فقبلت على الطعام ألهمه بلا عقل أو نظر، حتى إذا بدأت أشعر بالامتلاء مما امترت، شرعت أدير عيني فيمن حولي، فسرني أن الوجوه صريحة وبضاعة يضحك فيها الجمال، وسأخى وثقل على نفسي أن اللسان أعجمي الرطاقة، أو فرضيها، وأسفت وتمنت لو أمكن أن يستعرب هؤلاء المتعاصون؛ غير أن الأسف لم يحمل نون الأكل المرى والشرب الهنيء. وقد كنت أتأمل وأنا أكل وأنتظر إلى الوجوه بقول القائل.

هي شامية إذا ما استقلت	وهو ما استقل عنها يمانى ^(١٢١)
------------------------	--

وثبتت أن امرأتى الفاضلة أنسنتها رقة التوديع أن تزويجي بربطات الرقبة فخرجت أتمشي واشترت ربتين جميلتين بثمن معتدل وعتت فجلست إلى جانب نافذة أنتظر إلى الطريق، وانتظر، وفوق المسلمين المرحبين المهنيين بسلامة الوصول، فطال الانتظار، وتقد الصبر وثقلت الوحدة وأحسست بالوحشة، وإذا بي أسمع صياحاً، فخطفت إلى مصدره وفي مرجوى أن أتمسلي على الأقل، فسمعت صوتاً أعرفه يقول.

(١٢١) ربما يعنى قول النسيان بن مشير النصارى (ت: ٦٨١/٦٨٢م):

هي شامية إذا ما استقلت	وسهيل إذا استقل يمان
------------------------	----------------------

وهو من بحر الطوفان (البحر).

أقول لك الأستاذ المازني، تقول لي الميسني؟

فضحكت ونهبت أعو إلى صاحبي وقلت له:

لا عليك يا مولانا! فإن هذه غلطة الحمال قاممدها هي دقته.

فجعل يضرب كفا بكف ويقول: "إن هذه قضيمة"

فهوت عليه الأمر، وأكدت له أنني مقتنع من لبنان عربي قح على الرغم من هذا الموقف المتفرنس وإن الوحدة العربية بخير وفي أمان من المخاوف التي تثيرها رطانة هذا الرجل، ولم أزل حتى جاء إلى الرضى وأشرقت بياحة وجهه

وكان حسبي شارحاً لصبري أن التقيت بالصيد حسين المويدي صديق العريز وأخي الكريم مذ زرت الحجار في سنة ١٩٢٠ فليحتف من شاء غيره، مما أحفل الدنيا وهو معي، عابني وإياه من لبنان على الأقل على حد قول العكوك. إنما الدنيا أبويف^(١٢٢).

(١٢٢) للعكوك هو الشاعر العراقي علي بن جيلة (د. ١٢١٣هـ) والبيت من العديد ونصه:

إنما الدنيا أبو دلف	بني حفره ومحتضره
---------------------	------------------

رحلة العراق (١٣٣)

(٣)

كان على "شركة نيرن" أن تتفصل فستقني من بيروت إلى دمشق، ثم تعملني في إحدى سياراتها الفخمة الضخمة الوثيرة من طراز بولان - إلى بغداد في عشرين ساعة - على ما قيل لي في مصر، وفي الجلوس عشرين ساعة ما يكفي لتوصيم البدن ولو كان المقعد مما أعد للمتقين في الفرايس، ولكن ما الحيلة وفلسطين تفكرني، ولست أسي الظن فتهم حكومتها بالنظم، فإن أكبر عني - كما حدثت غير واحد بذلك - أنها تشفق أن يصيبني أنا وأمثالي مكروه في أرضها، وتؤثر أن تحرمنا الدخول حتى لا تتحمل تبعه ما، وقد أكون مخطئاً، ولكن هذا اعتقادي، فإن الإنجليز أصديقي والعرب إخواني وأبناء عمومتي

ولم يبالغ من قال لي إن مدير (نيرن) ينفذ موظفيه أجورهم لحلاوة ابتسامهم، فما رأيت أرق منهم شمائل، ولا أطرف نو أكثر منهم تحفياً بمسافر، وكنت قد قصدت إلى مكتبهم في بيروت لاستوثق من موعد القيام في صباح اليوم التالي فقبولوني أنه منتصف الثامنة، فلما كانت السابعة بعثوا إليّ بسيارة نقلني إليهم حتى لا أتجشم تعباً أو أتكلف نفقة، وكان السيد حسين العموي يبغي أن ييكر ليوعني هو ومن يستطيع إيقافه، فليت عليه ذلك وصرفته عنه، وقلت له إنني لست ذاهباً إلى المريخ، ولا حتى إلى القطب الشمالي، أو مساحة من سلحات هذه الحرب الضروس، ثم أنني أكره

(١٣٣) نشرت في "البلاغ" في ٢٠ يناير ١٩٤٥ (ص ٣).

التوبيع واستثقل تكلفه، لأن فيه معنى الشك في الأوبة، وأحب أن أكون خفيفاً على الناس فلا أحوجهم إلى ما يسخطهم في قرارة نفوسهم، وليس بغداد آخر الدنيا فإنها عروس المدائن على الأقل قديماً

وركب معي السيارة من بيروت رجل أرخى قبعته على عينيه، ونفخ في يديه ودمسها في جيبه، وانطوى على نفسه، فاستعنت بالله، وسقته إلى بغداد؟ فهز رأسه أن نعم، فقلت:

"اسمع يا صاحبي، إن الشقة بعيدة، والطريق طويل، وستقضي الليلة على الأمل في سيارة واحدة برغمي وزعمك - فلا تكن رفيقاً سوءاً"
قال: "ماذا ينبغي أن أستمع؟".

قلت: "إني أرى لك لساناً - فهات ترجمتك فإني أجمع تراجم من لا تراجم لهم ولا توجز، وأبدأ من البداية - مذ ولنتك أمك؟ ولا تهمل شيئاً"

فلوحي على الأمل، فقد كان ثباتاً لا يحفل له لسان، وكان صوته طيقة واحدة لا ترتفع ولا تهبط، فتمت عليه ساعة أو بعض ساعة في الطريق إلى دمشق - كما ينالم راكب القطار على صوته

وأخفوا منا أشياء وجوازيتنا في دمشق، وقالوا "انهبوا فتقدوا وجوبوا في تمام الساعة الثانية مساءً"

فقلت لصاحبي: "تعال بنا إلى فندق أوربان بالاس فإن موظفيه وخدمه من أصدقائي الحميمين، وأنا أريد أن أقضي حاجات شتى لا يتسع الوقت لها، فسلكلها إليهم، فإنهم من أوفى الناس، وأوثقهم عهداً".

وهناك تفدينا، وكلفت بعضهم فاشترى لي "قنبلة" من العرقى الممتاز احتجبها معي لأهديها إلى صديق في بغداد يفضل شراب لبنان على شراب العراق، وقد أحتاج إلى حسوة منها في الصحراء تتعشني وترد إلي روحي، ومن دري؛ وطلبت طعاماً على سبيل الاحتياط فأنعوه لي أيضاً

ولم يقصر رجال الفندق، فقاموا على ما عهدت فيه إليهم، وعدنا إلى مكتب الشركة، وقد عدنا ننتظر الرحيل، وإذا بالكتور أسعد طلس يدخل علىّ وهو لا يكاد يصدق عينيه ويسألني كيف جئت، ومن أي طريق؟ فقد كان يعرف حكاية فلسطين معي ونفوسها مني وروحها فيّ ومن أدري منه بذلك وقد كان رفيقي الكريم الذي أتت له مروعته إلا أن يرتد معي عن فلسطين وقد أجير له دخولها.

وأن أُنْزِلَ السيارات فخففنا إليها لتفتح حقائبنا لرجال الجمارك - إذا شاؤوا! - غير أنهم لما رأوا بطاقتي على حقيبتَي تلمفوا وتركوها، وما كان بها شيء علم الله غير ما أحتاج إليه من أشياءني ففتحتها لهم برغمهم لتطمئن قلوبهم وأخرجت عباءة لي من صوف سميك لا تحبب بها وقياً من برد الصحراء فابتى أعرفه فارساً، وكان هناك شاب عراقي سألوه "مك جديد؟" فقال بلهجة الجزم "لا" فلم يصدقوا وقالوا

"افتح هذه فإذا فيها علم، فكان من الجديد من القمصان وأريطة الرقبة والجوارب للرجال والنساء" وغير ذلك.

فاكتفوا بردها دون مصالبتها، وجلس صاحبنا أو صاحبها على الأصح - موكباً موقباً^(١٧٤) معظم الوقت.

وسألت بعضهم: "لماذا صدقوني نوت؟"

فقال إنهم يعرفون العراقيين بأنهم إلى الشام فيستبضعون ويعودون لقلة ما عندهم في بلادهم، والبضائع في مصر أوفر وأرخص.

وانطلقت بنا السيارة في موعد قيامها، وهي عظيمة ومقاعدنا وثيرة، ونوافدها محكمة، فلا يفد منها تراب أو هوا، ولحقنا بنا أخرى فيها راكب غيرنا، لتزاملنا في الطريق، وتتعلون التسيارات على ما عسى أن يعترض إحداها، ووقفوا بنا لسطة

(١٧٤) أي حركاً مقبواً (المحرر).

ليصقونا الشئ، مع الفطائر والكك، ثم استلقوا السبر، وكانت الأرض قد جاءها
هاضب في الليلة الماضية فاستوحلت في موضع كثيرة وجعلت العجلات تفوس قليلاً،
فتقف السيارات، ويضع الرجال ألواحاً من الخشب تحنها، لتدور عليها العجلات
فتخرج مما ارتطمت فيه، وكان أكثر ما يحدث هذا في الليل، وإن كانت أضواء
السيارة قوية

وجاءنا بالعشاء في صناديق صغيرة من الورق المقوى، فقلت لجاري وكان هو
رفيق من بيروت، "تكل ولا تشرب"

قال: لا، أريد أن أشرب.

قلت: ألم أنهك أن تكون رفيق سوي.

قال: طيب، وماذا تشرب؟

قلت: إنك طويل قدم يدك إلى هذا الرف الذي فوق رأسك وهات قنينة العرقى وأنا
أنكفل بطلب الاقتراح والماء من الخادم.

ورأى الخادم صاحبنا يقف ويمد يده ويتحسس فخف إليه وعرف حاجته فقال لنا

لا داعي لهذا، فإن عندي ما تحبون من الويسكى والعرقى والجن والنيبيذ

فاستخفني الطرب وصحت: "تالله ما أعظم التيرن وأطيبه وأكرمهم، هات لنا
ويسكى إذن، فإن التيمم لا محل له وقد حضر الماء".

فهمس صاحبي في أذني: "الويسكى غالي".

قلت: لا تكن كزاً، متى شريت ويسكى آخر مرة؟

قال: منذ عامين.

قلت: والعبد لله مثلك، أفنحرم أنفسنا هذه النعمة التي ساقها إلينا النيرن من
حيث لا نعتسب عجل يا شيخ بالويسكى

وكان خلفا قوم من الإنجليز، سمعوا كلمة "ويسكي" فاقبلوا على يسألونني
ويمتخبرون، ثم انطلقوا يصيغون "بوي" ويسكي أند هودا.

واستيقظت في الصباح فتعجبت، فقد كانت السيارة واقفة، فقلت لعلها وقفت
لتتيح لنا النوم المريح وتعفينا من الراجات المزعجة، وخرجنا، فإذا عجالات السيارتين
جميعاً قد غاصت في الوحل واختفت حتى لا يبدو منها شيء فقلت آه! حاك الموت يا
تارك الصلاة! وسنظل في هذه الصحراء الحرداء حتى يدركنا الموت أو نكتينا نجدة،
وهيهات ومن أين لنا بالقوة التي تنتزع هذه المركبات الثقيلة من الوحل وترفعها إلى
ظهر الأرض؟

رحلة العراق^(١٢٥)

(٤)

وكان البرد قارساً في تلك البكرة، والريح لا لينة ولا زعزع، والشمس لا يكاد ينر لها قرب، إلا من فتوق قليلة في الفيم وهو يمر، وكان الرمل طويلاً تغوص فيه القدم فيقتلعها صاحبها بجهد وقد تعلق بالحداء ما جطه كالصديد إنقلاً، ولم تفصل وجوهنا ولا حلقنا ونقوبتنا في صباحنا دالة وأنى لنا أن نفعل ذلك؟ فلو كان بيتنا حلاق لفتح الله عليه فتحاً سيئاً

وكان أولى منا بالشكوى والتذمر عمال السيارات المجاهيد الذين يكرروا وتحن نيام، يرفعون العجلات، أو الدواليب كما يسمونها، ويحفرّون تحتها ويضعون ألواح الخشب المثينة لتدور الدواليب عليها لا على الرمل، فتخرج، ويكاثروا يستعملون لذلك مجرقة أو مكسحة أو ما يسمى الرفش أحياناً يجرفون بها الطين، وقد حدثني بعضهم في العراق أن الفلاحين هناك يأثرون أن يستعملون الفرس التي يستعملها المصريون، ويقولون عنها إنها تقصم الظهر، ويؤثرون أن يعملوا في الأرض وهم وقوف لا ينحنون

وكان الضباط الإنجليز لا يكتفون مثلنا بالوقوف والنظر والوجوم والنقع في الأيدي، فكانوا يتناولون المجرقة ويساعدون العمال حتى إذا أدقوا وتعبوا ألقوا ما بأيديهم، ونفضوا الرمل وكروا إلينا ووجوههم كالجمر المضطرم، وعيونهم تدمع من البرد

ولبثنا في هذا إلى ما بعد الظهر ثم أنشأ الله أن تستأنف السير فمضينا على سبيلنا إلى الرطبة وهيها مطار قريب، ونصب أقامه الإنجليز تنكراً لتهديدتهم الطريق

(١٢٥) نشرت في كابلخ قول فبراير ١٩٤٥ (٣٠).

ورصفه بين العراق وفلسطين. وفيها تغدينا على حساب (نيرين) فقد أتينا على مدخوره من الطعام في العشاء، ثم عدنا إلى الطريق وهو من هناك مرصوف، قبلنا (الرمادي) في الساعة التاسعة أو نحو ذلك، وبينها وبين بغداد أكثر من تسعين ميلاً تقطعها السيارات في نحو ساعتين، وكان فيها جهاز للتليفون فحف إليه خلق كثير. هذا يطلب بيته، وهذا يريد أن يخاطب قديماً، وذلك يحاول أن يحدث صديقاً، وأنا أنظر ولا أدرى ماذا أصنع؟ فلن نكون في بغداد قبل منتصف الليل، فهل أجد سيارة تحملني وتطوف بي على الفنادق عسى أن أجد في أحدها غرفة أقضي بقية الليل فيها؟ وماذا أصنع إذا لم أجد سيارة؟ وكان إلى جانبي من عرفت فيما بعد أنه نجل الأستاذ السيد عبد الحسين الأريزي الوجيه الشاعر، وشقيق وزير الأشغال والمواصلات فقال لي: "لا تحمل همّاً، فستكون سيارتنا حاضرة، وفي خدمتك"

فشكرته، وقمت إلى التليفون فطلبت إذاعة مقداد، فإذا الحبيب هو السيد فخرى شهاب فتعجبت وسألت: "ماذا تصنع في الإذاعة؟ وما شئتُك بها؟"

قال: "إنني مراقبها العام"

قلت: "فخرى في الإذاعة؟ لقد خربت والله، على كل حال اسمع. إذا كانت الإذاعة قد شأت أن تخرب فهذا شئتُها، والذي عني أني سأمهل بآنس الله وببركة (نيرين) بعد منتصف الليل أو قبله - لا أدرى - فهل تستطيع أن تعد لي سيارة، وغرفة ولو في خان، أو حتى في منزلك؟"

قال: "السيارة ستكون حاضرة، أما الغرفة فالأرجح أن تكون في فندق "زبا"، وقد كان العزم أن نترك في ريجنت، ولكنه [غاص]."

قلت: "زبا - ميا سيان، المهم أن أجد مكاناً نلثم فيه الليلة، ويفرجها الله غداً، وسأملك عن "زبا" هذه ما هي؟ فما لي بها عهد فاستعد للجواب"

قال: "قد انتظرتك اليوم في المطار، وحضر لاستقبالك فلان وفلان."

قلت: "يا أخي، لقد بعثنا إليكم ببرقية نقول فيها إنني أت بالطيارة إلى بيروت ومن ثم بسيارات نيرين، فمتى عرفت أن نيرين يطير فإنني أعرفه لا يرال يزحف كالسلحفاة"

على الأقل في هذه المرة، نهايته السلام عليكم فإن كثيرين غيري يغيثون الاستمتاع بالمحادثات التليفونية.

واستقباني السيد فخرى كما وعد، وكان مقرراً يسعل ويعطس، ولكن الوفاء أبي له إلا القنوم في الليل المزهر البرد، المتجنية السحاب للتصل الودق، وهرقنا مفصله من مكثي الجمرك والجوارات كالسمم، وانطلقنا لا إلى مدق "زبا" بل إلى فندق ريجنت، فسألته عن الترتيب لماذا تغير؟.

قال: "فضلنا أن ننزل بريجنت من أول الأمر، ولو تعبت الليلة".

قلت: "بشرك الله بالحيوات.. وهذا التعب الذي تشير إليه ما هو حتى أعد نفسي له".

قال: "لم نجد الليلة سوى غرفة لاثنتين وبها ضيف من البصرة، وغداً نتقل إلى غرفة تكون فيها وحيداً".

قلت: "ضيف من البصرة؟ شيء جميل! واثق أنه ليس من نيام نيام".

قال: "هي ليلة واحدة، بل ساعات معدودات".

قلت: "إنني أقف على أنام على كرسي في الفلج، أو في إحدى حجرات الجلوس".

قال: "تموت من البرد".

قلت: "هذا أرحم من الرقاد مع رسول نيام نيام... قل لي، هل سقام معي على سرير واحد؟".

قال: "الصبر طيب.. إلى الصباح فقط".

قلت: "طمتني! هل يشخر وينخر؟".

قال: "ومن أنراتي؟".

قلت: "فخرى الذي استولى على إنذاعة بغداد بفترة قاصر، لا يدري أيشخر الرجل لو لا يشخر... طيب لا بأس حصبي أن تمسكه لي، وإن كان مجهول الصفات، قل لي شيء... طمتني ولو كثيراً".

فلم يشأ أن يطمئنني ذلك الصديق العزيز، فبخلت الصديق وأنا قلق، ولكن بي لهفة على رؤية رفيقي البصري وصعدت في السلم، وأنا أسأل الله في سرى أن ألبيه مستعزاً أو غارقاً في النوم، وأن يكون وجهه - على الأقل - مكتشوفاً عسى أن أتبين فيه ما يطمئن أو يسرّ

وقلت لخادم الفندق الذي حمل حقائبي: "يونجور" فقد دخلنا في الصباح

فالتفت إلي كالنعمور، فتسبعت له وقد تنكرت لنبي لست في إيمان، وقالت: "تهارك سعيد"

قال: "صباح الخير مولانا"

وأو سمعت خائفاً في مصر يقول لي "مولانا" لظننته بتهكم، ولكنهم في العراق يستعملون اللفظ ويريدون به التوقير، وفتحنا باب الغرفة، فبخلت على أطراب أصابعي، كاللص، وكان السيد هجري يسير أمامي، والخادم يسبقه وهما يتألفان بصوت يزج الموتى فقلت "هس!" فلم يكرثا لي، ولم يعننا شيئاً بالمسكين الذي اقتحمنا عرفه في فجأة الليل، وخرجا وبقيت وحدي، فوقفت متردداً: هل أتضو ثيابي، أو أنام بها وأمرى إلى الله؟ ونظرت فإذا وجه الرجل إلى الحائط فتشبهت وشرعت أطلع ثيابي...، وبى خوف من أن ينقلب فيفاجئني وأنا نصف عار، ومن يدري؟ لعله متلوم وهل يعقل أن يظل نائماً على الرعم من الضجة التي كانت؟ ثم من يدري مرة أخرى؟ لعله لصاً وأضحكني أتى سلفيب لعله، فما معي إلا ثياب قنبعة أكرها بالـ

وتسللت إلى سريرى وأنا أحدث نفسي أن النوم لن يؤاتيني في هذه الليلة السوداء، فليس أبغض إليّ، ولا أثقل عليّ، من أن أنام في عرفة واحدة مع مخلوق آخر كائناً من كان فإن النائم يكون على غير ما يدري من الأحوال والأوضاع، ولست استمرى أن يراني أحد على حال لا دخل للإرادة فيه ولكن ما الصيلة؟

وغلبني النوم وهذه الخواطر تكور في نفسي، وما كاد الصبح يتنفس حتى ارتعيت ثيابي وخرجت، فلقيني مدير الفندق، ويشموني أن غرقتي - غرفتي وحدي - ستكون معدة بعد ساعة أو اثنتين،

فلولا الحياء لقلت!

رحلة العراق^(١٢٦)

(٥)

أدهشني أنني على تنكيري في القيام وإسراعي إلى الخروج من هذه العرفة المشتربة كان أحمد مكركي الضابط أسرع مني وأنشط، فقد أقبل على مدير الفندق وأنا جالس إلى المائدة ويقع إلى بطاقة قال إن مدير العناية العام حضر وتركها لي، فقرأت فيها تحية طيبة وترحيباً كريماً واعتذاراً رقيقاً من تقصيره (بامل!) في استقبال البارحة لأنه كان يجهل موعد قنومي، بعد أن انتظرتني على غير جدوى في المطار

نسأت المدير - وهو سويسري ولكنه يجيد الإنجليزية - متى حضر؟

قال: قبل ساعة، وكره أن يزعمك فكتب هذه الساعة

فزلت دهشتي، فإن معنى ذلك أنه جاء في الساعة السادسة صباحاً، وهي بتوقيت مصر، الخامسة صباحاً، فإن بين مصر والعراق فرقاً في التوقيت مقداره ساعة

قلت: كمل الذي جاء رسوله أو خاتمه؟

قال: بل هو أحمد بك نفسه فإنني أعرفه.

فقلت لنفسى "عجاً، هذا وكيل وزارة يهض من قراشه الوثير الدافئ في الساعة الرابعة صباحاً في زمهرير الشتاء، ويطلق ويقتسل ويفطر ويرتدي ثيابه ويخرج ليكون

(١٢٦) نشرت في "البلاغ" في ٥ فبراير ١٩٤٥ (ص ٢٠٤).

عندى في الخامسة بوقت مصر ويعوض بهذا التكبير ما يعده من التقصير! فيا له من شعور دقيق بالواجب! ثم يا له من نشاط! هل يطيب لوكيل وزارة في مصر ويخف على نفسه أن يصنع هذا؟

وعظمت أن الموظفين يكونون في نواوينهم في الساعة التاسعة، ويخطر لي أن الرئيس قد يتكفون إلى ما بعد هذا الموعد بساعة، كما يقفون في مصر، فلا معدى عن الانتظار إلى العاشرة أو نحوها

ولما أن أخرج، طلبت تاكسى، فقبل لي إن سيارة الفندق حاضرة، وهي حير وأنظف، ولا تنفاسي إلا الأجر المقرر بلا زيادة، وعلى فكر التاكسى أقول إنه لا عداد له في العراق، فالقريب لا يأمن أن يغتبه السائق، غير أنني وجدت بالتجربة أن السائق ينذر أن يشتط، وقد يفينه الراكب فيمنعه الألب أو الحياء أن يقول شيئاً.

وتركت طربوشى في غرفتى الخاصة بعد أن نقلت إليها - وخرجت عارى الرأس فقد رأيت معظم الناس لا يضعون على رؤسهم شيئاً يستوى في ذلك شأن وشيب، ومن الاحترام - في العراق أن تخلع لباس رأسك، على نحو ما يفعل الغربيون، وليس هذا من القوم تقليداً للغرب، فإن له لقصة لا بأس من إيرادها، ذلك أن المغفور له الملك فيصل كان في البداية يجرى على عادة الشرق في استقبالته أى أن يبقى غطاء الرأس عليه حتى كانت أزمة الطربوش في أنقرة، وخلاصتها أن وزير مصر المفوض في تركيا حضر حفلة استقبال رسمية بالطربوش كما تقضى بذلك المراسم المصرية، فما كان من الرئيس كمال أتاتورك إلا أن رجا منه أن يخلع طربوشه، وألح في ذلك إلحاحاً شديداً، بل قيل إنه نزع بيده، فكان لحنجاج واعتذار، فخشى الملك فيصل أن يحدث لمثل العراق ما حدث لمثل مصر، وأثر أن يتقى ما قد يقضى إليه ذلك من الجفوة، فغير المراسم، وجعل خلع الفيصلية أو السدارة بعض ما تقضى به المراسم في بلاد العراق

وقد سألني بعض العراقيين عن السبب في حرص المغفور له الملك فؤاد على ارتداء الطربوش وإصراره على الاحتفاظ به، فقلت إنى لا أرى على وجه التحقيق

ولكنى أعتقد أن الملك فؤاد كان يريد أن يبرز اسم مصر المستقلة في الغرب، وينبعه ويعلمه في كل مناسبة، وأن يجعل من الطربوش شعاراً يلتفت إليه بلاده، وأعرف أنه كان رحمه الله حريصاً على أن تكون لمصر شخصية خاصة تتميز بها، وكان ينفر من كل تقليد تتمحى به الشخصمية، وقد كان هو عليه رحمة الله أكبر داعية لمصر، وأقوى إعلان عنها، وأسمى رمز لها، في رحلاته المديدة إلى أوروبا وكان في أسفاره جميعاً يتخذ الطربوش ولا يخلعه أبداً، كما أسلفت من رغبته - فيما أعتقد - في إبراز شخصية مصر وتأكيد استقلالها.

وأنا لا أطيق الطربوش، وصبرى عليه قليل، وما تركته على رأسي قط إلا مضطراً، حين أكون سائراً في الطريق، أو في مجلس لا يلبق فيه خلعه، ولكنى على كرهى واستقالى له أسنحى أن أسير بغيره، والعادة طبيعة ثابتة، وقد اتفق مرة أن تمشيت مع لقيط من الإخوان عند صديقى الدكتور بشر فارس فخلعت الطربوش وأنا داخل، ونسيتته وأنا خارج، ولم أنتكره إلا وأنا أغادر السيارة في الجراج، وكان الليل قد انتصف، والشوارع خالية، والظلام حالك، والبيت قريب، ومع ذلك قطعت هذه العشرات من الأمتار على استحياء، ولما أصبحت اصطحبت اسى إلى الجراج، وفى يدى طربوشه خجلاً من أن يرانى الناس مكشوف الرأس، ثم عرجت على الطرايبشى فلخذت طربوشى الذى عنده، وتشبهت!

وهكذا فى المراق أروح، أروح وأجى، فى الليل والنهار، وليس على رأسي شيء، سوى المشعر القليل الباقي الذى شاع مبيضه فى مسوده، لأنى فى هذا لست بدعاً، ولما شئت شئت الناس جميعاً أو جمهورهم الأكبر، وكنت فى بداية الأمر أرانى أتلعت كلما هممت بالخروج، كلتما يتقصتنى شيء، وتقع عيني على الطربوش المهمل، فابتسم وأقول: "أه! خلك مكانك، فقد تعودنا الاستغناء عنك، وكل شيء فى هذه الدنيا عادة، حتى التلى والعبادة أقم نسمع قول التواسى.

أنت يا بن الربيع أكرمى الخير وعودتيه، والخير عبادة؟

إنك إن جهلته لا تكون جديراً بأن توضع على رأسي! على كل حاله لا تنسف ولا تحزن، فما لرأسي قيمة أكبر من قيمة هذا المشجب الذي أنت عليه - في نظر الحياة على الأقل لا في نظر ابن آدم المفلوج المدحوق! وسعود إلى مصر فتعود إلى رأسا وتنبؤ مكانك المكلف والصبر طيب، ولا بد منه في هذه الدنيا طاب أم ثقل، وقد صبرنا على ثقل كل هذا العمر، وعجيب أن تضجرك الرامة شهراً أو شهرين! وما أدري والله أتلپسنا أنت أم نحن ثلیمك! ولكن هذا يحدث نستطيع أن نرجعه إلى وقت آخر، وإلى أن يجي ذلك الوقت، أو أن نؤوب إلى مصر، أرجو أن تنام هنيئاً، وأن تطم أحلاماً لنيذة

ووجدت أحمد بك واقفاً في غرفته بوزارة الداخلية، أمام مكتبه، يرفع سماعة ويضع أخرى، ولا يستقر أو يهدأ، وتكلمنا قليلاً فيما جئت له، وإنصرف لأدري بعض الواجبات، مثل زيارة المفوضية المصرية، والبلات للكي، ووزير الخارجية، ووزير المعارف.

وأحمد بك هذا جدير بفصل خاص، فانا أنه الآن لأقول إنني تعجبت حين لم أجد في مفوضيتنا سوى اثنين من الموظفين، واحد قائم بأعمال الوزير المفوض، وآخر يعاونه وهما يقومان بكل أعمال المفوضية والاتصلية، على كثرتها ويسهران على مصالح مصر والمصريين - وما أكثرهم في العراق - ويردان على التليفون، ويكتنان على الآلة الطابعة - كما نسمى التيلبرايم في العراق - وودنان الحسابات، ويحرران المراسلات، ويطلقن أحياناً جالسين إلى منتصف الليل، ويشهران الحفلات والاستقبالات، فليس ينقصهما إلا أن يؤدبا أعمال الضخم أيضاً!! فما أبخل مصر! وما أقل علمها بما يعانيه ممثلوها في الخارج! وما أكثر الموظفين الذين يمكن أن يشحن منهم فيلق لمعاونة هؤلاء المكويين المجاهدين، بلا ضمير على العمل في مصر!

وكان أحمد شكرى القائم بالأعمال حقياً بي، وعلت من إخواني المصريين أنه أقوى عون لهم، وأقرب مدد إليهم، وأنه رهن إشارتهم في كل ساعة، فلم استغرب حين ما رأيت منه ومن زميله مصداق لما قالوا فيه وأثثوا به عليه

وقد سألني: "هل أحب أن أبلغ وزارة الخارجية المصرية شيئاً"

فقلت له: "يا صاحبي إذا شئت أن تبلغها شيئاً فبلغها عني شكرى لك وعطني عليك".

رحلة العراق (١٣٧)

(٦)

أحمد زكى الخياط، مدير الدعاية العامة. رجل ربعة، فى وجهه الأسمر المنور لين وقوة، وفى عينيه الضيقتين عذوبة وصرامة، وفى حاجبيه المشرفين على غارى العينين سيوغ وكثافة، وفى جبهته الطواء [سنة] وطوله وفى خلقه شدة، وقد استوى بياض راسه وسواده فو كادا، ولكن الرجل ما زال قتيلاً جليداً وخفيفاً سريعاً.

رأيت أول ما رأيت واقفاً معتدلاً القائمة كالجندي الذى لم يوضع حنبله قط، وسمعته يتكلم ويلوح بيمينه كأنه يخطب وكان كلامه باتاً، ونطقه بطيئاً، وصوته رقيقاً، وعينه شاخصة كأنها يستتبت، فلم أدر أى رجل هو؟

وفرك يديه، والتفت إلى، وأقبل على يعتذر عن تخلفه عن استقبالي ليلة مقدمي. لأنه بعد أن انتظرنى فى المطار على غير جدوى عاد لا يرى متى وأين أجي، وينكر السيد فخرى مراقب الإذاعة ويشكر له قيامه بواجب الاستقبال على الرغم من مرضه، وينبئني أن هذه الوعكة قد تحول بينه وبين لقائى فى يومى، ويرجو أن أهد له العذر، ثم يهجم على الأمر الذى استقدمتني له الحكومة فيقول بايجاز أن الأمر متروك لاختياري، ولكنه يلطم منى أن أعنى بتوجيه الشبان والأخذ بيدهم إلى النهج الذى أراه أقوم، ثم يدع هذا ويسألني عن ليلتي كيف قضيتها، فأسأله متى يرى أن أبداً؟ فيقول إن هذا موكول إلى رأيي، وأنه يرجو أن أستريح أياماً حتى أنشط وترجع إلى

(١٣٧) نشرت فى «كلمة» فى ٨ فبراير سنة ١٩٤٥. (ص ٢٠٤).

نفسى بعد الذى عانيته من مشقة السفر، ولما هممت بالانصراف أراد أن يضع سيارته
وهن مشينتى فشكرت له لطفه وأخبرته أن معى سيارة فويضى وهو يقول إنه سيكون
عندى فى المساء.

وخرجت وأنا لا أزال حائراً فى أمره، وأسخطنى على نفسى أنى عجرت عن
الاستكثاء، وأنا أزعج أنى رجل ألمع صانع الفراسة، ونظار فى النفوس سريع الاهتداء
إلى المغيب فى أطواء السرائر، غير أنى ما لبثت أن ضحكت فما أعرف نفسى معرفتها
بعد كل هذا العمر، فكيف أطمع أن تكفينى نظرة واحدة للإحاطة بنفس جديدة

وتدبت لى شخصية أحمد بك شيئاً قشياً على الأيام، وعرفت من سيرته وحياته
ما هو حسب كل راعب فى المعرفة ولم أحتج أن أستخير أحداً، ولو احتجت لما فعلت،
فإنى أستكشف أن أسأل، وأنزه نفسى عن موقف المتجسس، ولكن الناس كانوا لا
أدرى لماذا؟ يفضون إلى ما يعلمون كأنما يعرفون أن يعرفونى بالرجل الذى توثقت
ببنى وبية الأواصر، بطبيعة الحال، ويحكم العمل الذى جئت من أجله، ولم يقل فيه أحد
إلا خيراً، وهذا وحده غريب فظلاً يجمع الناس على الثناء على رجل، ولقد كانوا يذكروا
غيره ببعض التقيص، أما أحمد بك فما سمعت من أخباره إلا كل حسن جميل، وقد
علمت أنه تخرج فى الحقوق، فإنه كان نائب قنصل فى المحمرة بإيران، وقصلاً عاماً
فى بمباى، ثم وثب به المخفور له الملك فيصل لما شام فيه من الخير وأنس من سمات
الرشد فعينه متصرفاً أى مديراً، ثم صار مذكاً مديراً عاماً للبرق والبريد إلى ما بعد
حركة رشيد على بقليل، وخانه الحظ الذى كان يساعفه فنقصى عن الوظيفة واشتغل
بالمحاماة عامين ثم اختير للدعاية العامة

هذا مجمل عمله فى الوظيفة، وليس هذا بشىء فإن له مستقبلاً وأنه لمن الذين
يقول الإنجليز فيهم إنهم آتون لا محالة، وهو شيعى ولكنه معتدل جداً، وما علمت أنه
شيعى إلا مصابفة، فقد أراد بعضهم أن يتبهنى مخافة أن أغلط أو يزل لسانى بكلمة،
كأنما يعينى أن يكون المرء من الشيعة أو السنيين، لو كأنما أفرق بينهم أو أوتر
بعضهم على بعض.

وهم أحمد بك الأكبر والأول هو التعليم، وهذا عنده هو الذي ينبغي أن يكون له التقديم على كل ما عداه. ولقد ربي هو إخوته على نفقته أحسن تربية ويسر لهم أن يتلقوا من العلم في العراق وفي أوروبا وأمريكا أو أمريكا فقط فقد نسيت - ما يشتهون وإن كان الرجل غير ذي مال إلا ما يجنيه من كده، وكان له سائق أمي فأعفاه من بعض العمل وألحقه بمدرسة ليلية، ولم يزل ينعهده ويبره، حتى صار صانعاً ماهراً وميكانيكياً حائقاً، يشغل الآن وظيفة حسنة، واستخدم لسيارته - أو سيارة أخيه على الأصح - نقاء، وهو يعني بتعليم هذا أيضاً بتقنيته، حتى الحندي الذي كان يقف ببابه في إحدى "المصرفيات" أبى له أن يظل أمياً، فأنحاح له الكفاية من الفراغ ليتعلم، فارتقى وتقدم

وما أنس من شاب نكاه إلا نساء، ووجهه، وهو طويل البال واسع الصدر عظيم العلم، يتقبل كل رأي، ولا يضمن ما نشاء على مستحقه، والتشجيع على من هو أهل له، ثم هو بعد ذلك وقبله جم المروعة، واسع الخلق، منبسط اليد بالمعروف، رقيق القلب عطوف جداً، صحيح الإبراك، نافذ البصيرة، حصيف الرأي، دائم التفكير، وليعذرني القارئ فإنني مفتون بهذا الرجل وبشخصيته القذة وقد قلت لغير واحد من مواطنيه إن كل يوم يمضي يزيدني إعجاباً به، وقلت لصاحب السمو الأمير الجليل الوصي على العرش، وقد تفضل فسلطني هل أنا مرتاح وراعي؟. إن أحمد بك لا يدع لي شيئاً أتمناه أو أتطلع إليه، فإنه يسبقني إلى تحقيق ما يدور في نفسي

فقد انتهيت أن نتاح لي فرصة لزيارة الموصل وكركوك في الشمال، والنجف وكربلاء والطة والكوفة والبصرة في الجنوب ورؤية المكتبات الخاصة التي تكثر في العراق، وإذا به يجيء يوماً ويخرج منكورة ويقول إنه يرى أن أزد كذا وكذا إذا وافقت! وبعث ذات مساء إلى غرفتي فلقبت فيها قتراً عظيماً من التين التركي المعقم، وطلانة كبيرة من البرتقال والليمون الطور (ويسمونه نومي) فلما أصبحت سألته، فما كان يمكن أن يفعل هذا غيره - فقال إنه خشي أن أجوع في الليل، فإني قليل الأكل.

وسمعتني أقول لصديق إن جنبي أصيب ببرد على ما يظهر، فلما صعدت إلى

غرفتي لحق بي الحانم وهو يحمل (الزقة أمريكية) قال إن أحمد بك أرسلها إليّ،

ومرضت - أو اشتدت وطأة البرد على جنبي - وحررت أي طبيب أدعو فكلمت مدير الفندق، ورجوت منه أن يدعو لي طبيباً، فتخبر أحمد بك، فيبحث هو إلي طبيب حائز تخريره هو الدكتور ألبير إلياس مدير مستشفى الكاظمية، وأقبل هو بعده بدقائق، ويطبق في الاستسار، وفي معرفة ما يجب للعلاج بالتفصيل الوافي كلنما كان يموى أن يتولى هو تمريضي، ثم أبي - على الرغم من رفضي - إلا أن يسبق مقدم ممرضة تلازمي، وأضحكني، على الرغم من الآلام للبرحة التي كنت أكابد وأتشد وأنجلد لأخفي ما أجد منها أمامه، إن سمعته يقول إن الممرضة لا بد أن تكون جميلة فقلت: "يا أخي ما خير الجميلة لكلي، وما ضير الذميمة وأنا أكاد أفقد وعيي؟"

قال: "إن الجمال يشرح الصدر وينشط الأعصاب، ويعوّي الحالة المعنوية"

وأصر على رأيه، فجاءت ممرضة من أجمل من رأيت، ومن أهدأ من عرفت، وأنا مدني لها بكل ما فرت به من الروح والراحة، ويسرني أن أتوه بها وأذكر اسمها وهو كولو صالح، ومن الطريف أن أحمد بك غاب ساعة ثم عاد ليبري الممرضة ويستوثق من أنها جميلة حقاً، فلما رأها تطلق وجهه وفرك كفيه على عاتقه وقال: "زين، الآن اطمئن قلبي"

فلم يسعني إلا أن أضحك وكان يريد أن تبيت عندي أيضاً، ولا يكتفي ببقائها معي في النهار، فلبيت هذا كل الإباء، ولج ولجيت، فنزل على رأيي كارهاً

وفي مساء اليوم التالي لوصولي أُرسل إليّ أنه بحث إليّ غرفتي "بشيشة" فظننته يعني هذه التي دخنها الناس، فقلت: "لا أحبها".

قال: "كيف؟ ألا تحب الوردسكي؟"

قلت: "ولكنك تقول "شيشة"

قال: "شيشة معناها قنينة لوزجاجة"

وقال إن عنده غيرها، وإنها جميعاً لي، ففكرت قول الفارابي "بزجاجتين قضيت

عمري، يعني زجاجة الضر وزجاجة الخير، فقط.

”هوى عليك، فإن حصبي زجاجة الخير“

فأصبر على الزجاجات الأخرى

وهو أنيق الهندام في غير تكلف، يحب النظافة والنظام، ويكره الترهل والعوضى، ويحسن التدبير، ويجيد التنظيم، ويوزن ألفاظه بدقة، ولا يتكلم أو يعمل إلا بعد روية، فإذا هم بأمر مضى فيه، واحتمل تبعته صراحة وفي شجاعة، وكثيراً ما كان يخيل إليّ أنه متعب فإنه لا يمل العمل، ولا يكف عن التفكير، ولكنه لا يشكو ولا يتنمر، ولا تراه إلا باسم الثغر، حفيّاً بالناس، كرمياً معهم، محتلاًّ لهم، صابراً عليهم، عازراً لهم، ولم أسمعه قط ينهر أحداً أو ينطق بكلمة نابية، أو عبارة جافة، حتى حين يعيب شيئاً يعف لفظه، ولا يتناول أمراً شخصياً مذم أو قدح، ولا يهرس إلا للعام من الأمور، فهو مثال سام للرجل المهذب.

وسافرت إلى الجنوب لأنه أديف، فحرص على أن يكون سفري في مركبة نوم مكيفة الهواء، وكان يود أن يصحبني فحال عمله دون ذلك، فوكل مرافقتي إلى مراقب الإذاعة، ورتب أمر إقامتي في البصرة وما أراه فيها - سلفاً بالاتفاق مع متصرفها، وكان يتصل بالمتصرف كل يوم ليستشير، وكان يحضر عسراً إلى الفندق ويخشى أن أكون نائماً أو راغباً في الراحة، فيستلزي في ”الصالون“ ساعة أو ساعتين دون أن يخبرني، حتى أخرج من تلقاء نفسي

وما من شيء أحس مني رغبة فيه إلا عجل به مهما كلفه حتى صرت أتقي أن أنبس أمامه بكلمة قد تشي برغبة من الرغبات مخافة أن يرهق نفسه ويكلفها شططاً، ولو كان يختصني بهذه الرعاية لقلت ضيف يستقي به، ولكن هذا كان شكله مع الناس جميعاً، فلي العذر إذا تكبرته وأحبته، فما في الناس كثير مثله

رحلة العراق (١٩٢٨)

(٧)

وسمت لنفسى قبل سفرى إلى العراق نهجاً ليس من مدح النفس أن أقول إنه قويماً سديداً، وحرصت على التزامه بدقة فلم أنصرف عنه قط وإن كان ما يفرىنى بالميل عنه أقوى مما يشجئنى على تحريره والمضى فيه والإصرار عليه، ومع شدة تحفظى ويقتى فى تحرزى لم أسلم من العقب، جهراً ورسراً، فكيف لو أنى كنت أرسلت نفسى على السجىة، وتركت لسانى يدور بلا كايح، ورجلى تدب حيث ينبغى التوقى، وهوى يظفر بعقلى ويسلمه سلطانه؟ وقد تقضى أنى فى طماعى التحفظ وأنى اعتدت أن أعالب نفسى، وألفت أن أقهرها بغير كبير عناء، فكنت أشتهى فترهه، وأهم بالكلام فأعص سلسى، وتنازعتى تقضى أن أقول أو أعمل فلا أزل بها أحاورها وأداورها حتى أزين لها الكف، وأغريها بالانصراف.

والقاعدة الأولى التى وضعتها لسيرتى فى العراق أن أسمع ولا أتكلم، وليس معنى ذلك أنى قضيت على تقضى بالحكم، أو قطعت لسانى، ولكن معناه أنى اتقيت الفضول والتطفل، والدخول فيما لا ينبغى أن يعنىنى، والفضول فى جيلة الإنسان، ولكنه قبيح، وأثقل ما يكون الضيف حين ينحل نفسه حق صاحب الدار، ولهذا كان العراقيون جميعاً عندى سواء على اختلاف مراتبهم ومذاهبهم وأرائهم وأسنانهم أيضاً، فلا مفاضلة بينهم، ولا إثارة لبعضهم على بعض، ولا دخول بينهم فى أمر، ولا رأى فيما يكون منهم، فإنه شتمهم لا شتمى، وإذا شاء أحد منهم أن يفضى إلى بخيلة

(١٩٢٨) نشرت فى جريدة الملاح فى ١٠ فبراير ١٩٤٥، (ص ٢، ٤).

نفسه فهو حر، وليس في وسعي أن أصد أُنثى، ولا من الأدب أن أنهاء، ولكني أمر رأسي، وابتسم، أو أقطب، ولا أريد على "يا سلام" وشيء غريب" وسبحان الله العظيم" ولا أدع تعليقاً يتدهور على لساني.

وكانت أخبار مصر تنرى إلينا، وتحملها إلينا الصحف أو البرقيات، أما البرقيات فكل يوم، وأما الصحف فكل أسبوع، فيقبل على إخواني العراقيين يسألونني عنها، وعن مبلغ صحتها، وعن دواعي ما هو حادث، أو عواقبه، فأقول إني ههنا في العراق لا في مصر، فطمي علمهم، لا أكثر، ومن الضلال والحماقة أن أقول بغير علم، أو أقضي بغير بيئة، وأشهد أنهم كانوا يبدون غيرة شديدة على مصر تسر وتطرب، وحباً لها يقع من النقس أطيب موقع، فنشكرهم ولا أحل عقدة لساني، وإن كان ما أراء منهم من المودة والعطف والغيرة يدفع إلى التبسط وترك التحفظ

وقد وفد على إخوان كثيرين من زملائنا الصحفيين في العراق وراحوا يسألون عن كل شيء، ويطلبون أن أفصي إليهم (بالحديث) في كل موضوع يخطر على البال، في الأدب والسياسة والاجتماع، ولم يكن يسعني أن أريهم خاشين فإنهم زملائي، ولا من الحكمة - أو حتى اللياقة - أن أطبق فمى كل الإطباق فكنت أقول لهم، إني مجيبهم إلى ما يطلبون على شروط ثلاثة: أن لا يكون الموضوع شخصياً، وأن لا يمس شئون العراق، وأن لا يتناول شئون مصر الخاصة، فسألوا وسألوا عن الدكتور زكي مبارك وليلاه المريضة بالعراق، وعن الأستاذ توفيق الحكيم وعداوت المزعومة للمرأة، وعن عيون العراقيات وفتنتها، وعن الأدب الرمزي في مصر وممثليه، وعن أدباء مصر ولماذا لا يسخرون الأدب لخدمة المذاهب الاجتماعية والسياسية، وعن عشرات من المسائل الأخرى، جادين أو متفكهين

وأذكر على سبيل المثال، لا التقصى أني قلت لهم إن دكتورنا زكي مبارك من أعلم الأدباء بالأدب العربي وتاريخه وأوسعهم اطلاعاً عليه، وأكثرهم غوصاً فيه، أما السؤال عن ليلاه فالأولى أن يوجه إليه ويلقى عليه، فإنه أعرف بها

وقلت لهم عن الأستاذ توفيق الحكيم: وما أكثر ما أتعبنى في العراق وأخرجني

إلى الدفاع عنه وخاصة في المجائس التي يزينها الجنس اللطيف - إنه ليس عدواً للمرأة، ولا يمكن أو يعقل أن يكون عدواً لها، وإلا كان عدواً للحياة، وأخلق بهذه أن تكون سخافة مطبقة وجنوناً يتطلب العلاج، وكل ما في الأمر أن له رأياً في المرأة والرأي شيء، والعاطفة شيء آخر مختلف جداً، فقلنا مثلاً قد يسوء رأيي في أحد أبنائي، لسبب من الأسباب، فلا أعدّه صالحاً لعمل من الأعمال ولا يكون معنى ذلك أو مؤداء أنني أكره ابني وأضمر له عداً، ثم أن من التخليط أن يعدّ ذهاب المرء إلى أن للمرأة وظيفة خاصة غير وظيفة الرجل، سوء رأي فيها، إذ ليس في الأمر سوء رأي أو حسن رأي، وإنما هو من قبيل ما يسمى "توزيع الاحتمالات" وقد يوافق غيري على رأيه أو يحالفه فيه، وقد يكون ما يرى صواباً أو خطأ، وليس هذا بالذي له قيمة ولا هو يدعى أن يحمل على محمل المدلولة أو غيرها، لأنه اجتهد، ولكل امرئ حق فيه

أما عيوب العراقيات فما كنت رأيت منها شيئاً يستحق الذكر في ذلك الوقت الذي هجم فيه الزملاء على بأنسائهم، وعلى أنني أدنرثهم أنني لم أتحذ في هذا، فليس من الأدب أن يتفضل العراقيون فيأتنوا لي في محالسة أهلهم، فنخرج أتحذ عن عيونهم، ذلك سوء أدب رجوت أن ينزهوني عنه وقد فعلوا

وقلت في الأدب الرمزي في مصر كلاماً لا أدري أنصبت فيه أم ركبني الوهم، ذلك أنني أعنفد أن طبيعة مصر لا توافقها الرمزية، والروح المصرية واضحة منبسطة كأرض مصر وهي صعيد سهل ووطاء مسجج، ويراغ متكشف ظاهر، والمصري كأرضه، ينتج كما تنتج في سهولة وبساطة ويسر، وبغير تعقيد، وأست أعلم أن الرمزية سجت في مصر أو ريت فيها، وإذا كانوا يعنون الفكتور بشر فارس فإنه إذا صبح أن يسمى أدبياً رمزياً، فهو أوضح أهل هذا المذهب، والفكتور بشر فارس يستعمل الألفاظ بمعانيها الأصلية لا الشائعة أو المخلوطة، ومن السهل استجلاء معانيه إذا تذكرنا تنقيته في اختيار ألفاظه.

وكثيرون من أهل العراق يلحون في أن يكون للأدب عمل في مذاهب السياسة أو الاجتماع أو بعبارة أصح أن يكون الأدب داعية لمذهب سياسي أو اجتماعي وقد

رفضت هذا الرأي كل الرافض قلم ينهزموا ولحوا في كراتهم على فسائدت أحدهم - قل
لى بيتاً تحفظه من شعر المتنبي، فأتشنى بيته فى كافور

قواصد كافور توارك غيره - ومن ورد البحر استقل السواقي(١٣٩)

فسألت عما يعجبه من البيت فقال إنه شعره الثانى، فقلت له هذا مثال لما أعنيه
أن شعر المناسبات، أو أتبه، يذهب كله بنهاب زمنه، وإنما تبقى النظرات فى الحياة،
وقد قال المتنبي شعراً كثيراً فى سيف النولة وحروبه وفى كافور مانحاً وهاجياً، وأسنا
نقرأ هذا كله إلا من أجل ما تقع عليه من الحكم والأمثال التى اشتملت على حقيقة
خالدة أو نظرة نافذة، وقد نعى بغير ذلك من أجل اللغة أو التاريخ أو سيرة الرجل إلى
آخر هذا، ولكن الخالد من شعر المتنبي هو حكمته لا ما قاله فى المناسبات، ولو خلا
شعر المتنبي من هذه الحكمة لما عاب به أحد شيئاً، ولكن الأرجح أن يطول نكره لا أن
يستفيض هذه الاستقاضة العظيمة

ومذاهب السياسة والاجتماع كلها بنت أزمانها، فهى كالمناسبات التى كان يقال
الشعر فيها قديماً والأدب فرع من شجرة الحياة لا أنظمة الحكم أو الاجتماع

وضربت لهم مثلاً ما حدث فى روسيا وفرنسا من ثورات وقلت لهم إن الأبناء
الذين ظهروا فى روسيا فى عهد القيصرية لم يدعوا إلى مذهب ما، ولم ينكروا كلمات
الاشتراكية أو الشيوعية، ولطعمهم كانوا لا يعرفونها، وكذلك أبناء فرنسا قبل الثورة
الفرنسية لم يحملوا على المظالم ونظام الحكم أو غير ذلك، وإنما صوروا الحياة كما
رأوها وأحسوها وعرفوها، وبحثوا فيما هداهم إليه العقل، وقد كانت ثمرة الأنبياء فى
البلدين تفتح العيون وإرهاق الإحساس، وتعميق الشعور، وترحيب اهات النفوس،
فتهيأت الأمتان للتطور، وقال أحد المؤرخين إن الفرنسيين فى زمن الثورة كانوا أصليح
حالاً منهم فى عهد لويز الرابع عشر وكانت المظالم أقل، ولكن إحساسهم بما كان
واقعاً عليهم من الظلم على قلته، كان أقوى، فلم يطبقوا الصبر كما أنطقه آملهم
وأجدادهم الذين كانوا أسوأ حالاً وأقل إحساساً

(١٣٩) من الطويل (المحرر)

رحلة العراق (١٣٠)

(٨)

كان أحمد بك قد أعد لي، قبل وصولي، بطلقة دائمة لشهود جلسات البرلمان، وكانت دورته الجديدة تؤكد أن تقني، وهو يقوم فيما كان قديماً قصيراً ثم مقبور له الملك فيصل، والقاعة التي يجتمع فيها المجلس النيابي مسطيلة والمقاعد على اليمين واليسار، والشرفات تواجه منصبي الرئاسة - كما هو الحال في المجلس النيابي السوري - وقد ذهبت إلى المجلس مع أحمد بك في سيارته، وكان يلبس سترة سوداء وينظوياً مخططاً، أما أنا فكانت في ثيابي العادية التي لم أحمل معي سواها، وصعدنا إلى الشرفة، وقعدنا في الصف الأول من المكان المفرد لمن وصفهم لوح مطبق بأنهم "كبار الزوار" فجاء من نقلنا إلى مكان "الوزراء السابقين" فقال أحمد بك "تريدون تسوونا وزراء؟"

قلت "آبشر إنن".

وكان الأعيان كما يسمون الشيوخ والنواب يدخلون ويجلسون حيث شاءوا، ورأيت أناساً أردنيهم غريبة فسألت عنهم أحمد بك فقال إنهم النواب الأكراد، فعددت ستة ضروب من ثيابهم.

وفتح باب عريض خلف منصة الرئاسة فنخل سمو الأمير الوصي يتبعه الوزراء والماشية، وكان في برزة عسكرية، وقبعته في يده، فوضعتها على المنصة، وشرع يلقي

(١٣٠) نشرت في "البلاغ" في ١٥ فبراير ١٩٤٥ (ص ١)

خطبة العرش وكان يعملها معه، ونحن وأعضاء البرلمان وقوفه حتى انتهى منها متناول قبعته ودار فخرج في سكون كما دخله وصعد أكبر الأعضاء سنًا فتولى الرئاسة الوقتية بعد انصراف الأعيان، وشرع المجلس في انتخاب الرئيس، ونادى السكرتير أسماء النواب واحدًا واحدًا، ليحصى الحاضرين، وكان يدعوهم بأسمائهم مجردة

وسألني بعضهم عن نظام الافتتاح في مصر، فقلت إنه مختلف، ومراسمه لا تحلو من أهبة وتعقيد، فموكب جلالة الملك عظيم فخم، والمركبة التي يستقلها آية من آيات الفن، والجيش يصطف على الجانبين، والطائرات تطلق فوق الركب، والمدافع تطلق، يذأًا بالوصول والانصراف، وأعضاء البرلمان يرتدون ألبسة رسمية، ويقف الوزراء والأمراء والقيف من الشيوخ والنواب لاستقبال الملك، ثم يدخل جلالته يتبعه الأمراء والوزراء والحاشية، فيحى الأعضاء ويجلس ويدعوهم إلى الجلوس، ثم يتناول خطبة العرش من رئيس الديوان ويصلحها إلى رئيس الوزراء فيقولها ثم يربها إلى جلالته فيعبدوا إلى رئيس ديوانه ويهتف له الأعضاء . إلخ.

وقد جرت العادة في مصر أن يقرأ رئيس الوزراء خطبة العرش لأنهم طويلة تسعرق تلاوتها ساعة لو نحوها، فليس من اللائق أن يظل الملك واقفًا ساعة يتلو خطأ، ولا من الرحمة أن يضطر الأعضاء أن يقفوا لوقوفه كل هذا الزمن، وفيهم الشيخ والضعيف، أما عنكم فالخطبة قصيرة لا تتجاوز عشر دقائق، وقد أثر جلالة الملك فيصل أن يتلوها هو لأنه كان مؤسس أسرة وبولة، وكان يعتمد على شخصيته في توطيد دعائم الملك والدولة، فصار ذلك سنة، ولا حاجة بنا في مصر إلى مثل ذلك لأن الأسرة ثابتة الأساس من أيام محمد على الكبير، والدولة مستقرة الأركان والبنیان

وقد ألغيت الانقلاب المدنية في عهد وزارة المرحوم يس الهاشمي، فصار الناس يدعون بأسمائهم ويتناولون بها من غير تلقيب، إلا على سبيل المجاملة ومن قبيل الأنب، وقد فشا ذلك حتى صار كل امرئ يخاطب بقلب السيكرية، ولفظ السعادة، وكان يفسحكني أن يخاطبني الناس بقولهم "سعادة الأستاذ" وأن يثبتوا ذلك في عنوان

الرسائل التي تردني، حتى في الصحف كانوا يكتبون "سعادة الأستاذ المازني" فابتسم وأقول لإخواني "من فضل العراق علينا أن صرنا فيه من أصحاب السعادة"، ولم يكن هد، يسرني فإني أكره الانقلاب ولا أرى لها معنى، أو مسوعاً معقولاً ولا أحسن أن أخاطب الناس بها، واستثقل أن أقول لأحد "سعادتك" أو ما يجري هذا المجرى من العبارات، وأحس حين أقول لأمري "يا معادة الياسا أو اليك" إني سلبته شخصيته، حين أهملت اسمه وأسقطته وأحقت بطبقة أو طائفة يتسرب فيها ويغيب، فيفقد ذاته الخاصة التي يميز بها ويتفرد، ولكن ماذا نصنع والناس يطيب لهم أن يتمبروا على هذا الوجه الذي يفقدهم وجودهم الفردي وشخصيتهم الخاصة؟

وسألني بعضهم لماذا لم أشرح نفسي قط لعصوية البرلمان؟ فاثرت الصراحة وقلت لهم إن لهذا سببين. الأول، وهو أقل الاثنين قبيحة، أنني أنفر من الاجتماعات الحاشدة، ومن الاضطراب إلى مصانعة الجماهير وتلقفها والكذب على الله والناس بالوعد الجزاف، وليس لي مال أنفق منه على العناية الانتخابية ولو كان لي هذا المال لضمت به عليها.

والسبب الثاني وهو الأهم أنني لا أوافق على اقتباس المساتير بحذافيرها من الغرب على نحو ما فعلت مصر والعراق وسوريا ولبنان، وأني لا أرى أننا قد أقدنا من ذلك إلا المظهر دون الجوهر، ولست من دعاة الحكم المطلق فإني أمقت، ولو قام في مصر ثورت عليه، لكني من دعاة التطور الطبيعي، فليكن لكل بلد من بلادنا دستوره على أن يكون ملائماً لأحواله الخاصة ودرجه ثقافته وتربيته السياسية.

وقد فات أوان الدعوة إلى رأيي هذا فلا خير في الإلحاح به على أحد، ومن الحكمة تقبل ما صار أمراً واقعاً ومعالجته حتى يصلح، ووجه العلاج الذي يعن لي هو أن تتضافر الأمة على تيسير التطور الطبيعي للنظام الدستوري وإتقاء ما يتخذ على هذا التطور الطبيعي موجهه، والملة الكبرى عنكم ونحن هو فشو الجهل وضعف التربية السياسية، ومن ظلكم الخاصة كثرة تدخل الجيش أو قايته في أمور الحكم، وعدم وجود الأحزاب السياسية، وقلة الاستقرار، ومن علنا الخاصة عدم تكافؤ

الأحزاب في القوة، ومن أجل هذا نرى أن الممارسة الحقيقية كثيراً ما تكون خارج البرلمان لا داخله كما ينبغي أن تكون. وأن الوزارات عندما تدخل المجلس النيابي، ولم يحدث أن مجلساً أسقط وزارة، وهذا راجع إلى فقدان التوازن كما قلت، وفقدانه مؤداه فقدان الاستقرار، على أن الصير طيب والأمم تتعلم من أغلاطها، ولا بد للطفل من التعثر حتى تقوى رجلاه ويتزّن ويحسّن المشي، وليس من الخير في شيء أن نتعجل شيئاً قبل أوانه، فإن التعجل يورثنا قلقلة ورجات نحن في غنى عنها وفسمة الزمن أمام الأمم الطويلة على خلاف الفرد فإن المقصود له من ذلك يسير.

كذلك كنت أتكلم إليهم فيصغون ولكن أكبر ظني أنهم ما كانوا يفتتنون فإنهم أمة فتية، ومتى كان الشباب يحسن الصبر أو يسكن وراء الأسداد وهو عاب طام؟

رحلة العراق (١٣١)

(١٠)

أذنت الحديث الأول من محطة بغداد بعد أيام من وصولي قضيتها في الراحة لترجع إلى نفسي بعد الذي قامسناه في الصحراء، فلما خرجت من استديو المحاضرات، عدت إلى غرفة المراقب العام وكان ينتظرنى معه فيها الأستاذ أحمد زكي بك الخياط مدير الدعاية العام ووكيل الداخلية الذي عرفت القراء به بعض التعريف فجلسنا نشرب الشاي وتحدث في أمور شتى، وفي مأمولنا أن ينقطع المطر وينقلم الصعب، ولكن الأمر طال فقلنا نخرج وأمرنا إلى الله وإذا بالباب - تحت السماء - ممتلئ من الشبان، وكانوا وقوفاً ينتظرون ولا يتكلمون فقال أحمد بك "انظروا هؤلاء الشبان استمعوا إلى حديثك في مقهى قريب، ثم خفوا إلى دار الإذاعة ليروك"

فأخذتني خفة من الزهو، ما لشت أن نهبت عنى وجل مطها الإشفاق على هؤلاء الشبان الذين وقفوا في المطر على حين كنا ننفذ ونشرب الشاي ونزجي الوقت بالكلام، فحييتهم وأعربت لهم عن شكرى وأصغى لما تعرضوا له من البرد والبال.

وركبنا سيارة أحمد بك - أو سيارة أخيه كما لا أمل أن أقول - وعشنا بها إلى الفندق فقلت له في بعض الطريق.

إن لى أكثر من ثلاثين سنة وأنا أكتب وأنشر وأحاضر وأتحدث، في مصر، فلم أر شيئاً كهذا، ولست أعد هذا مظهر فتور عن أدبى، ولكنما أرى أننا في مصر نتلقى الأمور بشئ من التساهل، أما في العراق فإن أهله يتلقون الأمور بجد صارم نستفريه

(١٣١) نشرت في جريدة "البلاغ" في ٢٢ فبراير ١٩٤٥ (ص ٢، ١). ولا يوجد فصل يعمل رقم (٩) " (المحرد)

نحن المصريين ونراء مجاوزاً القدر الواجب، ويزيد في استغرابنا أنكم أهل ظرف، وفيكم فكاكة وأخلاقكم واسعة.

وقد تكررت هذه المظاهرات عقب كل حديث تقريباً، فرجوت من دار الإذاعة أن يترفقوا بهؤلاء الشبان ويدخلوهم في بعض الغرف وقاية لهم من البرد والمطر، وكان أحمد بك عظيم السرور بهذه المظاهر، لا لأن فيها تحية لى وحفاوة بى، بل لأنها إيدان بأن الشبان يقبلون على الاستماع لهذه الأحاديث ويعنون بها، وهذا ما يبغيه، فإن همه الشبان وتوجيههم إذ كانوا هم مناط الأمل.

وتوات بعد ذلك الصعوات إلى زيارة المدارس، حتى عدت لا أدرى أيها أجيب وأيها أعتذر من عجزى تلبية، فوكلت الأمر إلى أحمد بك يرتبه كيف يشاء، وكانت كل دعوة معناها القاء محاضرة طويلة فوجيزة، وأين الوقت الذى يتسع لهذا كله؟ ومن أين أجى بالكلام وأسبح به على هذا النحو المطلوب؟ وأشفقت على نفسى، فإنى لم أتعود الارتجال، وينتهى لا تصغفى، وكثيراً ما تخوننى، وقد ألفت أن أفكر على مهل، وفى سراج ورواح، وأن أكتب ما يدور فى خاطرى، وأن أتوخى الدقة فى اختيار اللفاظ للعبارة عن المعانى، ولا يتفق هذا وما يتطلبه الارتجال من سرعة خاطر وحضور ذهن وتتابع الكلام فى عجلة ولو كان هنراً محضاً، ولا وقت للتهيز وإعداد كلمات مناسبة

وأسلعت الأمر لله مرة أخرى وسألته المستر وتجنبنى الفضيحة

وقد قال لى الكاوثيل سكيف وهو أستاذ فى جامعة فؤاد ومختوب فى العراق
لمهمة ثقافية - وقد سمع بما أتجشمه:

إن هذا مرهق، ثم أن لك سمعة أنبية من حقه وواجبك أن تحافظ عليها

فقلت له: وماذا أنسنع؟ لا يسعنى أن أرفض، لأنه إهانة لمن يريد أن بكرمتى ثم أنه يسرنى أن تتاح لى فرصة لزيارة المعاهد الطمىة والوقوف على درجة الثقافة فيها، وقد حُفَّت الجنة بالمكاره كما تظم، فلا مفر من أن أسمع خطباً وألقى خطباً والله المسئول أن يعيننى

ولكني مرضت قبل أن أروى هذه المعاهد، وأسمع خطب النرجيب فيها وألقى ما يلهمني الله إلقاؤه، وحال المرض دون إلقاء محاضرة عامة كتبت أعدتها، ولهذه المحاضرة قصة لا بأس من إيرائها. ذلك أتى وعدت أحمد بك أن ألقى محاضرة عامة بقاعة الملك فيصل واستعملته ريشما أهندي إلى موضوع موافق وأفرغ من بعض الأحاديث التي جئت لإذاعتها، وفي اليوم التالي حضر عندي مدير التعليم الثانوي، وكلمني في أمر محاضرة عامة ألقىها بقاعة الملك فيصل، هرويت له ما دار بيني وبين أحمد بك في هذا الشأن وأطلته عليه، وفي الصباح قرأت في المصحف ما يشبه أن يكون بياناً مؤرعاً عليها، وكانت عبارته حافة جافية، وجاء فيه أيضاً أنني وافقت على أن يكون موضوع المحاضرة "رسالة الأديب في الشرق العربي" وليس هذا بصحيح، فدهشت واستعقلت صيغة الخبر، وكلمت أحمد بك في هذا، فكان مثلي تعجباً واستهجناً لعبارة الخبر، ويظهر أنه كلم المدير، فقد خاطبني بالتلفون واعتذر وأكد لي أنه لا يعلم كيف نشر الخبر، ولكنه مع ذلك أبدى استحسناته للموضوع فقلت له

"يا سيدي، هذا موضوع يعجز عني القلم عنه، فلست أعرفه للأديب أو الأديب رسالة خاصة في الشرق العربي تقصر عليه وحده دون غيره من رقع الشرق أو الغرب، فإذا كان الموضوع يعجبك فإني فيه أنت محاضرة، ومنك نستفيد".

وتحدثت المطاولة والتصوف بعد ذلك، حتى لقيت المدير بعد أسبوع هي حفلة أقامتها السفارة البريطانية، ودعيت إليها، فأتعد الكرة، فتعدت ما قلت له، وكنا مدعوين في تلك الليلة إلى حفلة بنادي القلم، وله قصة أخرى سأقصها فيما بعد، فتوسل بأحمد بك وساقه علي، وأحمد بك أثير عندي عزيز علي، فقلت له

آما الموضوع فالمرأة وأثرها في الأمة والأديب، وأما الموعد فانتظا عليّ.

اتفقا على يوم الاثنين، وأعدت المحاضرة فإذا بالموعد يرجأ إلى الأربعاء بغير علمي أو علم أحمد بك، فلو لا أننا سلكنا ظهر الاثنين، لذهبنا إلى القاعة لاجدها خلوية وأبوابها موصدة، على أنني أغضبت عن هذا، فإن الغتاب أو الاحتجاج أوانه الذي لن يضيع، غير أنني مرضت مساء الاثنين، وأرسمى الطبيب الفراش، فترجى كل شيء.

وسرني على الخصوص أن المحاضرة أُرِجئت إلى أجل غير مسمى

وهنا ينبغي أن أنكر مع الشكر أن معالي الدكتور الأومسي وزير المعارف تفضل
فعمادتي مرات، وزاد قبعت إلى الطبيب يهودني ويسألني هل أحقاج إلى طبيب
أخصائي، فقلت أمازحه:

"نعم، فإن طبيبي يقول لي إن كبدي متضخمة فإذا كان عندكم طبيب يستطيع أن
يعيرني كبدًا سليمة، فأني أكون شاكرًا له"

فأضحكني أنه قال بلهجة الجد "زين" وانصرف!

ولا أدري إلى الساعة على أي محل حمل كلامي

وقد شفيت بعد أيام، ونهب التضخم أو الاستقان، ونهبت إلى البصرة، وقصمت
الكبد بالأزمة، فكشفت عن حالة طبيعية.

ولكن المرض وإرجاء المحاضرة إلى ما بعد لويتي من البصرة نفعاني، فقد كان
ذلك هو الذي يسر لي أن أرى الجنس العراقي اللطيف.

رحلة العراق^(١٢٢)

(١١)

بعد أن أبلت من مرضي، ببغداد، ورجعت إلي نفسي، واستأنفت التحدث في الألب من محطة الإذاعة، دعيت إلى زيارة دار المعلمين العالية، وفيها طائفة متخيرة من سفوة الأساتذة المصريين، والدار بناء حديث في حي "الوزيرية" وهو حي أشباه، أو خط الطريق منه وإل تركي كان قبل ذلك وزيراً، كما حدثني أحمد زكي بك الخياط، وهو عالم بخطط العراق.

وفي الدار قاعة فسيحة مستطيلة الشكل، في صدرها منصة عالية - أو ما يشبه المسرح - مرقاتها من خشب، تقابلها وتواجهها في الطرف الآخر من القاعة شرفة واسعة كالجس الطيف إذا شئت أن يحضرن، والقاعة سمعتها وظلها من وسائل التفتة، باردة يقف فيها البدن، ومثلها القاعات الأخرى التي اتفق لي أن أزورها في بغداد وغيرها، كقاعة المحاضرات في نادي إخوان الحرية وقاعة دار المعلمين الابتدائية وقاعة نادي المعلمين، وقاعة المدرسة الثانوية بالبصرة، وكان البرد أخوف ما أخاف في تلك الأيام بعد أن أقبلت إلى البراء وزاد خوفي أن رأيت بعض ألواح الزجاج - ويسمونه الجام وهي قارسية على ما أظن - في النوافذ العليا مكسورة، ولكن توكلت على الله وسألته السلامة.

(١٢٢) نشرت في "البلاغ"، في أول مارس ١٩٤٥ (ص ٢).

وقمنا إلى القاعة يعد أن استرحنا في غرفة العميد أو نائبه على الأصح - فقد كان العميد الدكتور عقداوي قد سافر إلى مصر ليشترك في المناقشات الثقافية - وإذا بها غاصصة بالطلاب والطالبات، وقد علمت أن في الدار مائة وعشرين طالبة، ونحو ثلاثمائة من الطلاب، أو لعل هؤلاء وأولئك ثلاثمائة فقد نسيت، والطالبات يرتدين ما ترتدى المصريات، ويسفرن كسفرنهن ولكن بعضهن يتخفن فوق ألبستهن ما يسمى "العباءة" أو "العباءة" وهي ملءة من حرير أسود رقيق ذات لفقين، مشقوقة المقدم، تشبكها الفتاة أو السيدة بشعرها وتسدلها على الكتفين والظهر إلى القدمين ولا تستر الوجه أو الصدر، فما أدرى ما خبرها؟ إنها تريد لا فائدة منه، وأكثر من رأيين لا يخرج إلى الطريق إلا بها وحدهن فتاة إيرانية أنها سافرة كالإيرانيات جميعاً، ولكنها لما دخلت المدرسة الثانوية للبنات اضطرت أن تتخذ هذه الملءة لأزيمياتها ألحمن في زجرها، وقد رويت هذا لسكرتيرتي - أي والله كانت لي سكرتيرة في بغداد!! وما هي بسكرتيرة، وإنما هي شقيقة صديق عزيز كان كثيراً ما يضطره عمله إلى السفر من بغداد فينيبها عنه في مرافقتي إلى حيث أحب، وكانت ترعاني وتبرني [وتوفر] لي الراحة، فتتولى عني الرد على التليفون والاتفاق على مواعيد المقابلات، وما يجري هذا المجرى، ورأى ذلك رجال الفتق فزعموها سكرتيرة، جزأها الله عن خير الجزاء فأبى عاجز عن شكر مروعتها، فقد كانت على كونها أصغر من بعض بنى، تعمرنى بمثل عطف الأم وحناها - أقول إني رويت لها ما حدثتني به الإيرانية وسألتها عنه فقالت إنه لا يمكن أن يكون صحيحاً فما من فتاة حبيبة في العراق إلا وهي تستقل هذه الملءة وتبرم بها

وكان لا بد أن أتكلم في هذا المجمع، فما دعيت إلا لأقول شيئاً، وإلا فلسفت بالمازني" كما قالت لي مرة إحدى المعلمات فضحكت، وقالت لها إن المازني اسمي، وليس بلقب لي! وأنا امرئ خفيض الصوت، وإخواني يشكون من خوفه ويرفعه جهد

يتعيني، وقد خفت أن لا يسمع ما عسى أن أقول إلا الأقربون فلو عرت إلى سكرتيرتي العزيزة أن تكون في وسط القاعة، وأن تشير إلى برفع الصوت إذا رآته لا يخرج، ففعلت وجعلت تشير - على قولها - وأنا لا أرى!

وجلست على المنصة بين إخواني المصريين الذين حفوا بي، تأله ما أطيبهم وأكرمهم! ولما أن أن أتكلم، خطر لي أن ألق ما أتحدث به إليهم، قصة تجربة لي في آخر عهدى بالتعليم، وكنت قد توليت أمر مدرسة ثانوية حرة، قبل الثورة المصرية بشمانية شهور، فالتعيت السنتين الثالثة والرابعة، واكتفيت بالأولى والثانية، والسنة تسمى الصف في اصطلاح البلاد العربية، وجمعت إخواني المعلمين وقلت لهم إنني لا أؤمن بالعقاب الماكوف في المدارس كوسيلة من وسائل التعليم أو التروية، وأني زاولت التعليم عشر سنوات لم أحتج فيها مرة إلى معاقبة تلميذ، ولم أر من تلميذ ما يسوئني أو يثقل عليّ، وإن ما وسعني على ضعفى يتبغى أن يسع غيري، فلا عقاب في مدرستي، ومن كان لا يستعني عن العقاب فاولي به أن يعمل في مدرسة أخرى، فإنما هؤلاء أبناءنا، وقد جاءوا ليتعلموا، وهم صغار وأغرار فمعقول أن يصبر عنهم ما لا نحمد ولا نرضى عنه نحن الكبار، فإننا نخطئوا أو قصرنا، أو لمبوا، أو فعلوا ما يفعل الصغار من ضروب الشقاوة أو المصيبة فهذا غير مصتغرب ولا ينبغي أن يكون مصتغرباً، فإن المفروض أن العلم والتهذيب [ينقصهم]، ومن سوء الرأي في ملتي أن معاقبهم على شيء من ذلك، وواجبنا أن تفرق بهم، وأن تعاملهم بالصنن وأن نجعلهم يثقون بعطفنا عليهم وحبنا لهم وأتينا نريد خيرهم، وأن نمودهم أن يفكروا بعقولهم، وينظروا بعيونهم وأن نشم فيهم الشعور بقهم رجال وأن عليهم تبعات لأنفسهم ولبلادهم، وأن نعلمهم أن الحقوق والواجبات مقترنة غير منفصلة، فكل حق يقابله واجب لا مهرب منه، وأن نمودهم أن يتولوا أمورهم بأنفسهم، ومن أجل هذا، لا عقاب في مدرستي، ولا بواية توصد قمر زهد في التعلم، وبشاء أن يخرج، فله ذلك وإن يكون هذا إلا ننبأ نحن لأننا نكون قد عجزنا عن تحبيب العلم إليهم، وأخفقتا في مهمتنا، وسدق التلاميذ يضارون حكومتهم ليتدربوا على النظام وإقامة العدل ولسترام أنفسهم

وكان عدد التلاميذ الذين اكتفيت بهم لا يتجاوز مائة وستين، وهو عدد قليل، وكنت أؤثر أن يكون أقل - في البداية - لولا حاجة المدرسة إلى المال فما كان لها دخل

خاص، ولا كان لنا فيها معين، وأعتقد أن التجربة نجحت، فقد حسنت أخلاق التلاميذ، وواظبوا على المضمور فلم يكن يغييب منهم في أى يوم أكثر من واحد، وقد جاسى مرة تلميذ وهو محموم فسأته لماذا جاء وبه هذه الحمى؟ قال:

‘خفت أن تنظن أنى تخلفت لأهبي’

قلت: لا ينبغي أن تخاف شيئاً من هذا، فلنا نعهد فيكم الصديق ولا نعهد فيكم الكذب، ودعوت له بالطبيب، ووكنا به من إخوانه من يعنى به ويقوم على تريضه فقد كان يعيش وحده

وظللنا على هذا الحال راضين مفتبينين مستبشرين بنجاح التجربة ثمانية شهور، نؤاكل التلاميذ ونخالطهم مخالطة الأخوة الكبار أو الآباء للأنساء ونتحرى معهم كل ما تقتضيه التربية الاستقلالية، ثم قامت الثورة المصرية، فنهضت الدراسة وتركنا أنا والتعليم، لأشترك في الحركة الوطنية بقلمى، وهو كل ما أملك، وراوات الصحافة، فلم يتيسر أن أمضى في التجربة إلى نهايتها، فلا أدري ماذا كان يمكن أن تسفر عنه لو زاد عدد التلاميذ واتسعت المدرسة؟

كان هذا مدار حديثي إليهم، وقد تبنت فيما بعد أن الطالبات كن أكثر عناية به، من الطلاب، وعسى أن يكون السبب أنهن بطبيعتهن أميل إلى الرفق، وأن العنوف فيهن فطرة، وأن عاطفة الأمومة من أقوى عواطفن، والله أعلم.

وقد طافوا بى بعد ذلك في المدرسة وأروني بعض ما فيها، وتبينت أنهم يجرون على ما يشبه النظام الذى وصفته في كلمتى!! وأنا أحسبني جئتهم بجيد!! وانصرفوا وبقى خجله فقد ضيعت وقتهم بفرورى؟

وقبل أن أغادر القاعة قدم لى طالب مبرورة لى رسمها بالقلم الرصاص وأنا أتكلم، وأشهد أنها خير من الأصل.

رحلة العراق^(١٣)

(١٤)

رأينا أن الأوفق، وقد بنا موعد السفر إلى الجوب، أن نختصر الحفلات، لا بالغائها فهذا عسير، وفيه سوء أئيب، في حق أهل المروعة والكرم، بل يضم بعض الحفلات المدرسية إلى بعض، وإرجاء الفردى أو الشخصى منها إلى ما بعد الإياب، وهكذا اشتركت دار المعلمين الابتدائية ودار المطاعم في حفلة شاي واحدة قدمنا موعدها لنفرغ منها قبل الغروب وانقاء لبرد الليل حرصاً على صحتى القالية!! وما كنت أنا المشير بالتقديم على رغبتي فيه، تخرجاً من الانتقال على الناس وإكراههم على الحضور بعد الغداء بقليل بل أحمد بك زكى مدير الدعاية الذى كان كلنا يقرأ ما فى نفسه بغير كلام، حتى لقد زلت إيماناً بأن فى الومع أن يتعاهم الناس بغير أداة للغة، وما لبثت أن جهرت بهذا الرأى فى حديث مذاع نعتت فيه إلى أن الإنسان يرتقى وي طرح اللغة ويمتاز منها موجات نفسية تقنيه عن كل كلام ولا عجب فإبه من طينة الأرض، وفيه كل عناصرها، ففى مقدوره متى استطاع أن يحسن الانتفاع بما بنى عليه من المواد أن يجعل من نفسه محطة إرسال واستقبال فى أن معاً، ولا أدري ماذا كان وقع هذا الرأى فى العراق، وقد قلته فى مصر من قبل بغير توسع، فمر به القراء من الكرام ولم يعيروه التفاتاً كتته من اللغو ولكن صديقى السيد فخرى شهاب حدثنى أن هذا الرأى جاز فى نفسه أيضاً.

(١٣) نشرت فى "البلاغ" فى ٥ مارس ١٩٤٥ (مس ٢، ٤)

ودار المعلمين الابتدائية من أكبر دور التعليم في العراق، بل لعلها أكبرها جميعاً، ولكنها كثيرها لا رعاية فيها من البرد، وقد أشفقت على الطلبة ورثيت لهم وإن كانوا فتياً أقوياء لا يضيرهم ما يضير مثلي في كهولته، واجتمعنا على مائدة الشاي الحافلة - المعلمون والمعلمات وعميدتهن السيدة أمة سعيد، وكانت قد دعتني إلى الشاي فتخلفت لمرضى، وكان الرجال يقفون في ناحية والمعلمات في ناحية أخرى، وإن كن سافرات، ففتمتهن السيدة أمة إليّ، وفرقتهن بين الرجال بلباقة، ولم أستقرب هذا الخجل من الفريقين فلن العهد بالسفور واختلاط الجنسين قريب، وقد وجدت بين المعلمات حفيظة لصديق لي من أساطين الطم والتربية في الشام - وأكبر ظني أنها بنت أخيه أو أخته فقد نصيت - قشظت بالحديث معها حتى دعينا إلى البخول إلى قاعة الاجتماع.

وهي أيضاً مستطيلة رحبية وعالية السقف، وباردة، وفيها الشرفة المصهودة للمتقبات اللواتي لم يجرؤن على السفور وسمعت تحية كريمة من طالبة نكية عرفت فيما بعد أنها بنت أديب شاعر عراقي ظم أستقرب منها حسن البيان وإحكام الأداء واجتتاب الفضول، ثم أنشد طالب قصيدة تطلعت ببيت منها وأدبرت الحديث عليه، فما كنت أعدد شيئاً، ومعنى لأفعل ذلك وأنا أنتقل من حفلة إلى حفلة ومن اجتماع إلى اجتماع ولا أزال أزور وأزار حتى يشير على أحمد بك بأن أهرب إلى غرقتي فثام؟

وقد غاب عني معظم ما قلت ولكني أنكر أن اللفظ كان كثيراً في تلك الأيام بالمؤتمر النسوى الذي عقد بالقاهرة، وقرارلته التي حملها إلينا البرق، ومن بينها ما قرره أو طلبته من حذف نون النسوة، وكذا على الشاي نتذكر هذا الحديث، وكانت الشرفة غامرة بالسيدات ونصف الحضور في القاعة من الطالبات فاستطردت إلى هذا الموضوع وأقصيت برأيي فيه مازحاً وجاداً، وأذكر أنني قلت إن المطالبة بحذف نون النسوة أقل ما فيها أنها تنطوي على إغفال تام لحقائق الحياة، والتقيث والتذكير موجودان في كل لغة في العالم حتى في اللغة الإنجليزية التي هي أقل اللغات تفرقاً بين الجنسين، وفي بعض اللغات تذكر وتؤنث أداة التعريف وهذا طبيعي فإن الجنس

ليس سيان لا فى الخلق ولا فى الوظيفة، ولو حذفنا من كل لغة علامات التثنية لما أمحت الفروق بين الرجل والمرأة، والدعوة إلى المساواة خطأ فى خطأ، وسوء فهم بلا أدنى شك، فإنها أولاً مستحيلة، ثم إن المهم والأولى أن يبلغ كل جنس كماله وأن يبدى وظيفته على خير وجه، وأحسن أو أرقى صورة، ولست أنكر على المرأة أن تتحرر من ريقه الرجل، ولا أنا أنباه عليها، بل أنا نصيرها إذا وصعها ذلك، ولكن عليها هي أن تحرر نفسها، فما نستطيع نحن الرجال أكثر من تعليمها وتنقيتها وصقلها ومعاملتها معاملة إنسانية، واحترام ما لها من حقوق، والباقي عليها هي، إذا كان يدخل فى طاقتها، وأعريت عن شيء من الشك يخالجتى فى ذلك، وقتل إبنى حرصت فى السنوات العشرين الأخيرة على قراءة الألب النسوى فى القرب على الخصوص عسى أن أعرف رأى المرأة فى المرأة، وصورتها هي فى نفسها وفهمها بطبيعتها، فلم أخرج بشيء، وعلت ذلك بأن المرأة حتى فى أرقى دول الغرب ما زالت خاضعة لسلطان الرجل وهبها غير خاضعة له، فإنها لا تستطيع فى بضع عشرات من السنين أن تتخلص وتتحرر مما أوثقها الخضوع له عشرات الآلاف من السنين، فهي ما انفكت تنظر بعينه وتفكر بعقله، وتصدر عن وحيه، ولا سبيل إلى التحرر التام - إذا كان إليه سبيل - إلا بعد زمن طويل كاف تبلغ فيه مبلغه - إذا أمكن - من العقل والقوة وتستغنى عن حمايته، وتقاتل دفاعاً عن نفسها وحماية لئبها ونوداً عن حقيقتها وحيوتها كما يقاتل هو دفاعاً عن نفسه وعنها، بل باغياً وظالماً أيضاً، فإذا أمكن أن تفعل هذا وقبرت عليه، فإن لها يومئذ أن تزعم أنها مساوية للرجل وتد له فى كل شيء، على أن ذلك - إذا كان - لم يمنع أنها تستظل أناة لحفظ النوع، وأن وظيفتها فى الحياة خلاف وظيفته، وأن جسمها غير جسمه فى تركيبه واستعداده وفيما هو ميسر له، وتعجبت للمرأة تتحمس للمساواة المستحيلة، وتصفق للمؤتمر النسوى فى مصر، وتلرب لقراراته، وتغضب إذا ضحكنا من هذه القرارات العجيبة، وهي لم تزل السقور، ولا تزال تخجل أن تبرز للرجال مكشوفة الوجه، بل تخاف أن تبدى له فهي ما فقت لا تملك من أمرها إلا ما يأتى لها الرجل فيه، وقدرتها على المقاومة هي قدرة الجبران الأربعة التي تحيط بها فى دارها، أو قدرة الرجل على حمايتها، ومناعتها النفسية أو الأخلاقية ما انفكت

مستعدة من هذه الحماية، وضربت لهن مثلاً فقلت إني كنت في صدر حياتي أركم كثيراً، فلما عابني الطبيب مرة في أول الصيف، ورأى كثرة ما على يدي من الثياب، قال هذه هي الآلة، فإن ثيابك هي التي تقلوم المؤثرات الجوية لا بدك ويجب أن تعود بدك المقاومة والصيف فرصتك، فاطرح هذه الثياب شيئاً فشيئاً ونم وليس على بدك إلا جلالية رقيقة خفيفة المستر، وأغسل رأسك كل يوم بالماء البارد، وسترى أنك ستعود أصح وأقوى، وقد صدق، فلما أقبل الشتاء ألفتني قد استغنيت عن المعطف والقمصان من الصوف لأن يدي تعود المقاومة واكتسب مناعة لم تكن له، واستغنيت عن وقاية الثياب وما زلت إلى اليوم، على ضعف أقل من أندلسي في السن ثياباً، وأقدر على احتمال المؤثرات الجوية بفضل هذا الطبيب الحكيم

وحضضتني على السفر والتعلم واستكمال الآلة واكتساب المناعة الذاتية قبل أن يلهج بهراء المساواة، فما يقب المرأة ولا يعرض من قدرها أن تقتصر على وتليفتها، وليس اختلاف الوظيفة تحقيراً للمرأة وتكريماً للرجل فإيما هو من قبيل توزيع الاختصاص

وقد أحدث هذا الكلام ضجة، ولكنه لم يكن يصعني خلافة، وروى لي صديق أنه سمع بعض السيدات يقلن إن المازني شر من توفيق الحكيم في عدولته للمرأة، فقلت: "هذا خطأ مزدوج نصححه في فرصة أخرى إن شاء الله ولا بأس من عضبهم ساعة ثم يفتن إلى ما هو أرشد وأجوى".

رحلة العراق^(١٣٤)

(١٣)

ركبنا القطار السريع إلى البصرة بعد الغروب، وكان معي السيد فخرى شهاب مراقب الإذاعة، أو كنت أنا معه - سيات - وهو أيضاً محام السكة الحديدية، قله عليها دالة. وبفضله تسنى أن يحجز لنا مكاننا النوم في مركبة مكيفة الهواء تلحق بالقطار يومين في الأسبوع - مخافة إرهاقها على ما يظهر! ومن أجل هذا كان يوم السفر أو ليلته رهناً بهذه المركبة الفدة، وكذلك يوم إيابي هو اليوم الذي تضم فيه إلى القطار، فليس لنا في الأمر اختيار أو عشيئة، والمرجع كله إلى المركبة ونشاطها، فإذا هي انشرح سبورها للحركة تحركنا، وإلا بقنا حيث نحن، في بغداد أو في البصرة أو في حيث نشاء أن تكف عن العمل وتؤثر الراحة والكسل.

وقد قلت إنه "القطار السريع" فيحسن أن يعرف القارئ مبلغ سرعته، وهي ثلاثون كيلو متراً أو ميلاً في الساعة إذا لم يدعه إلى الفتور أو التفرق داع، وقد قطع بنا ما بين بغداد والبصرة في عدد من الساعات أعيايت حسابه - فإني ضعيف في علوم الرياضة - فلما أكله إلى القارئ، وأعينه يقولن إن القطار شرع يعتمف طريقه في منتصف السابعة مساءً، وقد نعشنا فيه ونمنا الليل كله، ولم تشعر برجة أو حركة، ثم أصبحنا وعسلنا وجوهنا وحلقنا لماننا، وأرتدينا ثيابنا، وأهبطنا وهو يسكن تارة حتى تقول لن يتحرك ثم يستأنف التأناء والحيو، ويحن تشجعه ونستعفه وبهتف به، ونصفق

(١٣٤) نظيره في البلاغ في ٨ مارس ١٩٤٥ (ص ٢).

له، ونصيح "مرحي مرحي" أقدم ولا تخف! فيسره هذا ويصفر صغيراً عظيماً، ويتجمع للدرجان، ويجتهد حتى يكاد تتشق ألواح من شدة النفث، حتى بلغ بنا البصرة قرابة الساعة الحادية عشرة ودخل محطتها ينفخ ويتهج ويلهث ويثر الحصى ويثير التراب وراءه فتأله ما أنصيره على المشقة وأعظم متابرتة وجلده على الدروب!

وقد قلت لصديقي فخرى ونحن نودع القطار ونشكر له حسن اجتهاده لنا

"يا أخي أنى أرى سكتكم الحديدية ظالمة باغية! وأن هذا الذى تصنعه بقطارها حرام، إنه قطار شرعى فكيف تترع قلوعه ولا تدع له إلا ضلوعه، ثم تدفعه على الخط وتقول له سر على بركة الله؟ فلو أنه قطار أصيل لما استطاع أن يخطو خطوة واحدة، إنها بركة الله ولا شك، وطيب معدن القطار".

وقد علمت من صديقي أن المسئول هم الإنجليز فإن السكة الحديدية فى العراق فى أيديهم دون أيدي العراقيين، ومستطل كذلك يضع سنين أخرى، فالقطار عزه فإنه يعمل جاهداً منذ دخل الإنجليز العراق فى إبان الحرب الماضية فهو ولا ريب "مجهود المجاهيد" واللوم كله على الإنجليز، فقد انشروا السكة الحديدية من ربحها بضعة ملايين من الجنيهات سمعت أنها ستة ومع ذلك يخطون على القطار المروق بشراع واحد!

وكان شوقى عظيماً لرؤية البصرة فإن لها لتاريخاً ويوشك أن يصبح لها فى المستقبل مقام عظيم، وقد بنيت على مقربة من الأبله عند اجتماع النهرين - دجلة والفرات - متصلة بالخليج الفارسي فى الستة الثانية عشرة من الهجرة فى خلافة عمر بن الخطاب، ويقول المؤرخون إن عتبة بن غزوان فتح الأبله كتب إلى عمر يقول إنه لا بد للمسلمين من منزل يشتمون به إذا شتموا ويسكتون فيه إذا انصرفوا من غزوهم فأشار عليه عمر - وكان قواده لا يصنعون شيئاً إلا بأمره - أن يجمع أصحابه فى موضع واحد قريب من الماء والمرعى وأمره أن يكتب إليه بصفته قبل أن يتخذ، ففعل فاطمناً عمر وأذن له فنزل عتبة وأصحابه فى موضع البصرة وبنوا مساكن بالقصب، فالتهمتها النار، فأتى الخليفة فبنى أهل البصرة بالبن ثم بنيت بالحجارة وأقيم فيها مسجد وصارت ثغر العراق.

ويتخيل هــجـ وإز في كتابه "صورة ما سيكون" مؤتمراً يعقد في البصرة في سنة ١٩٦٥ من العلماء والفنيين ينظمه اتحاد النقل وأنه سيتمقرر في هذا المؤتمر المرة الأولى أن الجماعات الإنسانية الحديثة لا محل فيها للملكية الفردية، وأن المساكن والأرض تكون بالاستئجار لمدة غير طويلة لا تتجاوز فسحة العمر على الأكثر وسيعقد مؤتمر آخر في سنة ١٩٧٨ ينشأ على أثره مجلس للشؤون العالمية، وليس أمامي كتابه وأنا أكتب هذا ولكني أذكر أن البصرة صارت فيما يتخيل مناء جويّاً عظيماً فيه نحو ثلاثة آلاف طائرة برية ويضع مئات من الطائرات المائية ومائة من سفن الحراسة ونحو خمسة وعشرين ألفاً من رجال الطيران وبذلك للسيطرة على الجو والبحر

وايست البصرة الحديثة في مكان البصرة القيمة التي أنجبت مشاهير العلماء والفقهاء ورجال الكلام والشعراء والكتاب، فقد زالت تلك وأصحت من الوجود ولم يبق منها إلا ما هو دون المفهرس من الكتاب، ولكن البصريين المديثين يحرصون على إحياء بعض الأسماء يطلقونها على الشوارع كشوارع الجاحظ وشارع بشار إلى آخر ذلك، ولا يهتمون العناية بمواقع الآثار التاريخية

وقد لقينا عند نزولنا من القطار اثنان من الأساتذة المصريين عرفت منهما بغير تعريف الأستاذ إبراهيم صبرى مدرس اللغة الإنجليزية بثانوية البصرة، وصديق ابني وزميله، وقد حملني إلى ابني مسلماً نسيت أن أؤديه! فما لناذا أبلغه!

وكان معهما أيضاً السيد عبدالسلام باش أعيان، رئيس البلدية، والسيد أنور مخلص السكرتير الشخصي لمدير الميناء، وهي مصلحة مستقلة لا سلطان عليها لحكومة العراق، وآخرون غابت عن أسمائهم، فلركبونا سيارة أعدوها لنا وخصونا بها أثناء مقامنا بالبصرة ومضوا بنا إلى فندق "شط العرب" وهو يطل على مطار البصرة العظيم الذي لا نظير له في الشرق الأوسط كله والهواء فيه مكف، فاسترحنا دقائق ثم ركبنا إلى دار الحكومة لتحية المتصرف السيد مظفر أحمد بك، وهو من أرق

من رأيت وأحنتهم وأكرمهم وأحسنهم سياسة وأحكمهم إدارة، وأبعدهم نظراً في أعماله كلها، فأكرم وفاننا وأمر لنا بالقهوة فاعتذرت، فقد كفت عنها، فأمر لنا "بحامض" وهو عصير ليمون (سفن) محلى بالسكر، فشربناه هنيئاً، وأطلعنا عنده على برنامج إقامتنا ثم انصرفنا شاكرين لتفاني وتجمع عصرنا على النشأ في بيت خلوي على شط العرب للسيد [...] (١٣٥)

(١٣٥) الاسم غير واضح في الأصل ولكننا سنعرفه فيما بعد! (المحرر)

رحلة العراق^(١٣٦)

(١٤)

كان مقامى بالبصرة قصيراً ولكنه حافظه، فإننا فى حركة دائمة من الصباح إلى الليل، وقد اضطرت أن أستغنى عن النوم والراحة بعد الظهر لأن الوقت لا يتسع لهذا، وتلك تصحبة كبرى منى! فقد اعتدت هذا النوم - كما قلت لبعضهم - مذ ولدتى أمى، بل من قبل ذلك يقرون! ولكنى لم أشعر أنى نزلت عن شىء أو ضحيت براحة، فما عبت ولا فنرت، ولا تتألمت حتى ولا مرة واحدة، فقد كان الجو أطيب ما رأيت والناس أنظف من لقيت وعرفت فى أسفارى جميعاً، وأولهم شمائل وأكرمهم بقوساً، ولم يحيرنى إلا اتصال المملكة العربية السعودية، صديقى السيد فؤاد شيخ الأرض، وكنت حريصاً على لقائه كحرصه على لقائى، ولكننا كنا كأنما نتحاور، فما سالت عنه إلا ألفيته قد خرج يبحث عنى، ولأسأل عنى إلا ألفانى قد "زغت" أو ذهبت إلى حيث لا يستطيع أن يدركنى، فلما التقينا آخر الأمر - وما كان يمكن أن أرحل عن البصرة دون أن أراه - قال كل منا لصاحبه: "يا شيخ! اتعبتني وحيرتني!"

وكانت أمتع نزومة تلك التى رتبها لنا المتصرف مظفر بك، فى شط العرب، فقد أعد لنا زورقاً بخارياً وبئر القراش، وهما لنا طعاماً نقله إلى بيت السيد نجم الدين النقيب على شط العرب، ومبقنا إليه وانتظرنا فيه حتى نعود من رحلتنا البديعة، فلولا الجوع لخرجنا بالزورق إلى الخليج الفارسى! وقد ضحكنا ونحن عاثون إذ تذكرت

(١٣٦) نشرت فى "الإبلاغ" فى ١٧ مارس سنة ١٩٤٥ (ص. ٢).

قول ابن الرومي في خاتم له:

لي حادِم ما أزال أرتقيه يغيب حتى يردّه سفيه

فقد هربنا كهذا الخاتم! وما ردتنا إلا الجوع وحده.

وكان المتفق عليه أن نستقل الزورق في الساعة التامسة صباحاً، ولكن زميلي السيد فخري شهاب أخبرنا بصف ساعة لأنه أبى إلا أن يقلدني فيزوغ! وأين كل مالِك في هذه البكرة المطولة، بل المطيرة، لا يدري أحد، وكان خوفنا على النزهة أن تقصر مدتها، لا عليه فإنه بصري مواداً ونشأته فلا حاجة به إلى دليله أو قائده، ولا خوف عليه من ضلال.

والبصرة "بنقية" الشرق، فإن فيها نمو ستمائة دهر وجدول تتخللها، وقد رأينا مصداق ذلك ونحن تجري بزورقنا في الشط، وهو عريش واسع والتخيل كثيف على جانبيه، وحسبك من سعته وعمقه أن ست يواخر أمريكية حاملة سفراها عشرة آلاف طن وكانت راسية فيه قرب المحرمة - من ثغور إيران على الشط - ولا تشغل منه حيناً ينكر، وكان معنا في الزورق للفيف من البصريين والمصريين، أذكر منهم السادة عبد السلام باش أعيان ورئيس البلدية، ومكي الجميل مدير التموين، وشاكر نعمه صاحب جريدة الثغر، وأنور مخلص سكرتير مدير الميناء وعبد الرزاق آل إبراهيم مدير المعارف وإبراهيم صبري المدرس بثانوية البصرة (وهو مصري) ومخري شهاب - فقد اهتمينا إلى مخبئه وحملناه معنا - وغيرهم ممن غابت على أسمائهم، وكنت في ذلك الصباح قد شربت قهوة "مركزة" ممزوجة بالطيب، بدلاً من الشاي، فعابوني ألم خفيف واستشرت الكحول الطوخى شهائتي عن القهوة، وآثرت الحيلة، فاتخذت مقعدي في حجرة صغيرة في الزورق وقنعت بالنظر من النافذة وتركت الهواء الطلق الفتية الأسحاء، وأراد البعض أن يشرب ويقصف - ليدفأ على ما زعم! - فخرج الزورق على بيت النقيب واحتجب منه زجاجتين مما قضى به العمر مولانا الفارابي - ثم تراه غيرة وأنا أخلط لا بأس! وقالوا شاركنا، قلت وندت لو استقطعت ولكن الشراب على حرام، فاشربوا لي، وعني، وحسبي مسكراً لطفكم وهواً بلكم الطيب. ففعلوا ولم يقصروا.

ولم نستطع أن نتجاوز المحمرة في رحلتنا فقد أن أن نعود لنطعم، وعندما يصب نهر كارون - وكانت أحمره لجهلي "قارون" - في مجرى الشط، وماؤه أحمر كماه النيل في أيام الفيضان، وكنا نشتهي أن مزور المحمرة، ولكنها إيرانية، وليس معنا جوار، وخفنا أن نشير مشكلاً، وأنرنا العاقبة والراحة، وأما غير ناسمين، ومررنا بين جزيرتين واحدة يسمونها جزيرة الصوص، والأخرى يسمونها جزيرة الرصاص، فلما الأولى فكان يؤى إليها المهريون، وأما الثانية فكان يكمن فيها الشرط ويطلقون منها الرصاص على زوارق التهريب وذلك كله في العهد التركي

وكانت السماء ترسل رذاذاً حقيقاً إلا أنه دائم، فلم أتعجب لما رأيت على أحد الشطين فتى وفتاة جالسين على سور يتناحيان، فإن المطر فرصتهما، لأن الناس خلبقون أن يؤثروا [السكنة] مخالفة البلال، ولكن الغريب أنه كان بيننا وبينهما قراءة نصف ميل، ومع ذلك ما كننا نحالنيهما حتى حجبت الفتاة وجهها بطرف عباها أو ملاحتها، أما الفتى فشخص مستتبكاً، ويرتو إلنا ويتبعنا عينه حتى غيبنا عن نظره لو غاب هو عن نظرنا، وكان الذى تعجبت له هذا الخجل الذى أظهرته الفتاة، أترى هو متكلف؟ ورجع عندي نك فإن عهدى بالنساء أن ما يسمى الخفر ليس قيهن طباعاً وإنما هو إحدى وسائلهن للإغواء والإغواء وكل خفر يذهب بعد أول اتصال.

ويلغنا بيت السيد النقيب فالفينا حصيراً مفروشاً إلى بابيه مشينا عليه فنجت أحنيتنا من الوحل وكان هناك جمع غفير فمضينا إلى موائد موقرة بالقوارى - ومفريدا قوزي بالقاب كما ينطقونها - والدجاج وألوان شتى من الخضر وغيرها، وحذرنى الدكتور الطوخى من بعضها فإن فيها حاراً مثل الكرى الهندى أعوذ بالله من كيئه، وأنا أكره كل حار وانفر منه لأنه يورث اسانى وربما وطقى التهاباً وأمعاني احتياجاً ومعنتى اضطراباً، ومن العجب أن أهل البلاد الحارة يحبون الحار فى طعامهم، وأست أنعمى يوماً فى جدة قدموا لنا فيه حلواء فإذا معظمها زنجبيل فصرخت من شدة الطلب، وما أنظن إلا أن شدة الحرارة تقتر الأعصاب فيحتاج الناس إلى ما ينشلها ولكن ما رأى فى رد الفط

وفرغنا من الطعام واسترحنا قليلاً ثم انصرفنا مع السيد عبد القادر ياش أعيان نائب البصرة لزيارة مكتبة "ياش أعيان" الخاصة وما فيها من مخطوطات نادرة، ثم التقي بعد ذلك في دار السيد شاكراً نعمة صاحب جريدة الفجر انتعشى، وكيف يتعشى بالله من تعذّي ليومه ولسبعة أيام تالية على الأقل؛ ولكن ما العيلة لا بد مما ليس منه بد، والله المستول أن يرزق معدتنا الهمة والقوة وإلا فضمتنا وخيبت أملنا وأمل داعينا الكريم، وما كل يوم يدعى المرء مرتين ولا هي كل دعوة يقدم له مثل هذا الطعام البصري النقيس.

رحلة العراق (١٣٧)

(١٥)

قبل أن تنصرف من بيت السيد النقيب قال لي تلجر بعصري كبير إن شيخاً عالمًا
فاضلاً اسمه الشيخ عبدالقادر المازني من البصرة منذ زمن وجيز، وسألني عنه أهو
قريبى؟ قلت:

لا شك هذا جدى رحمه الله

فتعجب وسأل: "مات؟ الفاتحة لروحه! لقد كان رجلاً صالحاً، متى مات، فقد كنت
أراه في صحة جيدة"

قلت: "مات يا سيدى، ولا سيديك إلا أنا، في عام ١٨٩٠"

فشخص الرجل كنه لا يفهم، وقال أخيراً: "ولكنه مر بنا منذ شهور؟".

قلت: "محقول، ولا شك إنه كان في طريقه إلى الصين"

قال: "الصين؟ لست فاهما شيئاً"

قلت: لك العذر، ظلمك لا تعرف أن بعض الشعوب يعتقد أن الإنسان يموت
فتذهب روحه إلى الصين. ووجه العجب عدنى أن جدى، فيما أعلم، كان رجلاً مؤمناً
صالحاً، ومن علماء المالكية، وكان همه أن يدخل الجنة. واست أعلم أن الصين على
طريقها، لو من يدرى؟".

(١٣٧) نشره في البلاغ، في ١٥ مارس ١٩٤٥ (ص ٢).

قال "لا تعزج"

قلت "إني جاد جدًا، ولا شك أن الذي رأيته هو جدى، أليس تقول إنه شيخ عالم
فاضل؟ انتهينا إذن؟ هو جدى بلا مرأ"

قال "ولكنك تقول إن جدك مات فى عام... فى عام."

قلت ألقته "١٨٩٠"

قال "كيف يمكن أن يكون..."

فقاطعت قائلاً "يا أختى سيحان من يحيى العظام وهى رميم"

قال "بالله لا تعزج"

قلت "وماذا أصنع إذا كنت تجيئنى برجل ينسعى باسم جدى وينصف بصفات
ولا أعرف أن فى دنيانا على سعتها رجلاً سواه يحمل هذا الاسم الكريم ويتطلى بهذه
الصفات الجميلة؟ أليس أنا أيضاً معذوراً؟ إذا لم يكن جدى فهو ولا ريب رجل مزود
انتحل اسم المرحوم وسجاياه وصفاته وجيته وقطلته وعمامته، فهاته لتقبض عليه،
وهذا هو سعادة البك المتصرف يودعه لنا السجن، ومن يدري؟ عسى أن يكون جدى
حقاً وصديقاً، ربه الله إلينا بعافية، ولعلنا حينئذ نقف على شيء من سر هذه الآخرة
التي تنبئ كل الإباء أن تبيحنا شيئاً من أسرارها"

فسكتوا، وماذا عسى أن يقولوا؟ وأقصرت فقد خفت أن يورطنى الحاجة فيما لا
يسهل الخروج منه.

وكانت الشمس قد مالت إلى المغرب ونحن نجتاز الطريق بالسيارة إلى دار (باش
أعيان) والسيد عبدالقادر باش أعيان يشير إلى الجدول أو الأتار ويسميتها أسماها
ولعله يتوهم أنى قادر مثله على حفظها، ولكنى إن أنسى جدولاً أو ترعة أو نحوها قال لى
إن عمالاً مصريين جاء بهم الإنجليز فى أثناء الحرب الماضية شقوها، فسررنى أن
أعرف ذلك وتعجبت لما خالجنى من الصلة إلى بلدى الذى لبست فيه العيش وهو جديد

كما يقول ابن الرومي:

فإذا غثل في الضمير رأيتَه وعليه أفاد الشباب عميد^(١٢٨)

ويبلغنا دار (باش أعيان) وهو لقب لهذه الأسرة العباسية إلا رومة بقي لها من عهد الأتراك ومعناه واضح لا يحتاج إلى بيان، وهي دار نصيحة فضة الأثاث والرياش، ولكن مكتبة المخطوطات لم تدع لى عيناً لسواها، وفيها ألف وخمسمائة مخطوط وهي أكبر مكتبة للمخطوطات كما حدثني غير واحد وكثير مما فيها مطبوع متداول الآن، ولكن فيها طائفة من المخطوطات النادرة محفوظة في خزانة حديدية لنفاستها، وقد أخرجها الأمين الموكل بالمكتبة لنراها، ومن بينها كتاب سمرني أن أرى على صفحاته الأولى تعليقاً بخط المقرئ وينوقيه، ولم أكن رأيت خطه من قبل، وآخر هو الشاهنامة الفردوسي باللغة الفارسية ولا أعرف منها شيئاً وفيها صور بالألوان من أبدع ما رأيت وقد سالت السيد عبدالقادر

هل رأى هذه النسخة النكتور عبدالوهاب عزام.

فقال: كلا.

قلت إني يمين أن أنكرها له عسى أن تتاح له فرصة للاطلاع عليها

وهأنذا أبلغه ليستعد السفر، فإنه يستحق هذا العناء.

وعناية هذه الأسرة بالمخطوطات عظيمة، وقد سمعوا أن عند القاضي البصرة الشرعي نسخة مخطوطة في القرن الثامن أو التاسع من ديوان أسامة بن منقذ من أمراء قلعة شيراز قرب حلب - فسلّموه عليها ففني فاستأنفوا في نسخها ففطن، ونسخوا منها نحو مائة صفحة، ثم نقل القاضي إلى لواء آخر وحمل معه الديوان وأطلعوني على المقدار الذي تيمر لهم نسجه.

(١٢٨) من الكامل (المعمر)

وكان هذا اتفاقاً عجبياً، فإن المخطوط الذي كان عند القاضي وأبى أن يبيعه كان قد أرانيه ابن هذا القاضي، (عبدالرحمن السيد صالح الزاوي) وهو شاب أنيب يعمل في المحكمة الشرعية ببغداد، وتركه عندي أياماً، فراجعت ترجمة الأمير أسامة في معجم الأدياء لياقوت، وعرضت ما رواه ياقوت من شعره على باقي المخطوط واستعرت من الأستاذ الطليل طه الراوي كتاب (الاعتبار) الذي ألفه أسامة في لُخريات حياته الطويلة الحافلة، وقد نشره الأستاذ فليب حتى سنة ١٩٢٥، وكنت أود أن أراجع كتابه الآخر (لباب الآداب) ولكني لم أعثر عليه، فاكثفت بما وجدت وبدأ لي أن أنقل مخبرات من شعر أسامة، غير أن الوقت كان أضيق من أن يتسع لأكثر من القراءة، وقد انتهي الأمر بأن أخذت النيوان المخطوط من السيد عبدالرحمن وعدت به إلى مصر، وفي نيتي إن شاء الله أن أنشره إذا استطعت، أو أحمل دار الكتب أو غيرها على نشره، أو اختار منه خير ما فيه وأنشره.

وقد قضيت في هذه المكتبة النادرة ثلاث ساعات، ولولا أنني كنت على موعد لقضيت ليلتي فيها، وقد أراني السيد عبدالقادر شجرة لنسب الأسرة ترجع إلى آخر الخلفاء العباسيين، وشجرة أخرى البيت العباسي من بدايته إلى نهايته.

وعرضوا عليّ بفتراً لأكتب فيه كلمة كما يفعل كبار الزوار، فكتبت ما حضرني وكل ما أتذكر أنني كتبت أو قلته هو إنني كنت أتمنى أن أعاقل أهل البيت وأمين المكتبة فأسرق كل ما أستطيع أن أسرقه من هذه الثغافس!

ولكنهم مع الأسف كانوا يحفون بي، لا يتيحون لي فرصة للسطو، وما أعرفني سرقت في حياتي كتاباً، ولكن سرقة الكتب المطبوعة لا تستحق أن يتكلفها المرء لإنها مطبوعة يسهل اقتناؤها بشمن زهيد، فلما هذه المخطوطات النادرة فلين تجدها في غير خزائنها؟

رحلة العراق^(١٣)

(١٦)

وفي البصرة باد أنشأه المتصرف مظفر بك، وداره قريبة من الشط، وإليه يرجع القوم وفيه ينزلون^(١٤) ويسمرون، ويلعبون الورق - أو القمار - على الخصوص، وهو فاش في العراق، وأحسب أن لو وجد الناس ملهأة أطيب أو لو سارت الحياة الاجتماعية أبسر، لاتصرفوا عنه، أو أثروا عليه سواء، وقد استهولت ما سمعت من أن بعضهم يخسر في اللعبة ألف دينار، وتسلطت من أين يجي هذا المال كله؟ ولم لا ينتفع به فيما هو أرشد وأعد بالخير على الجماعة؟ وحديثي صديق مصري قال إن عراقياً سأل

"ماذا يملك أغني مصري في بلادكم؟".

قال: "لا أدري، ولكن فلاناً رحمه الله كان من أغني المصريين، فلما مات عرف أنه يملك سبعة وعشرين ألف فدان".

قال العراقي: "هذا فقير جداً، فإن الرجل من أغنيائنا يملك نصف مليون فدان وزيادة".

قلت لصاحبي: "هذا الغني كالفقير، فإن معظم هذه الأرض قفر غله والذي يزرع منها يزرع مرة كل سنتين، وفدان واحد من الأرض الزكية يؤتي ثلاثة محاصيل في

(١٣) نشرت في البلاغ، في ١٩ مارس سنة ١٩٤٤، (ص ٢).

(١٤) أي يجتمعون (المصدر)

العام أعظم بركة من عشرة يزرع نصفها مرة واحدة كل عامين.

ولكن المال كثير في أيدي أصحابه والمشروعات الحرة التي يمكن أن يستثمر فيها قليلة، والحركة الاقتصادية في أيدي ذلك الشعب النشط الذكي - شعب إسرائيل - حتى ليندر أن ترى بكاءً مفتوحاً يوم السبت في بغداد أو البصرة، والحال على الجملة يشبه ما كان في مصر قبل الحرب العظمى الماضية، أيام كان أصحاب المزارع يقبضون ثمن القطن، فيركبون القطار إلى القاهرة ويندرون على ملاهيها ييمثرون فيها المال على المفنيلات والواقصات، وأحزمتهم وأرشدتهم من كان ينفذ إلى مصر ليهين جهاراً لبيتته، أو لعروس ابنه، فإذا لم يكن من أهل اللهو، ولا عروس هناك يعد لها ما تحتاج إليه في وجهتها، اتخذ داراً للشتاء في مصر، وداراً أخرى للصيف في الإسكندرية، وعاش في سعة وخفض حتى ينقد المال فيقترض من المصارف حتى يتزف ويصحت، وقد تغير الحال في مصر عن هذا الذي كان معهوداً بعد أن ركب أهلها اللذين وقصم ظهورهم أو كاد، وأنخس أن يكون العراقيون على أثارتنا ملضمين إلا من عصم ريك، وقد عصم كثيرين هناك، وله الحمد

والنادي رحيب، تتوسطه قاعة تنصع لثبات، ولا تضيق بالخيل إذا نهبت تركض فيها، وجوها حجلات متقلوبة الصعة للسمر والحب وما إلى ذلك، وقد أثرت القاعة والموقد وقعدت أتكفاً، فقدم لي بعضهم شرباً، فاعتذرت وشكرت، وعرض علي أن أتسلى باللعب، فقلت:

"والله ما لي به عهد، ولا عقل لي فيه، ثم إنه لا مال لي ألعب بهن فإني أحد الملايين الذين يكسبون رزقهم بعرق الجبين وقلما يصيبون منه ما يزيد على الكفاية"
قال: "آلم تحلوا قط؟"

قلت: "لا حاولت ولا اشتبهت ولكن حاول غير واحد من أصدقائي قديماً أن يعلمني (البوكر والكوتكان) فلا أكاد أفرغ من تلقى الدرس حتى أنساه"

قال: "هذا حسن، ولكن ألا تشرب على الأقل شيئاً؟ قهوة أو وويسكي؟"

قلت: "شكراً، ولكن ما حيلتي؟ الشراب لا يوافقني، وقد نهونى عن القهوة أيضاً، وزعموا أن كبدى متضخمة، فانتظر إلى غد، وفي غد يفحصنى الدكتور الطوبخى، ويصور لى فى مستشفى هذه الكيد المتهمة، وقد يسع لى شرب القهوة فأرورك وأحتسبها عندك"

قال: "هذا وعد؟"

قلت: "إذا ترك لى مظفر بك وقتاً أنجز فيه المواعيد، فلا تخش إخلافى"

وبارحنا البادى لتنعشى عند المسيد نعمه صاحب جريدة الثغر، ومن ذا الذى يمكن أن يتمشى بعد عداء مظفر بك؟ ولكنى كنت أقبس على نفسى، أنا القضيف^(١٤١) الضاوى، فلما مدت الموائد وعليها (القوازي) والديكة والدجاج وما لا يحصى من الألوان أشحت عنها بوجهى، فما كنت أستطيع حتى أن أنظر إليها، وأقبلت على مائدة عليها فواكه شتى، أثرت منها البرتقال فإنه جيد، وانقض القوم - غيرى - على المائدة الكبيرة يمتحنون ما عليها فتذكرت وصف ابن الرومى فى قصيدته لابن العاجب، وصف المعدة الدائبة كالليل والنهار، وتذكرت غير ذلك قصة رويتها لى أدبية بغدادية من أجعل من رأيت فى حيلتى وأعظمهن فتنة، هى الأتمة تزويه أديب، وكنا نسمر ذات مساء، فى الفندق، فقالت:

"إن العراقى كثير الأكل"

قلت: "صحيح؟"

قالت: "نعم، ويحكى أن لأسرة عراقية ذهبت تصطاف فى لبنان، فنزلت فى فندق، فكانوا إذا جلسوا إلى الطعام لا يبقون ولا يدرون، ولا يشيعون، فلتشق الرجل على نفسه أن يخرب بيته، فسلوهم (ووقع إليهم خلو رجل) على أن يرحلوا بسلام!"

(١٤١) أى الضيف (المحرر)

قلت: "هذه (قفزة)".

قالت: "ولكنها تصور الحقيقة"

وغمزت بعينها فصديقتي. وأولاً ذلك ما صدقت؛ فإذا كانت الحقيقة غير ذلك،
فالمسئول مسخر عين الأدبية ورقة أجفانها، كان الله في عين جليساها
وعبنا إلى الفندق، فتشهدت، فقد كان يوماً حافلاً، وقلت للمسيد فخري.
"إن هذا الحوض مغر، فما قولك؟ تسبح أو تسبح؟".
قال: كما تشاء.

قلت: تم أنت إليه، فإن النوم يغالبني ويثقل لجفاني ويثني رأسي، وفي الصباح
يكون السبح أطى.

قال: "لا تنس إتنا على موعد في الساعة التاسعة لتزور مدارس البنات والبنين،
ثم نزور الدكتور الطوشي في المستشفى"

قلت: "تقلب الترتيب، فنذهب إلى الدكتور أولاً، فإن الاطمئنان على صحتي أولى
بالتقديم من الاطمئنان على صحة التطعيم في البصرة - أو في العراق كله"

ونمت، وذهب هو ليسبح، ولا أدرى متى نام، ولكن الذي أدرى أمي استيقظت مع
العصافير، لو أنه كانت هناك عصافير في تل البكرة الزبدية، فطلعت وفتحت البورى
كما يسمون صنبور الماء هناك وغمرت نفسي بالماء وقيت ساعة فيه أنعم بلذة النفس
حتى صاح بي السيد فخري وأهاب بي أن أخرج، لا بأس، كل نعيم إلى حين، ولا بد
مما ليس منه بد.

رحلة العراق^(١٢)

(١٧)

صورت أجزاءً من جسمي اللصيف الضالوي، مرات في حياتي، كانت آخر مرة منذ خمسة عشر عاماً، فقد انتابني محض كلوى أبي إلا أن يعاودني كل بضعة أيام ليلة أو ليلتين، وأنا أرفض المسمكات مثل المورفين، وأصر على العلاج الصحيح، فقال الطبيب:

“هات لنا إذن صورة لكليتيك”.

فذهبت إلى من عراني وطرحني على ما يشبه السرير، وإف على حزاماً وأطفأ النور ثم صنع ما لا أدرى وقال قم، فقمّت، وبعد بركة أراني الصورة فإذا حصاة طولها سنتيمتران وقطرها تسعة ملليمترات في الغالب، وكانت متكلّة فقيل لي إنها جيرية، ولها ستخوب وحدها بإذن الله، وقد ذابت بإذن الله، ومن الغريب أن المقص انقطع من اللحظة التي سمعت فيها أن هذه الحصاة هي التي تورثني!

أما في مستشفى العصرة، فقد وقفني طبيب الأشعة بين لوحين، وداني ما بينهما، وأطفأ نوراً، فقال الدكتور الطوخى للسيد فخرى:

“الآن تستطيع أن ترى قلب المازني”.

قلت: “سبحان الله العظيم ياكتور! أتراني جثت هنا للفرجة على؟”

(١٤٢) نشرت في “اللاغ” في ١٩ مارس سنة ١٩٤٥، (٢ ص).

فقال السيد فخرى: "مهش! هذا قلبه، وإنى لأستطيع أن أقرأ فيه أسماء معشوقاته جميعاً، أليس كذلك يا دكتور؟"

قلت: "قل لي يا فخرى، بنى خط تراها مكتوبة؟ الفارسي أم النسخ، أم التث؟"
قال: "بل بالنسخ الواضح".

قلت: "أعوذ بالله! لقد كنت أرجو أن تكون مكتوبة بهذا الخط الجديد المتلوى الذى لا يستطيع أحد ولا كاتبه أن يحل ألفاظه، على أنى أرجو أن يحرص الدكتور على سر المهنة، فيلم السيد فخرى الكتمان فإنى أخاف لسانه".
فطمئنتى الدكتور، فشكرته.

ثم مساعد الطبيب.

"والآن احبس أنفاسك حتى نقرأ لك فى التنفس".

قلت: "شىء لطيف! وما العمل إذا أظلمت فكان ما الله يجعل بعيداً جداً؟"
قال: "لا تخفه هي ثوان لا أكثر".

قلت: "إنما أحزنكم حتى لا أكون شريكاً فى الجريمة، فإنى قصير النفس ويا فخرى فوصيك خيراً بحبيباتى، فقد قرأت أسماءهن، ولا شك أن الذى دونها لم يفقه أن يثبت عناوينهن، كما كانت تفعل مصلحة التليفون قبل الحرب ولا خوف من قلة فى الورق، فإنه كما ترى قلب كبير يلتهم الدنيا، ألم تسمع قول ابن الرومى

كضمير الفؤاد يلتهم الدنيا وتحويه دفعتها حيزوم

فقال بعضهم - لا أتذكر أيهم فقد حلا لي الكلام -

"أسكت يا أخى! نقول لك احبس أنفاسك فتروح تخطب".

قلت: "سامحك الله! أهذه خطبة! إنما هي وصية لازمة بالحبيبات العزيزات! مسكينات! أنى لهن بهى بمغلى؟"

”يا أخى اسكت!“

”سكت!“

وقالوا لى بعد ذاك هذه هي الصورة، والكبد سليمة، وليس بها تضخم من فوق ولا من تحت، فلا داعى لتحفظ أو حمية أو شيء على الإطلاق“

قلت، وقد فرحت، وهل زال الألم أيضاً، فإني أتذكر أنه اعتادنى هذا الصباح، ولكنى أحسب أن هذا قد صار تاريخاً قديماً“.

فقالوا ”تعال فإن القوم ينتظروننا فى مدرسة البنات المتوسطة“

قلت، ”حياً وكرامة“.

وركبنا السيارات إلى مدرسة البنات، وظمت المعطف ورميته، وما حاجتى إليه وقد عرفتى الأشعة التى لا تكذب ولا تغالط أنى سليم معافى؟ وبخلنا داراً نظيفة، مكتوبة، مسحوبة، موشوشة أيضاً حتى فى هذا الشتاء الممطر! وأنا معلم قديم، فأننا أعرف ما يصنع مديرو المدارس حين يطمون أن زواراً قادمون، ولهذا لم أجعل بالى إلى هذا المظهر الذى أعلم أن جماله مكفول سلفاً.

وحينما المديرية أحسن تحية، واحتقت بنا احتفاءً عالياً، وهمت أن تطلب لنا قهوة، فرجعت منها أن لا تفعله فإن علينا أن نقوم بزيارات لمدارس أخرى، ينبغى أن نؤدبها كلها ثم نتغدى ونستريح ثم نمثلل الفطار فيعود بنا إلى بغداد.

فقال السيد فخري، ”تستريح؟ نقول تستريح؟“

قلت ”ولم لا؟ ألسنت قد شفيت وعرفت، وانتهت الزيارات، يصيب ما سيكون؟“

قال، ”والحاضرة؟“

قلت، ”آى محاضرة يا مولانا؟“

قال ”المحاضرة التى منلقبها بعد الظهر؟“

قلت: "يا خير أبيض! من قال هذا؟"

قال: "هذا في البرنامج".

قلت: "أني أنكر أني سالتك منذ قرن أو نحو ذلك أو أمس إذا أردت الدقة، عن هذه الحلات هل ستلقى فيها خطاب، فكان جوابك الذي رضى عنه وشكرته لك أن لا خطاب ولا خلافها، فمن أين جئتني بهذه المحاضرة، ومن وكلك عني في الموافقة عليها؟"

قلولاً أني كنت مقتبلاً بقى غير مريض لثرت به وأمسكت بتلاييه.

وطفت بالفصول - أعني حجر الدراسة - وتقف في كل حجرة دقائق، ثم نحي ونشكر ونصرف، وكنت كالمدار به من هول خير المحاضرة، وفيما باله أحاضر، وكل ما يور في رأسي، ويضطرب به صدري هو أنني أتمنى لو ظولت بنفسي دقائق تغيب فيما عني العيون فأترقص بعد الاطمئنان على صحتي الفالية وأنشدن بهذا البيت على القصص.

ولى كيدٌ مقروحةٌ من يبعثني بها كيداً ليست يدان قروح؟ (١٤٢)

وأقول: مسكين، مسكين! لو عرف الطب في زمانه الأشعة وسهرها لأمكن أن يتبين أنه وإهم، بل لكأن من السهل أن يدرك أن من السخافة أن يظن أن الحب يورث الكبد قروحاً؟ الحب مبعث صحة وسرور لا مقم وغم! بل كل شيء في الدنيا يسر ويفرح والذي يقول غير ذلك جاهله صنق من قال إن العلم نور، نور حتى بالمعنى الحرفي!.

ومع ذهولي، وغياب عقلي عن كل ما حولي، أخذت عيني صوراً على الجدران - في حجرات الدراسة - صور تسماء جميلات مستطيلات أو قاعدات أو أفاق في مثل ثياب الاستحمام، وخيل إليّ، وقد أكون وإهماء، أن هذه الصور منتزعة من المجلات

(١٤٢) البيت من بحر الطويل وهو الشاعر الأديب عبد الله بن النعمان (ت ١٢٠ هـ).

الفربية، وأنها شبيهة حقاً بممثلات هوليوود، وحدثت نفسها أن عهدي بالشبان الإغراء
أنهم هم الذين يطلقون أمثال هذه الصور الجميلة. ، على كل حال. ، لعلها بنماذج
الجمال. ، يقرى الطالبات بالعباية بالرياضة البديعة ليكتسبن الرشاقة واعتدال القوام!

وقاتل الله هذه الحربة! فقد كان من بلانها أن حومت المدارس بعض ما تحتاج
إليه من الأدوات وغيرها من الأشياء ولا سيما أدوات المعامل كما نسميها، أو
المختبرات كما يسمونها في العراق.

وعرفوني بمطمة مصرية كانت تلقى درساً في التاريخ القديم، فقلت لها بعد
التحية وما إليها

”دعي هذا التاريخ القديم وحديثي عن صحتك كيف هي؟“

فالت: ”بخير، شكرًا“

قلت: ”ومن شاء الله تكوني كجيدك سليمة؟ اسمعي، إذا شعرت بأي شيء، فعليك
بالدكتور الطوضى هذا، فإنه مصري مثلاً، وأشعة مستشفاه لا تكتب“

وهممت أن أقس عليها قصتي، ولكن بعضهم غمزني فلمسكت

وبما هو جدير بالذكر أننا لاحظنا أنها كانت وهي تلقى درسها تسأل الطالبات
(ماهيمن) فقلت لمن معي: ”هذه المطمة مخصصة لجنتها، فإنها تنفذ ما قرره المؤتمر
النسوي في القاهرة، من المطالبة بحذف نون النسوة“

واعتقدت أننا فرغنا من الزيارة وأن لنا أن نتصرف، وإذا بالمديرة تسر شيئاً إلى
مدير التعليم فيميل على، ويهمس في أذني، فأقول:

”كلمة؟ أنا ألقى كلمة؟ ماذا عمي أن أقول؟ يا ناس حرام عليكم! لقد كنت أظن
البصرة خيراً من بغداد..، خطيب! خطيب! متى ، نهاية! يفضل بنا والأمر الله“

رحلة العراق^(١٤١)

(١٨)

امسكت الطالبات في ردهة رحبية وخرجنا إليهن من حجرة الميرة، وحيننا ووقفنا ننتظر ما يكون، وأنا أكره هذه المواقف وأتفر منها، وإلى العنبر، فها هنا أمامي نحو مائتين من الطالبات المتفانيات الأسنان والقنود، ومعنى هذا أني واقف أمام أربعمائة عين شاخصة إلى محبة متفرسة، وأنا بقيق الشعور بنفسي مرهف الص إلى حد المرض، ولا يخفى عليّ - وليت يخفى لو يفتقر الإحساس به، أنني قصير قمي، وأنني بميم وقد شاع الشيب في رأسي كتار الحريق ذات الوقود، وإنني فوق ذلك أعرج، وإن كان لا نذب لي فيعا أصابني، فأحدى رجلي أقصر من الأخرى، وأحد النذائين أعلى من الآخر، فالتشويه تام كما ترى، ولست بإنسان إذا لم يد هذا في نفسي وأنا واقف كالتمثال أمام أربعمائة عين نهلاء للمائتين من الفتيات الناهدات.

والمرأة هي المرأة، فلا تقل إن هذه مدرسة، وإن هؤلاءنكن طالبات علم، فإن المرأة لا تخون طبيعتها في أية من أو أية حاله وأتكر - على سبيل المثال - قول عائشة بنت طلحة وكانت أديبة شاعرة - أزوجهها (وكانت له امرأة أخرى عظيمة الوجه والأنف اسمها رمة) وقد أقبل عليها يصف لها شجاعته في حربه مع الخوارج:

إنني أعلم أنك أشجع الناس، ولكني أعرفك يوماً هو أكبر من كل هذا.
قال: وما ذاك؟.

(١٤٤) نشرت في "البلاغ" في ٢٩ مارس ١٩١٥، (ص ٢٤).

قالت: "يوم اجتليت رملًا، واجترأت (أو هجمت) على وجهها أو أنفها".

فلا تقل لى هؤلاء طالبات، فإنهن نساء قبل أن يكن طالبات،

وارتفعت أصواتهن بنشيد فنسيت حرج موقفى، ونهلت عن نماعى وعرجى،
وكنت أقهقه! أى والله! فقد كان التشديد مهيئاً؛ ولا تعجله فما أعنى إلا أنه مما
ينشده الصبيان "نحن الأسود إلخ".

ثم كأنما كن يركن أن الاقتصاد على إسماعى لنشيد المبيان لا يجوز، فثنين
بنشيد "بناتى" يصف مقام المرأة وأثرها فى الحياة، وقد قال بعضهم ونحن نخرج
كلاماً على سبيل الاعتذار من النشيد الأول فقلت له مثلاً

"قيم اعتذارك؟ إنما أردت أن يسمعنى ما يصدقن من أن الرجال يحبون أن
يسمعوه، وإذا كنت قد رأيتى ابتسم، فذاك لتشبيه الرجل بالأسد فى الشجاعة، فإن
الشجاعتين لختلفتان جداً - شجاعة الإنسان هى شجاعة العارف بما يهجم عليه من
خطر، أما الحيوان فليس له إبراكه فما يبدو منه لا ينطوى على شجاعة لأنه لا يعرف
ولا يشعر أنه مقبل على خطر"

وبهذه السفسطة حولت مجرى الحديث.

وانتهى النشيد - ولكل شيء آخر - فتقدمت إحدى الملمات وتلت خطبة من ورقة
فيها من الثناء ما لو وزع على أبناء الدنيا لخرج كل منهم بكثر من حقه، ثم نظر
إخوانى إلى، فسألت الله المستر، وقلت ما حضرنى، ووليت هارباً وألحق بى الآخرون
متعجبين، متساقلين "قيم العجلة" ولهم العذر، فما كانوا إلا متفرجين فى هذا الامتحان.

وركبنا السيارات فقلت لهم

"اسمعوا إن الله لا يستحى من الحق، ويجب أن أنصاركم ببقى أوتر إن لا أزيد
أية مدرسة أخرى ما لم تتعهدوا لى ألا أسمع خطباً أو أحتاج أن ألقى خطباً فإن
هبرى قد ضلقت، وريقى قد نشف"

وقصدنا إلى ثانوية البصرة، وقد استنكر عزمي على أمر، هو أن أطوف بالصفوف - أو الفصول - بسرعة، وأخرج من المدرسة قبل أن يخرج التلاميذ من الصفوف، وحتى لا أتبع أية فرصة للتجمع وإلقاء الخطب، ولكن التلاميذ كانوا أطيب وأكرم من أن أحتاج معهم إلى هذه المحاور، والظاهر أنهم اكتفوا بما كتبوا في (جريدتهم) أو (مجلتهم)، وهي شيء، فذ لم أر له نظيراً من قبل فقد انقطع ورود الورق في هذه الحرب وبغذر إصدار المجلة في الصور المألوفة ولا بد من إصدارها على ما يظهر، فماذا يصنعون؟ الحاجة أم الاختراع كما يقولون، والضرورة تقبّل الحيلة، وقد فتقنتها والله فتقاً عظيماً فقد جاء الطلبة بصفحة كبيرة من الورق، وما كتبوا فيها بخط أيديهم - بالرقعة والعناوين بالخطوط الجليّة المعروفة من تلك وقارسي إلخ - مقالات وأخباراً شتى، فنظرت إليها معجباً، وهممت بالانصراف عنها غير أن الأستاذ المدير أو نائبه رننى إليها وافتتى إلى خبر فيها، عن "المازنى" على عمودين، وعنوانه بالثلث والصبر الأحمر، فضحكت وقلت:

"هذا خبر قديم"

قالوا "ولكن فيه جديداً، فاقرأ".

فقرأت تعريفاً بي ووصفاً لبراراتي، وفي آخر التنبّه أنى سألنى محاضرة في قاعة لا أدرى ماذا، فقلت:

"هذا خبر ناقص... ينقصه موضوع المحاضرة، وهذا هو الذى كان يعنينى أن أقرأه فإننى لا أعرفه"

وللمدرسة مكتبة حسنة، رأيت فيما رأيت فيها تواليف الأدباء المصريين، والمجلات المصرية جميعاً، وكان الإقبال عليها عظيماً في فترة الاستراحة القصيرة بين الدروس، وطلب منى الموكلون بالمكتبة التوقيع على بعض كتبي ففعلت مفتطاً.

ورأيت في غرفة صغيرة مجاورة للمختبر - أو المعمل آلة صغيرة لتوليد الغاز تستخدم للبترين، فسألتهن:

“أليس عنكم شركة ليون؟”

قالوا “وما ليون هذا؟”

قلت: “هو شركة في القاهرة نمد الناس والحكومة بالغاز والكهرباء وتمتلك ذلك، وما أكثر شركات الاحتكار الأجنبية في مصر”.

وحمدت الله الذي أعفى العراق من شركات الاحتكار.

وأن أن أهرب قبل أن تتاح فرصة للاحتشاد والضبط، ولكن المدرسة كانت لا تصبر لي هذا الشر فكان ما بذلته من الجهد للفرار، عيئاً، وهكذا الدنيا أبداً. إذا كنت مطمئناً ما جئتك بالمزعجات، وإذا خفت شيئاً وتخشعت غناء الاحتياط والتحرز ذهب ثعلبك سدى

وبعضينا من هناك إلى دار الدكتور الطوخي لتنفذي، وهو الآن عراقي الجنسية، فقد احتفظ القوم به وأبوا أن يردوه إلى مصر، وطلب له المقام فقام مكرماً مبعجلاً محبوباً، وإنه لأهل لما يتبعوا من مكنة ملحوظة، وكنت وأنا عنده أشعر شعوراً خاصاً بلئى لست بضعيف، وإنما أنا رب الدار أو على الأقل شريك ربها فيها، ولم أظهر ذلك فليس أثقل من الضيف الذي يتصرف كأنه هو صاحب البيت، ثم أن هذا الشعور ليس إلا بعض العنين الذي كنت قد بدأت أحسه لمصر

وقال لي بعضهم: “تعال إلى السوق عسى أن نجد فيها ما يقتنى”.

فقممت معهم ولكن اليوم كان السبت، وفيه يصعب إخواننا الإمبراطليون، فعدنا أدرأجنا إلى دار الدكتور لتستريح إلى موعد المحاضرة.

رحلة العراق^(١٤٥)

(١٩)

لا تختلف قاعة المحاضرات في البصرة عن نظائرها في بغداد، فهي واسعة، طويلة عريضة، عالية السقف، مقرورة، وفي صدرها المسرح، وقبالتها الشرفة للمعدات المتحجبات، وقد عانيت بردها في أول ليلة قضيتها في البصرة، فقد سمكت.

ألا تحب أن تشهد رواية تمثّلها فرقة مدرسية؟ إن المتصرف سيكون هناك

ففهمت والليّيب تكفيه الإشارة - أن من المجاملة للمنصرف أن نكون نحن أيضاً هناك، مذهبنا، وكان في الوقت فمسحة فعالوا منا إلى نادٍ ثقافي للإنجليز والبصريين فيه مكتبة حسنة مرتبة، وقاعة السينما، فشغلت بالكتب والحديث حتى قيل لنا إن المتصرف ينتظرنا، فعدنا مسرعين فإذا به واقف على الرصيف يلقي أن يدخل حتى نحضر، فتكلمت منه لطفه ووداعته، وعلمت أن لفيقاً من مدرسة النيوانية المتوسطة يقوم برحلة مدرسة، وأن فرقة من تلاميذها منتمل رواية البخيل لمولايير وقد حيّانا أحد المدرسين تحية طيبة إلا أنها طويلة، فخفت أن يستدعي ذلك شكراً لهدا الترحيب الذي لم يكن لي في حساب وقد كتبت شاكراً بقلبي، معجباً بذلاقة لسان المدرس وفكرته، معجباً لسرعة انتشار الأخبار إذ كيف علم القوم أنني "سلسوف" هذه الكلمة، وأنا ما علمت بها إلا قبلها بربع ساعة؟ إلا أن يكون الأمر مقررًا مفروغًا منه

(١٤٥) نشرت في "البلاغ"، ٧ أبريل، ١٩٤٥، (ص ٢).

ونحى الستار وظهر ثلاثة من الطلبة فى ألبينهم الكمان والعود وما لا أدرى فقد نسيت، وشرعوا يعزفون، فكان على بطير، فقد كانت الأصوات التى أخرجوها طيبة وبليلة، وبعضها كتروند الزفير فى الصدر من الهم أو الحزن أو المرض والكرب، فلولا الحياء لسدبت أفنى

ثم بدأ التمثيل، وكان خيراً من الموسيقى فإنه على الأقل كلام نسمعه ونفهمه ونستطرفه، وقد مثل "البخيل" أحد المدرسين، وسرتنى وأضحكتنى أن رأينا تلميذين يتخذان زى النساء ويمثلان فتاتين، وقد صبغا شفاههما بالأحمر، ودهنا خديهما، وعريا سواعدهما المعروفة التى ذكرتنى قول العامة فى مصر فى المرأة الهزيلة الضالوة أن "كوعها يخرق العسة" فلو كنا فتاتين حقيقتين لفجرت منهما مستعياً بالله، لا لدماة فيهما بل لأنهما يتقصهما كل ما فى المرأة من رطوبة ونضرة وإين وغضوضة، وكنت أشعر وأنا أراهما وأسمع ما يقولان بصوت يتكلمان فيه الرقة والنعومة، أنى رددت إلى القرنين الوسطى فى دعية أيام كانت المرأة لا يؤذن لها فى التمثيل فكان الشبان يؤدون أدوارها

وانتهى الفصل الأول بسلام، بين الضحك والتصفيق، وإذا بالعازفين يعزفون مرة أخرى فقلت لنفسى "لا! معطوطة ممبوقة جداً، واستأثنت المتصرف، وزاد فخرج معنا، فيظهر أنه قال "لا" التى قلتها - كما قلتها!

وأعود إلى المحاضرة التى شاع وذاغ خبورها فى الشجر كله فمضت القاعة اغتماً لهذه الفرصة، فما كل يوم يزور المازنى الذى يسمعون به ولا يقرأون كتبها! وخطر لى وأنا أقعد فى الصف الأول أن لو قيل للناس أن قرأاً سليل على المسرح، لزد عدد الحاضرين أضاعاً مضاعفة، وكنت أنا جالس أحاول أن أفكر فى شيء أقوله، فلا أجد، فتعجب لظو رأسى وفراغ نفسى، غير أن هذا لم يكرينى، فإنى ملط قديم، ولعل خير دروسى هى التى لم أعن بتمهينها، ولا بد أن يكون فى رأسى هذا شيء سيظهر فى لوانه، ورأيت أحدهم يرتقى الدرجات إلى المسرح أو المنصة، فقلت جاء الفرع، فلن أعدهم كلامه ما أتلق به، وام يحب ألقى فقد زعم فى بعض ما قال

إني نصير اللغة العامية، وإني لا أكون كافرًا بنعمة الله إذا لم أشكر له جل وعلا أنه
أجرى لسان الفطيب بهذا الخطأ، وتلاه خطيب آخر أو شاعر، لا أدري، فما كان بالي
إليه من فرحتي ما زعمنى زميله، ثم قالوا تفضل فتفضلت مطمئنًا، ووقفت رابط
العباس أمام مكبر الصوت بعد أن أنزلوه قليلًا، فإني كما تعلم قصير، ثم انطلقت أنكلم
ولا تسألني ماذا قلت، فما أذكر شيئًا منه سوى أنني صحبت ما زعمه صاحبنا من
أنني نصير العامية، ولكني أقسم صانعًا أنني ظلت أسج وأهضب، ولا أتلعثم ولا ألحن،
خمسًا وأربعين دقيقة لا تنقص ثانية، إذا صبحت ماعش، وهي في العادة تسبق الزمن
بخمس دقائق، وكنت أرى القوم يتسمون، وأسمعهم يقهقون، فيتشرح صدري، وينطلق
لساني، وأقول في سرى الحمد لله، فإن عندي من هذا الكلام الفارغ كثيرًا، فخذوا^١
وشجعني أن الجنس اللطيف كان ممثلًا "لجمل" بمثل، فما أعجب أمر هذه المرأة
التي تستضعفها ومنها وحيتها^٢

ولا شك أن الله الرحيم الستار قد وقاني الفضيحة، فقد أظهر القوم الرضى،
والإعجاب أيضًا، وقال لي مدير التطعيم في اللواء "إذا كان هذا ارتجاع فكيف
بتحضيرك، فشكرته، ولكني خفت أن أسأل صديقي ورفيقي في السفر، السيد فخرى
شهاب عن هذه المحاضرة التي لم تكن لي في حساب، لئلا يصدقني فاعتم، وإنه
والعياد بالله صريح ينبغي أن يقول لي إلا الحق، وهذا عيبه فاعرفه.

وعندنا إلى الفندق لنتهيئ للسفر في ليلتنا تلك، وعاد القطار "الشراعى" إلى ما
عودنا، وأصر على البقاء في المحطة والمدة حافون بنا، وأنا في غاية العجل من طول
وقوفهم، وصديقي السيد فخرى يبحث عن ناظر المحطة ليسبكه عن القطار ما خطبه؟
هل يخشى السرى في ظلام الليل؟ فاقترحت على القوم، وكنوا أكثر من أربعين، أن
ينفقه، وأما أجرى إلى جانبه، ثم أتب فتوكبه؟

والححت عليهم أن ينصرفوا مشكورين، وأكنت لهم أنى سقام كما ينال القطار،
ويستيقظ حين يشاء فما ثم داع العلة، فإنها على كل حال من الشيطان، فضحكوا،
ويظهر أن صوتهم نهمه، فقد تناعب وتمطى، ونفخ وصفر، واستقل على رجليه، كالذى
ينتهي للوثوب، فصاحوا بى
"اركب! اركب!"

فقلت "لا تخافوا أن يفوتنى، فما هو بأرتب، ولا أنا بسلمقاء"
وشرع يحبو، وأنا أنظر إليه وأصفق له، وأستحش، ثم حملونى ووضعونى فيه،
فلمست لأن منظر درجانه وأنا على الرصيف كان أمتع!

رحلة العراق^(١٦)

(٢٠)

عدت إلى بغداد ضحى، وأنا أشوق ما أكون إلى سمسكا، فما طعمت منه شيئاً في البصرة وإن كانت ثمرًا عظيمًا، والرافدان يلتقيان عندها، والشط يمتد حيالها عشرات من الأميال إلى الخليج الفارسي، وقد أخبرني المعارف بعادات القوم أن السمك في البصرة كثير رخيص فالناس يستحبون أن يقتبوه لضيوفهم في المناسبات فلا يظن بهم البخل، فتعجبت، وتأسعت فيما أحبه ولا تمتلئ عيني منه، ولا تنتهي نفسي من الرغبة فيه والاشتياؤه له، وكان أبى كذلك وكان أكثر طعامه السمك المسلوق والأرز، فيظهر أنها الوراثة وما أكثر ما قلت لنفسى وأنا أفكر في هذا، وفي أمر الوراثة، أنني على ما يبدو لى لست إلا صورة معادة من هذا الوالد الفاضل الذى ذهب وخلفنى في مكانه، وما نظرت إلى وجهى في المرأة، وبصورته فوقها إلا تستغربت ورحت أتساءل أهدا وجهى أنا أم وجهه؟ لقد كتبت إنساناً جديداً فإذا أنا لا أكثر من طبعة أخرى من كتاب قديم! يا سبحان الله العظيم! ما خير أن يمضى وأجل محله إذا لم أكن شيئاً آخر غيره؟ وإن علمى بخلاف علمه وزمنى غير زمنه، وقد مات وأنا صبي صغير، فلم أتلق عنه شيئاً، مع ذلك أحور على الأيام إلى مثل ما كان هو فى حياته، فى خلقه وخلقته وأنصو ما اشتهرت به من حدة الباصرة والحماقة وشدة الطيش، كما يطرح الثعلب جلده فيما يقال، وأنى إلى الظلم وسعة الصدر والثبات مثله، وكان مبنياً متلاقاً، وأنا فى هذا نده وقريعته، بل شر منه، أثرى وأحلق عشر مرات فى اليوم الواحد، ولا أرى للمال من

(١٦) نشرت فى ٢٠ أيلول ١٩٤٥ (ص ٢٠).

فائدة إلا أنه شيء ينفقه الإنسان، في وجهه أو غير وجهه، سيان، ينفق والاسلام،
وانقلب في آخر حياته مزاجاً، فقد اتفق له أن خرج إلى إسطنبول في قسبة وكل فيها
فرأى التركيات البهشات الغضات الرعابيب فجن بهن كما جن العرب حين فتحوا
الأمصار، بالجوارى الفارسيات والروميات، وصار كل بضعة أيام يخرج إلى عاصمة
الخلافة ويعود بزوج تركية تشقى بها أمي، حتى إذا ملها ربحا وسرحها بإحسان
وجاء بغيرها، وهكذا. ولست مزاجاً مثله لشدة ما كلبت لمي من ضمائرنا، لا لأنى
حير منه أو أعف قلباً وعيماً، وربما رحمت أتعجب لتحكم الأموات في حياة الأحياء،
وسيطرتهم عليها، بلى حق؟ ولم كان هذا هكذا؟ تمثل هذا الوقف، والوصية أيضاً،
أليس هذا تحكماً من ميت فيما نفق يده منه، حين خرج من الدنيا؟ ومع ذلك يرث هذا
ولا يرث ذاك، من الذكور أو من الإناث، ومن الأعقاب والذرائع، ويحرم بعض الأهلين
ويعطى غيرهم أو الخدم، لأن هذا الذى مات ولم يعد موجوداً أبى إلا أن يكون له رأى
نافذ وحكم لا مرد له في حياة من يخلفونه في الدنيا، أليس هذا شيئاً خليقاً أن يقيظ
ويحقق، أليس من حق الحي أن يثور ويتمرد على القيود التي يكبله بها الميت؟ ويا لها
من قيود! حتى اسمه مما أطلق عليه أبواه لا مما اختار هو لنفسه!

وما كدت أعود إلى بغداد حتى عاد الكلام في المحاضرة التي تعمدت أن
أتناهاها، وزارنى مدير التعليم الثانوى يسألنى عنها، فاعتنمت الفرصة وقلت له:

إنها مهياة معدة من أكثر من أسبوعين (وأريته إياها) ولكنى عاتيت

ووسطت له ما سألنى، فاعتذر وأعرب عن أسفه وشرح لى الأمر من وجهته في
مراحة تامة، فإذا الرجل لا تذب له، وإذا بى قد ظلمت ظلماً مبيهاً، ولم يسعنى بعد
ذلك إلا أن أجيبه إلى ما يطلب، واتفقنا على يوم تلقى فيه المحاضرة في قاعة الملك
فيصل.

وكان موضوعها الذى اخترته هو المرأة وأثرها في اللغة والأدب، وشطر كبير منها
لا جديد فيه، فإنه خلاصة ما كتبه قديماً ونشرته في كتابي "قبض الريح" مع شيء من
التوسع في البيان، والشطر الثانى أقول فيه إنى عنيت منذ نحو عشرين عاماً بدرس

أُنب المرأة في أوروبا، فلإننا نعرف رأي الرجل في المرأة وصورتها في ذهنه، ولكنه ينقصنا أن نعرف صورة المرأة والرجل في ذهن المرأة، ورأيها كذلك، غير أنني لم أخرج بنتيجة يستريح إليها العقل، ولم أجد الصور تختلف في كثير أو قليل، وبكث هذا باني المرأة، وإن كانت قد تحررت إلى حد ما، ما انفكت خاضعة لسلطان الرجل منفردة بوجهه، لأنه ما زال أقوى الاثنيين، وعسير جداً أن تستطيع المرأة التي لم تزل من الحرية شيئاً إلا منذ عشرات من السنين، أن تتخلص من سلطان الرجل الذي مفروضاً عليها مئات بل آلافاً من القرون، فيها حاجة إلى مثل هذا الشعر الطويل ليتم تحررها وتستقل استقلالاً حقيقياً، أما الآن فلإنها على الرغم من فوزها بحظ جليل من الحرية، ما فتئت تنظر بعين الرجل وتحس بقله وتفكر بعقله وتصدر عن وجهه، فتأخذها لا يضيف شيئاً له قيمة إلى أنف الرجل.

وليس في هذا وما إليه ما يسوء أحدًا، ولكني مهتد لأوضاعي بكلام بعضه مرح وبعضه جد، أو عسى أن يكون الأصح أن أقول إن المرح فيه مبطن بالجد، فقلت إن الرجل سبق المرأة إلى الوقوف على قدميه، والمشي على اثنتين بدلاً من أربع كما كان الحال قديماً، وشرحت أسباب ذلك، ثم رويت كلمة للأديب الفيلسوف الصيني كن يوتانج يقول فيها ما معناه إنه مستغرب كيف تستطيع المرأة الحامل أن تمشي على اثنتين، والمشي على أربع أوفق وأصح لها والجنين.

فقامت القيامة بعد ذلك، وقالت المرأة العراقية إن المازني شر في عداوته للمرأة من توفيق الحكيم، ولم أسمع لنا هذا ولم أر مظاهر الثورة، وإنما حدثتني به "سكرتيرتي" العزيزة جزأها إله عني خير الجزاء، فقد كانت على صغر سنها أبر بي وأحن على من أمتي، فقلت لها.

"لا بأس، سنصلح ما أفسدنا، ولا تخافي أن يمضيتي بالعجالة، ولأخري بك أن تخافي أن يرشقني بالورود، وقد يخنقني بها، ولكنه خلق جميل لا يسوغي، وما لمن قد ثر فسرين أنهم مبيرون لي سفارات بعد أن كن يحجبن عني، ويستترون مني، ولا يلبقنني إلا مستحييات وهذه فرصة أتاحتها إله لي لأعرف المرأة العراقية معرفتها، فالحمد لله الذي أجرى لساني بما أجرى- نعم الحمد لله على انقطة لحياك إذا كان ما قلت غلطاً"

رحلة العراق^(١٤٧)

(٢١)

لم يبق عليّ، بعد أن ألقيت المحاضرة، وأقمت القيامه اللازمة، إلا أن أنام ملء جفوني عن شوارد ما قلت في المرآة - على رأي أبي الطيب عليه رحمة الله - وألبي بضع دعوات عامة وخاصة تهيم لي فرصاً للخروج من الفندق الذي كان يصسني فيه المنظر المنهمر، ولم يكن الحبس يثقل عليّ، إلا هي الصباح فقد شاع وذاع - لا أدرى كيف - أنني فوثر الوحدة والظوة إلى الظهر أو قريب منه، وكان هذا صحيحاً قبل السفر إلى الجنوب، لأنني كنت مشغولاً بإعداد المحاضرات والأحاديث للإذاعة، والصباح هو الوقت الذي يطيب لي أن أكتب فيه، أو أنشط للكتابة فيه، أما بعد الظهر فلست أصبر على أكثر من المطالعة، ثم إن نفسي تستويحش فتوثر أن أروى وأزار. وكنت لكثرة المطر وطول اكفهرار السماء وثبات السحاب، وإظلال الأرض والبامه إياها، وفرط تدانيه وثقله، لا أنفك أخرج فتتطلع لطله يتقطع ويتفرق فتتطلع الشمس، فانضحي، ولما كان يفعل ذلك، فقد كان متلبداً بعضه فوق بعض، وملتبداً متنسطاً بعم السماء ويسد الأفاق، ولا برق أو يخف، ولا تستطيع الريح أن تسفره لكثافته وتراكمه، لكنه كان ينجاب أحياناً بقنرة ريك فشرق الشمس فتخرج إلى الشرق الرحبة المشرقة على دجلة، وأني لجالس فيها ضحي يوم وإذا بئمد رجال الفندق يتمشى أن سيدة تريد مقابلتي، فنهضت إليها واقترحت عليها الجلوس على الشط، فوافقت.

ولم تكن سيدة كبيرة كما وقع في روعي أول الأمر، بل معصراً كالتى يذكرها صاحبنا ابن أبي ربيعة في رائيته التى من أجلاها قال فيه جرير "ما زال هذا يهذى

(١٤٧) نشرت في "البلاغ" ١٢ أبريل ١٩٤٤ (ص ٢).

حتى قال الشعر" وكان معها كتابشة، فشئفت أن تكون قد جاءت تطلب "حديثاً" نو شيئاً من هذا القليل على أنها كانت رقراقة جمعت الحسن والجسم، فالعذب يطيب معها في كل حال، مهما كلفني.

فسألتها "شأى".

قالت "لا شأى" إنما جئت لأراك.

قلت "هذا شأى" ينتهي بسرعة، فإن بعضى قريب من بعض، فلتا لا أتعب العين، لا بل أتعبها بكثرة الدمامات على خلاف من قال فيها العقاد قصيدته المرقمة،

فسألتني "ماذا قال؟ اسمعني".

فشئبتها من تائبته "يا نديم الصبوات أقبل الليل ههنا" ما أحفظ منها فطريت واستزادتنى. فتجبرت، فأتى سريع النسيان، واقترحت عليها أن تمهلنى ريثما أعود إلى مصر وأراجع دواوين العقاد وغيره من الشعراء.

فقالت "كئن هات من شعرك أنت".

قلت "أعوذ بالله".

وأقبلت عليها أسألها سؤال الملكين. ما اسمها؟ وما؟ إلى بحر ما يقال لهما يسألان عنه بعد عمر طويل

فقصت على أغرب قصة سمعتها في حياتي. وقد دقت واستعنتها القصة مراراً بعد ذلك، فقد التقينا كثيراً في الأيام التالية، ولكن الرواية لم تختلف فيظهر أنها صحيحة، وأنا لفرط غرابة الرواية أطوي اسم الفتاة، وقد قالت إنها إيرانية، لا عراقية، وكان هذا جلياً فقد كانت في لسانها لجلجة وإن كان لا يتردد في حرف ولا يتقل، ثم زعمت أن أمها هي التي تزوجت أباه، فضحكت وقالت:

"هذا يحتاج إلى شأى من الإيضاح، فتعالى نجل الغموض، أملك تزوجت أباك، وأبوك؟ ألم يتزوج أمك؟"

قالت: "بلى". ونطقها كامل العراق بكسر الباء واللام

قلت: "هذا حسن، هذا مطمئن، فلماذا تقلعين الآية وتقولين إن أمك هي التي تروجت أباه؟".

قالت: "لأنه أبوها".

فوثبت إلى قلبي وصحت: "يا حفيظ"

فسألت: "ماذا جرى؟".

قلت: "لا شيء، لا شيء، أب يتزوج بنته - لو تزوجه بنته، أعوذ بالله! يا حفيظ يا ربها".

قالت: "لا لا لا! أعني أنه كئيبها في السن".

لفنوت منها، ووضعت كفي على كفها وقلت: "أرجو، أرجو أن تترفقي بشيئتي، فأني رجل ضعيف، ولي أولاد صغار".

قالت: "ماذا صنعت؟"

قلت: "أوه لا شيء، يستحق الذكر، كل ما في الأمر أنني كنت أفزع، أو أزعج، شيء تافه جداً، ولكني ألا يمكن أن تتكلمي كخلق الله؟"

فلم تفهم، وصار الحوار متعباً مزعجاً، وكلفتني حديثها شططاً، وخفت على عقلي أن يطير، وتمثل لي مستشفى الجانبي في مصر، وإن كنت لم أره والحمد لله، إلى الآن على الأقل، وألفيتني أسمايل في سرى كرى كيف يستقبلني فيه ابن عمي؟ (فأبه مديرة) وهل يستطيع طلبة وعلمه أن يردا عقلي الثمازي؟ من يدري؟

ومسحت العرق الذي يفصد من جبينى ومن أصول الشعرات السبع أو التسع الباقية في رأسي، وتنهت، وقلت:

"الأمر لله، هذا يوم له ما بعده على ما أرى".

فسألتني، لما رأيتني أنتعم. "ماذا تقول؟ صوتك ضعيف"

قلت: "معذرة، كنت أقول إني مصبح فتفضلني".

فتفصلت، وأنا أحشى أن تعدل بالتصير عن وجهه، كما فعلت من قبل، فتقيم أن
أناها هو جدّها أو حالها، فقد صرت لا آمن تخليطها ولا أستبعد أن أستكره منها

ولكنها لم تخطئ، بل قالت إن أناها كان شاماً يناهز الثلاثين، وأنه كان يؤثر
العروية، ويجد فيها راحة ومعه، وإذا بأنّها - ولم تكن يومئذ أمها بالطبع - تدق عليه
بده، وكانت بينهما قرابة بعيدة فيقول لها كما قال جرير لصائدة القلوب، "ارجعي
بسلام" لأنه عزيب، ولا يليق في رأيه أن يدعها تقيم معه في دار واحدة تحت سقف
واحد، ولأنّها لم تكن جميلة، ثم لأن وجودها في البيت قد يعكر عليه صفوه، ويحرمه
متعاً كثيرة لا يريد أن تعرف هذه اللقاة من أمرها شيئاً.

فسألتها "من أمراك بكل هذا".

قالت: "أمي حبستني به"

قلت: "تفضلني، قولي، ومعك روح القدس، يظهر أن أمك مدهشة"

قالت: "هو إيه" (أي كثير، أو جداً)

وأصرت أمها على البقاء، وصارت تصحبه إلى كل مكان، وكنت من الأقالييم،
فكرهته على أن يرافقها في طوافها بالمدينة - طهران - وزيارة معالمها، وسر أمها
جداً أنها استطاعت أن تغريه بتقليها فوق منقنة مسجد

قلت: "هذه قبلة مباركة"

قالت: "وقد زعم أبي بعد أن قبّلها، أنه إنما قبلها قبلة أبوية، وضحكت

قلت: "لا شك، وهل تكون قبلة فوق مشنة إلا كذلك يا بلهاء"

فقالت: "تشمّر (تمزج)؟"

ولم أعرف القشمرة ما هي، فتهزرت وقلت: كفهني ما شئت ولكن تقضلي.
فقطعت مرة أخرى، وقالت إن أمها لما رأت أن أياها يصير على أن القيلة أبوية
ويأبى إلا أن يجعلها كبيضة الديك عبرت خطتها، وكان للأب أخ

فسألتها "عمك؟"

قالت: "لا، صديق"

قلت: "عديا إلى التخليط! لا حول ولا قوة إلا بالله"

وكان هذا الصديق شريكه ونبيمه في الصفوات، وفي مثل سنه، وكانا بقصفا
لبنتين لسر إلا في كل شهر، وكان أبوها يلقي بها أحياناً إلى هذا الصديق ليتولى
الضروج بها للتمزج، وليرخف هو عن نفسه، وإذا به يتبين فيما بعد، في إحدى ليالي
قصفتها محاً، أن الصديق قد قبلها أيضاً قبلة أبوية فوق مؤذنة! فلم يسعى إلا أن
أقول إن المائن علي ما يظهر هي أندية العشاق في طهران للسمر والسهر والقبل
والعناق، فتركت هذا وعدت عنه، ومضت تقول إن قلب أبيها تلهب بعد ذلك بالفيرة
فوقعت الحفوة بين الصديقين، وأن أمها عاد في تلك الليلة بتطرح من السكر فضرب
أمها علقة وبعث فجاء بالمقون فعقد عليها، وأصبح فجمع مائة وهاجر بها وبه إلى
بغداد ولا يزال فيها إلى الآن بمعيش وينجب البنات الطيبات وهو آمن غير الأصبياء.

فسألتها: "ومن تتوكل أن تخطفى بإذن الله؟"

قالت: "تحدثني نفسي أن أخطئك"

قلت: "يظهر أن خطف البنات الصغيرات للرجال الكبار ورائة في الأسرة ولكني
لست عزيزاً فقد سبقك غيره، فابحثي عن غيري."

قالت وهي تضحك: "أرجل له أربع"

قلت: "كان! كان له أربع أرجل وأربع نساء! أعوذ بالله أربع نساء يتخطفن رجلاً
واحداً؟ هذا تمزيق يا فتاتي! واسمعي! اعلمي أن الرجل منا في مصر يقتل إذا تزوج
امراً ثانية"

قالت منهشة: "صدج؟" - تعنى (صدق).

قلت: "صدج، وصدج، وصدج".

قالت "خسارة؟"

فلمست على قولها طلباً للراحة من وجع الدماغ، وأكدت لها أنى كنت أتمنى أن
تخطفنى، بل أن تتكفى إذا شأعت بعظامى، وإن كان لعمى مرأى، ولكن عذرى بين فيما
أرجوا!

(انتهت)

ملحق "رحلة العراق" (١٩٤٥)

اللغة العامية العراقية^(١٤٨)

خالطت الناس في رحلتى الأخيرة إلى العراق أكثر مما فعلت في المرتين السابقتين، فزادنى ذلك معرفة بأمواله، وإطلاعاً على شؤونه، وفهماً لروحه، واستأزعم أنى أصبحت خبيراً بشؤره، ولا أنا أطمع أن أشرح يوماً ما، المهمة من مهمات الإخصائين فيه، وكل ما أعنيه هو أن مملكة الزمن التى قضيتها هناك كانت أطول فاطلعي كان بفضل ذلك أوسع

ولى، كما يعرف القراء - أو كما لا يعرفون - غاية خاصة يدرس اللهجات العامة، والاهتداء إلى ما يتجنى الاهتداء إليه من أصولها العربية الفصيحة، لأنى أؤثر أن استعمل اللفظ المتوس الدائر على الألسنة، دون الدارس والحوشى المهجور، وأبائر فاطمئن القراء فنقول إني لا أنوى في هذا الفصل أن أصدع لهم رسومهم يبحث في عامية العراق، فلمسته على كثرة عيوى، قليل الذوق، أو لعل الأصح أن أقول إني حريص على الاقتصاد في حسن الظن بالقراء.

وسلكتفى في هذا الفصل بما هو أشبه بئن يكون للتسلية، وأجرى في مجراها، ويحسن قبل أن أدخل في الموضوع أن أنبه إلى وجوب التفريق بين الخاصة والعامة، وبين المتعلمين وأشباههم أو الأميين، فإن المتعلمين على العموم يستعملون في كلامهم لغة لا تفاوت بينهما وبين لغة المتعلمين عتداً، على الجملة، ولولا البيرة الخاصة، ما

(١٤٨) الهلال، فبراير سنة ١٩٤٥ (ص ٢٦ - ٢٤).

أحس السامع قريباً، أو شعر أنه انتقل من القاهرة إلى بغداد، أو تنبّه إلى أنه مصري وجليسه عراقي.

على أنه حتى المتعلمين تجرى ألسنتهم حين يرسلون النفس على السحبة بالفاظ من العامية العراقية، يغمض معادها على الغريب في بداية الأمر، مثل (أكور) بمعنى يوجد، و (ماكور) بمعنى لا يوجد، وهما بديلان من قولنا في مصر (فيه) و (مافيش)، وقد أعباني أن أهتدي إلى أصل اللفظين، على كثرة ما سألت واستفسرت، ويقول بعضهم ظناً لا تحقّقاً، إنهما من فعل (كان) وليس يسعى أن أخذ بهذا الرأي، وإن كنت لا أستبعد.

وكلمة (فرد) مما تسمعه مائة مرة في خمسة دقائق، وهي عربية صحيحة، وإن كان الظن الشائع أنها غير ذلك، وأنكر أن ابن الأثير استعملها في كتابه المثل السائر، فتسمّعهم يقولون: فرد رأي، وفرد كتاب، وفرد حطة، وفرد اقتراح، وفرد خطبة، وفرد كل شيء كأننا ما كان، ومصدورياً كان أو مادياً

ومن الألفاظ الشائعة (زين) وهي عربية كما هو ظاهر، ويستعملونها في جواب السؤال، أو بمعنى (جالس) في عاميتنا، فتقول (زين) في جواب السؤال عن صحتك مثلاً، أو عن حالك، ويقول لك الخادم (زين) إذا طلبت منه شيئاً، أو كلفته أمراً، وتقول (زين) أيضاً إذا أردت أن تعرب عن الموافقة أو الارتياح أو التناء بإيجاز

وعلى نكر الصحة أقول إيهم يسألون عن (اللون) فيقولون (ايش لونك؟) أو (كيف لونك؟) يعنون الصحة أو ما هو أعم أي جملة الحال.

ومن الكلمات الكثيرة الاستعمال (خوش) بمعنى حسن، أو جيد، وأصلها على ما قيل لي إذا كانت الناكرة لم تخني، من التركية، فتقول خوش حطة، أو خوش رجل، أو خطبة أو أي شيء آخر، ويجب في كل حال تقييمها على الموصوف، خلافاً للملوف

ويستعملون لفظ (التخت) للسريّر، وهو شائع في البلاد العربية، كما يستعملون (الفرشة) بالمعنى عينه.

وقد يستعملون (الجنة) أى القبة - بقلب القاف جيما - ويعنون بها البيت

ولهم ألفاظ غريبة مأخوذة من لغات أخرى مثل (القدرة) بضم القاف أى الحذاء، ينطقونها فى غير العراق بالكاف المصرية، وأقول المصرية لأن رسم الكاف ينطق فى العراق كالجيم المصرية المعطشة، ومن هنا تراهم يرسمون (الجراج) (الكراج) و (يوجوسلافيا) وأظن أن هذا من التركية

و(الخاتون) ويعنون بها السيدة، واللفظ يستعمل للتوقير، أو لتهكم والسخرية بحسب المقام وما يفهم من مقتضى الحال.

ومن الألفاظ التى تستعصى على العريب (البوق) بمعنى السرقة و(البواق) بمعنى الحرامى أى اللص، و(بياوع) بمعنى ينظر، ويزعمون أن العين أصلها همزة، وأن الميزيق معناه ناظر العين، ونقول عامتهم (بيبي عيونى) أى ناظر عيني أو حتها

ومن غريب عامتهم كذلك (الخاصوجة) بمعنى (الملمعة) التى يؤكل بها، و(سكامى) الكرسي، و(هواية) أى كثير، فيقول أحبك هواية أى كثيراً، ويخيل إلى أنى لم أسمع هذا اللفظ إلا فى رحلتى الأخيرة، على أنى قد أكون مخطئاً

وقد استعاروا ألفاظاً من الإنجليزية، فسموا الخادم والنذل (بوى) ولا أنكر أنى استطعت قط أن أنادى خائماً بهذا اللفظ، واتخذوا كلمة (جلاس) للكوب، فتسمعونهم يقولون (جلاس مائ) أى كوب ماء، وكلمة (جروب) بمعنى فرقة، فيقول القائل منهم (جروب مال الحقوق) أى فرقة تابعة لكلية الحقوق، و(مال) لفظ يستعملونه بمعنى النبعة، أو للإشارة إلى المصدر، فيقولون مثلاً (مال الشام) أى من واردات الشام، أو مصنوعات أو منتجاتها وهو استعمال ليس بالقرب على مصر وإن كان قد ندر جداً،

وهم يحركون السلكن وخاصة إذا كان اللفظ ثلاثياً، فيقولون (النهر) بفتح الهاء، ويرون التحريك أخف من التسمكين، ولا عجب فإن حركاتهم دائمة وسكونهم قليل، وهذه مزية لهم، وعيب فيهم، فى أن معاً، فليت حركاتهم أقل وسكونهم أكثر!

ومما يجعل فهم العامة العراقية على العريب أصعب أنهم يقلبون الكاف شيئاً، بل

ثاءً وشيناً، فيقولون (تنشى) يريدون (أك) في خطاب المرأة، و (الحيبتش) أى (أحكك) فإذا تكلموا بسرعة، وكثرت الكلمات فى ألفاظهم، قاله فى عون السامع، وما أكثر ما كنت أقول لهم حين يسك سمعى هذا اللفظ (ألا تتكلمون العربية) فيكفون عن هذا القلب والإبدال ترفقاً بى، وتمكيناً لى من الخوض معهم فى الحديث

على أنهم فى العادة، أبطأ منا كلاماً، وأكثر أناة، وأقل ثثرة، على أنك لا تعلم من يتدارك كلامه ويتقارب، ويتتابع فى عجلة، فلا تكاد تفهم لسرعته وكثرة ما يقلب من الحروف، ويستعمل من الألفاظ التى لم تلقها أذن الغريب.

ومن مزاياهم الملحوظة التى لا يسع المصرى إلا أن يفتن إليها بسرعة أن اللفظ فى كلامهم نادر، على خلاف عامتنا، فقلما نسمع أحداً يلفظ بالله العظيم، أو النبى، أو أحد من الأولياء على نحو ما يفعل المصريون أو العامة منهم.

ومن غريب استعمالهم أنهم يقولون عن المعنى أو المغنية، أو المتحدث - فى الإنذاعة خاصة - إنه (يقرأ) أو أنها تقرأ، والمعنى مفهوم، ولكن الغرابة فى إطلاق لفظ القراءة على الغناء.

ولكل أمة عاميتها، أو لهجاتها العامية، وفى مصر من العامية لهجات شتى، وقد حدثنى قاض أنه كان يحتاج فى بعض الأقاليم إلى من يترجم له أقوال الشهود أو المتهمين من أهل ذلك الإقليم، أشدة التعويض فى كلامهم، وقرط اختلاف النبر والاهجة، والعدل بمخارج الحروف عن وجهها المألوف، فلا غرابة إذا وجد المصرى فى العراق بعض الصعوبة فى فهم العامية فى أول الأمر.

إبراهيم عبد القادر المازنى

المرأة العراقية (١٤٩)

المرأة العراقية نساء شتى، كتحفتها المصرية، فهناك الريفية التي تحمل ولا تصتجب، والبدوية التي تجري على عرف القبايل - أو العشائر - وتقاليدها، والتي تعيش ولا أقول تحيا في المدن وكثتها في صندوق مغلق، ولا يراها من الرجال سوى أبيها أو بعلها أو أخيها، ولا تبدي وجهها أو زينتها حتى لزوج أختها، أو أبناء عمومتها أو خوولتها، فإذا خرجت إلى الطريق رأيت شيئاً ملفوفاً كته في غمارة، حتى لنحجب لها كيف تستطيع أن تبصر موضع قدمها، أو تتقى الاصطدام بغيرها - بالناس أو بالأشياء - وهناك التي أصابت خطأ من التعليم ولكنها ما رالت على المجاب، تؤثره لنفسها لأنها شبت عليه، أو يفرضه عليها الرجال لأنهم لم يستطيعوا أن يرضوا أنفسهم على ما يقتضيه السفور، أو التطور مع الزمن، وهناك أخيراً الفتاة الحديثة التي تتلقى مبادئ العلوم في مدارس البنات وتتلقى التعليم العالي مع البنين.

فإذا قلنا المرأة العراقية الفلقرائية خلق أن يحتار فلا بدري أي هؤلاء نعني، فإنهن كما ترى كثر، متفاوتات، ولكننا نعتقد أننا نعلم المرأة العراقية إذا عينا غير الفتاة الحديثة، لأن هذه هي التي عليها المول، وفيها الأمل وأمامها - أو في يدها - المستقبل، أما الأخريات فيقرضن على الأيام، ويمضى عليهن الزمن فيمضى بهن، وعهدهن ذاهب لا محالة، ولن يبقى إلا الفتاة الحديثة على درجات من التهمج والتتقيف متقاوية بحسب طبقات المجتمع.

والفتاة الحديثة تخرج سافرة، ولكن البعض يسدان فوق الثياب ما يسمى "العبا" أو العباءة أو الملاية، وهي لفنان من حرير أسود رقيق، تشبك بالشعر، ولا تستر الوجه

(١٤٩) نشرت في مجلة الهلال في مايو ١٩٤٥، (ص ١٩٩ - ٢٠٢) .

ولا الصدر، ولا فائدة لها، وإنما هي أثر متخلف من أيام الحجاب، ويقلّزها على هذه الصورة، خطوة إلى السفور التام، ستلوها بلا شك خطوة أخرى، فتنطرح لأنها تزيد لا خير فيه وكلفة لا داعي لها، وأكثر الطالبات يذهبن إلى معاهد التعليم وعليهن هذه "العبا" ويخلعنّها أثناء الدروس، ويلبسنها حين ينصرفن، على أني رأيت كثيرات من طالبات المدارس العليا يستغنين عن العبا في الطريق ولا يتخذنها

وحدثني مدير التعليم بلواء البصرة، بعد أن زرت معه مدرسة متوسطة للنات أنهن طرحن العبا إكراماً لي ولحقاء بي، وأنهن يلبسنها حتى في الفصول إذا حل عليهن زائر أو مفتش جديد لم يلقنه

وسألت مفتشة بوزارة المعارف رأيها تصر على العبا ولا تترعها أبداً، عن علة تمسكها بها فقالت إنها عادة، وأنها [لا] تشعر بضيق منها، وإنها تراها فضلاً عن ذلك ربة جميلة؛ ولا شك أنها تكسب الوجه الجميل وضاءة، ولكني مع ذلك استمخفتها، ولم أكنم رأيي فيها

ويغلب أن تلزم الفتاة العراقية المدينة بيتها بعد الغروب، ولها العذر، فما ثم ما يغري بالتلكؤ خارج البيت بعد ذلك، إلا لشهود السبعا، وقد أضحككني حيرة صديق لي في الأيام الأولى من زيارتي لبغداد، [أراد] فوق الإكرام، أن يعينني على معرفة المرأة العراقية الجديدة، ففكر أولاً في إقامة مأجبة عشاء بدعو إليها مع الرجال سراً من النساء، وكان لا بد أن تكون المأجبة في فندق ليمتع للمدعوين، ولكن العشاء لا يكون قبل منتصف الثامنة، فلا يكون القراغ منه إلا في الساعة التاسعة أو نحوها، ومن العسير أن تلقى الفتاة العراقية إلى مثل هذه الساعة المتأخرة، إذن ماذا يصنع؟ قلت أجهها حفلة شاي، وكانت لي عليه - كما له على - دالة، فاعترضتنا صعبية أخرى مماثلت تلك هي أن الشاي يبدأ في الساعة الخامسة وأظن به أن يمتد مع الحديث والخطب إلى قريب من السابعة، وهذه أيضاً ساعة متأخرة، والتوقيت العراقي يسبق التوقيت المصري بساعة كما يعرف القراء لو لا يعرفون، لم يسعني إلا أن أرجو منه أن يعدل عن الأمر كله، فنبى، ولكنه أراد الله خلافه، فمرضت، ولم تبق له حيلة إلا الصبر، وما زال صابراً

والفتاة العراقية - كمثل العراق جميعاً - تحب الشعر وتطرب له، وتتظمه أيضاً،
وإم أن أكثر من شعراء العراق، رجالاً ونساءً، وعسى أن يكون مما ساعد على كثرة
الشاعرات أنهن أحرى من المشاعر، وأبعد من اللهو، ولكن كثرتن مع ذلك عجيبة، وما
أكثر من سألتنى منهن لماذا طلقت الشعر؟ كنفاً كنت طلقت امرأة! فكنت أقول لهن
إنى إنما كفت وتبت إلى الله، ولم أطلق، وإنى أستثقل لفظ الإطلاق ولا أستمرنه، فلا
يضع بهده السعسطة، ويبين إلا الإلحاح فى بيان السبب، وأى سبب هناك غير
الإخفاق والمجز

ولقيت سيدة اشتركت فى المؤتمر النسوى بالقاهرة، وأحسنت أنى غير راضى عن
مطالبة المؤتمر بحذف نون النسوة فقالت:

إن التي اقترحت ذلك مصرية.

قلت - ولكن العراقيات وافقن فهن شريكات لها فى النبعة

والعراقية - كالعراقي - تأخذ الأمور جادة، وهى مرهقة الإحساس، وشعورها
دقيق بمركزها المختلف فى المجتمع العراقى، وثورتها على تلك حادة، ولكن لسانها،
ولفظها بالمساواة لا يكاد ينقطع، وقد قلت لإحداهن فى اجتماع خاص ببيت صديق:

ما هذه المساواة التى تطلين وأنت لم تُخلقى خلفه الرجل؟ ثم إنك مخطئة حين
تظنين أن اختلاف الوظيفتين معناه أن الرجل أسمى مقاماً من المرأة، أو أن المرأة
أدنى منزلة، كل ما فى الأمر أن لكل منهما اختصاصه، ووظيفته الموكولة إليه فى
الحياة، وإس هناك - ولا ينبغي أن يكون هناك - مفاضلة، وإذا كانت الحرية مطلبك
فاقررى عليها تفوزي بها، ولكن لا تنتظري أن ينزل لك الرجل عن شيء مختاراً، كما لا
يجوز أن ينتظر الرجل أن تنزل له المرأة عن شيء وإياها الخيار، وكل من يبدد شيء
يحرص عليه، فحررى أنت نفسك، مالم تعلم وإفادة القوة المستمدة منه، واستحقاق
الاحترام فى نظر الرجل، وحسبك من الرجل أنه يطعك ويشفقك ويضع رجليك على
السلم، وعليك أنت أن تصعدى وترتقى فيه، ولا شك أن الرجل لا يفعل ذلك لوجه الله

فإنه أناني، والحياة مع امرأة مهذبة مثقفة أطيب منها مع الجاهلة الغبية، ولكن أنانية الرجل هي فرصة المرأة، فلتفقتما على لحسن وجه وإلى أبعد مدى، أما اللفظ بالمساواة فهراء لأنه شيء أبته الطبيعة.

ولا تزال الحياة الاجتماعية في العراق في بداية المرحلة الأولى، أي أنها موجودة كمعمومة، فالرجال يذهبون إلى الأنثى أو المراهق أو الفتاة، ويقضون السهرة هناك، والمرأة تقعد في البيت مع قريباتها أو صواحبها إذا شاخت، وبعض الرجال يؤثرون الاجتماعات المنزلية، وهؤلاء هم القلة لا الكثرة، فالحال شبيهة بما في مصر، وإن كانت الحياة الاجتماعية أوسع نطاقاً، ومسائل التصرية عن المرأة أوفر وأيسر.

ولا شك أن المرأة العراقية ماضية إلى الصفور التام، ولست أعنى بالصفور مجرد الخروج بوجه غير مستور فإن هذا حاصل، وإنما أعنى الحياة الاجتماعية التي لا تفرد فيها المرأة بمكان والرجل بمكان، ويكون كل منهما بمعزل عن الآخر، وهذا [شيء] ينزل بانتشار التعليم، واعتياد الحياة المختلطة شيئاً فشيئاً.

ولا خوف من ثورة المرأة العراقية في الوقت الحاضر، لأنها في الحقيقة ليست إلا مظهر تملل من قيود وأمية بالقية، حتى الرجال يشعرون أن العادات العتيقة لم يبق لها مسوغ، وأن حياتهم ناقصة بغير المرأة، ومنى استقرت قواعد الحياة الجديدة، وألقت المرأة نفسها، بعد أن تؤدي وظيفتها الموكولة إليها، تشارك الرجل فيما عدا ذلك من وجوه حياته، فتخلق بها أن تشعر بالرضى والاطمئنان، لأن كل ما يضايقها وينقل عليها ويمضها هو الحرمان، فهي ستظل سالحطة متبرمة ما بقيت بمعزل عن حياة الرجل، ولكنها مستقر وتمكن متى رفعت الحوائل وأزيلت الصواجز، أما المساواة بالمعنى الصحيح فليست أعتقد أن في الدنيا امرأة تؤمن بها في سريرتها وقراره نفسها، ومنى نالت حقها المعقول فتخلق بها حينئذ أن تفي إلى ما هو أرشد.

ومما يستحق الذكر هنا أن الطالبات بإحدى دور التعليم العالية ثرن - وأنا بالعراق - على نظام قرضته الدار، وهو يقضى بأن تكون لهن أمكنة خاصة يزاوأن فيها ألعابهن الرياضية، فحينئذ هذا الانفصال، وأضررين عن اللعب والرياضة، وعن

حضور الحفلات المدرسية، وكانت حجة الطالبات أنهم يحضرون الدروس مع الطلاب، ويلتقون بهم في الأبهاء والأقنية لأنهم معهم في مدرسة واحدة، فلماذا يفصلان منهم في أماكن اللعب إلا إذا كان الأستاذ الذي قضى بهذا الفصل حاضراً يرى بعينه ويسمع بآذنه، وكانت حجة الأستاذ أنه يخشى عقوبة هذا الاختلاط إذا لم تكن هناك رقابة، وقد تركت العراق والثورة ما زالت قائمة، والإضراب عن اللعب مستمراً، فلا علم لي بما انتهى إليه الأمر، ولكني وأثق أن الطالبات سيفزن في النهاية لأن هذا هو الاتجاه العام للتيار، لا لأن الأستاذ مخطئ؟

والعراقي والمصري يتشابهان في الطّق (مفتاح الخاء) تشابهاً عظيماً، فلو لا اللهجة والنبرة وبعض الألفاظ العامية المحلية، لما أحس المصري أنه انتقل إلى بلد آخر وشعب غير شعبه، وبمثل هذا يقال عن المرأة فإنها شبيهة المرأة المصرية، في خلقها وعاداتها، ومن المضحكات التي يؤدي إليها اختلاف اللهجة والألفاظ المألوفة، ما قصه عليّ، عراقي زار مصر، وكان معه آخر من مواطنيه، فضلاً في بعض الطريق، ورأى أحدهما مبددة أثينة الثياب فقال لصاحبه يحسب أن تصال هذه المرأة عن الطريق - والعراقي يقول المرأة ويعني المرأة، واللفظ لا يدل هناك على ما يدل عليه هنا من التحقير والمهانة - وسمعت السيدة نك وأقبل عليها أحدهما يسألها فتأثرت به وأوسعت تقريباً، ففطن إلى السبب وشرح لها الأمر واعتذر.

واعترف أن لفظ المرأة كان يثقل على سمعي، ولا سيما حين نقوله سيدة، حتى اعتدت ذلك لخفض وقعه قليلاً، ولكني بقيت إلى آخر لحظة استثقل أن يقال عن المرأة "مرة" وأنفر من نك وأحس بشيء من الخجل - ولا مسوخ لذلك إلا من اختلاف مفاهيم ومألوفنا

إبراهيم عبد القادر المازني

ملحق

(من ذكريات لبنان)

كيف ولماذا سافرت إلى أوروبا^(١٠)

منذ بضع سنوات - أربع أو مائة، لا أدري! - استقر عزمي على قضاء الصيف في لبنان، فجمعت ما عندي من الثياب القديمة، وحشوت بها حقيبة، وقلت أقضى أياماً في الإسكندرية ثم أبحر منها إلى بيروت، وهناك - في الإسكندرية، لا بيروت - لم أدع شركة ملاحية إلا بخلت مكتبها واستغصرت من رجالها عن البواخر، حتى الذهاب إلى الهند، ومواعيد وصولها ورحيلها، وكنت أخرج من كل مكتب بحزمة من الأوراق، فيها صور مقرية وأسعار منفرة، فاتفق يوماً أن لـج وكبل "شركة ستمار" في تزيين السفر لي على الباخرة "أمبيريا" إلى إيطاليا، وكان الوقت ظهراً، وأنا جوعان، فدار رأسي، ووهن عزمي، وكنت أنفذه ثمن التذكرة، ولكنني تفكرت أن "الجواز" يحتاج إلى "تأشيرات" فاعتذرت به وانصرفت.

وعدت إلى فندق "بوريفاج" في أقصى الرمل، وكنت مقيماً به، وأسرعت إلى مائتي فيلست بها، وكنت مهموماً مكروباً موزع النفس، بين لبنان والباخرة "أمبيريا" - أي والله! كأنما كنت ساقض الصيف كله على ظهرها! - فناديت الخادم وطلبت قليلاً من النبيذ هسي أن يذهب عنى الفتور.

وملأت الكأس، وتناولتها، ورفعتها إلى فمي، فسمعت - من ورائي - صوتاً ناعماً رخيماً يقول:

(١٠) نشرت في مجلة الرسالة في ١٩ نوفمبر ١٩٢٤، (ص ١٨٩٤ - ١٨٩٦).

اللازني - هذا - حشرة*

فارتدت بدى عن فمي، وهي ترتعش، وسالت عليها قطرات من النبيذ، ومضى الصوت الجلو يفرى أبعسى.

* حشرة حقيرة - يجب سحقها بالأقدام

فتلفت مدعوراً وقد خيل إلى أن العيون كلها صارت على، وتمسيت لو أن إدارة الفسق محرم الكلام على الطعام، أو نجى بموسيقى فغرق في أنغامها العالية القوية هذه الأصوات الطوقة ولكن الكلام لم يكن محظوراً، ولا موسيقى هناك، فسمعت مكرهاً سكير لا يفيق، ومعيد لا يزعج.

فقلت في سرى يا حبر أسود ؟! أما سكير لا أفيق ؟! أنا عرييد ؟!، وبهشت، ولو أن رجلاً كان يزعمي كذلك لما حقلت نفسي ماذا يقول عني. ولكنها فتاة - فتاة على التحقيق، صوبتها وهذه دليل على ناك - تنكرني بلهجة المحقق، كأنما كنت قد قتلت أباهما، - قائلة الله على أي حال! - وكان الخادم قد وضع أمامي شبيطة^(١٥١) مغرية، ولكن نفسي انصرف عنها وزهدت فيها، فاضطجعت وأنا أعجب للنين يذاكرون هذه الفتاة لماذا لا يتكلمون؟ وما لهم لا يغيرون هذا الموضوع.

* رجل مستهتر، لا يبالي ماذا يقول عن نفسه، ويظن تسخافته أن هذا من الظرف

فلم أعد أطيق هذا الطعن، واشتبهت أن أكنم أنفاسها بالقوطة. ولكني طويبتها - أعنى القوطة - ووضعتها على المائدة وهممت بالقيام، فسمعتها تقول

* على كل حال ماذا ننتظر؟ إن "أسبيريلا" تسافر بعد غد، وإذا لم تشتري التذاكر غداً تأخرنا وفاتنا... *

(١٥١) الشبيطة والشبيطة سمك عريش ذكه دقيق (اللازني)

وتسالت، كالصنم، ولكن بعد أن خالستها النظر ورأيت وجهها، من غير أن يراني، وكانت مع الأسف جميلة، فراد عجبي، فإن الحسن ربيّ وليس، وهذه الفتاة تحمل لي في جوفها بركاناً فانزلاً بالسخط والنقمة وكل ما يناقض معالي الجمال، فقرضت أضراسي وأقسمت لأمسافرن علي هذه الأصبيروا لأرى آخر هذه الحكاية

وأقبل الليل، وكنت أتمشى في حديقة الفندق، وحدي، كما لا أحتاج أن أقول، وكنت لا أزال أحدث نفسي بما سمعت من توصافي، وكان صدرى كالخضم المضرب، وكان الخدم يروحون ويجيئون في أرجاء الحديقة تلبية لنداء المنادين أو تصفيق المصفيقين، وكان الأطفال يجرون هنا وهناك، وأنا ذاهل عن هؤلاء وأولئك جميعاً بالحجارة التي سكبت سمعي على الطعام، فكنت أخطو خطوات، وأقف وأقول لنفسى "حشرة...!"

فقال صوت: "آفندم؟"

قلت - غير عابئ به لو جامل بالي إليه - "حشرة حفيرة"، تستحق السحق بالآقدام" واستأنف السير، أو الخطو، وتركت الخادم - فقد كان أحد الضم - يسخط ويلعن، أو لا يدري هل يقضك أو يقضب.

ولمسي لفي دهولي هذا، وإذا بصرخة خافتة، فالتفت مسرعاً إلى مصدرها، فبصرت بفتاة حانية على غصن مريع علق به ثوبها، فوثبت إليها وأعتها على تظليل الثوب، ولكن بعد أن تخرق، وقلت وأنا أنفض التراب عن كفي وأشير إلى الثقب الظاهرة في ثوبها

"ليس هذا ذنبي، إنه ثوب اليمستاني المهمل الذي يريى هذه الكفاف ليزين بها الطريق ولا يعنى بتقليمها..."

فقلت: "على العكس، إني شاكرة لك نجدة، وأولئك لصار الثوب في يدي هلاهيل... فلتا مدينة لك..."

فرفعت عيني إليها فإذا بها هي التي سلقتني على المائدة بلسانها وحرمتني لذة الطعام وأنا جائع أتضور، فارتدت عنها مقدار خطوة وثبتت عن صدرى أفة محنوقة.

فقلت وهي تدنو مني: "ماذا بك؟".

ورأيتني أتكلف الابتسام فقلت: "بالدور"، أنت مرة ولنا مرة

قلت: "لا شيء.. لا شيء...".

فأجبت: "ولكن ماذا بك؟".

قلت "أوه"، لا شيء، لم أكن أحسب أنك أنت..

فأقلت مستغربة: "ولكن بالطبع أنا أنا.."

قلت: "طبعاً، طبعاً، إني مسخيف"

قالت: "هل تعرفني؟"

قلت: "أعرفك؟ الجواب نعم ولا"

قالت: "كيف يمكن هذا؟ ماذا تعرف عني؟".

قلت "أقل مما تعرفين عني"

قالت: "لا مؤاخذه، ولكني لا أعرف عنك شيئاً"

قلت "صحيح؟"

قالت: "يا طبع صحيح! إني لم أراك إلا الساعة"

فتنهت وانحطت عن صدرى حجر، وقلت: "الحمد لله!" يا ما أكرمك يا رب!

فأقلت: "ولكن لماذا تتكلم هكذا؟ لست أفهم شيئاً"

قلت: "أحسن"

قالت: "هل معنى هذا أنك تخشى أن أعرفك؟"

قلت: "جداً جداً!"

فضحكت وقالت: "هل أنت مجرم هارب؟"

قلت: "شر من مجرم ويودى لو أستطيع الهرب ولكن إلى أين؟ كلا، لست مجرمًا ولكنى حشرة!"

فصاحت: "إيه؟ حشرة؟!"

قلت: "آي نعم، حشرة صغيرة..."

فوضعت راحتها البضة على كتفى وقالت: "لا تتكلم هكذا لعل أنت مريض!"

قلت: "نعم، نعم، نعم."

قالت: "مصكين! ماذا بك؟"

قلت: "أئننى... أنئننى... أه من أنئننى"

والمصيبة أننى كنت أبتسم، فقد راقتنى هذا الموقف على الرغم مما أجن من المقذع على الفتاة، فاقبلت علىّ وجعلت تهون من أمر أنئننى، وتشير علىّ بأن أضع فيها قطرة أو قطرتين من الجليسرين، وأن أبلع قرصاً من الأسبيرين فشكرتها وافترقنا

* * *

وفى صباح اليوم التالى، مررت بـ"مظلم الجوازات" ودار القنصلية الإيطالية، ثم استخفرت الله وذهبت إلى مكتب "شركة ميثمار"، وطلبت تذكرة على الباقرة "أسبيريا" وإذا بالفتاة تقول لى

"وأنت أيشأ مسافر عليها؟"

قلت: "نعم، هل هناك بأس؟"

فضحكت وقالت: كيف أنك اليوم؟

قلت: آفنى؟ أه! صبيح! تلن!

قالت: "يظهر أنها شفييت..."

فهممت بلن أقول شيئاً ولكن الرجل سألنى عن اسمى، ولم أكن أتوقع هذا، فهبط قلبى إلى حذائى، ونظرت من الفتاة إلى الرجل ومن الرجل إلى الفتاة، وقلت:

"اسمى؟ ولكن هل هذا ضرورى؟"

فقال: "لا... ولكن يصن... إن أسماء الركاب تكتب وتوزع على الباخرة"

وكنت قد أنقبتة قبل ذلك ثمن التذكرة فلو لا هذا لماتت. فقلت:

"اسمى؟ اسمى؟ أطلقه.. إبراهيم.. نعم.. إبراهيم عبده"

وقالت الفتاة ونحن خارجان: "هل هذا اسمك الحقيقى؟"

قلت: "هل تعرفين اسمى الحقيقى؟"

قالت: "لا.. إذن هذا اسم مستعار؟ معذرة إذا كنت أطفل..."

قلت: "لا لا.. ليس اسماً مستعاراً... إنه اسمى من الآن فصاعداً"

فهرزت رأسها وقالت وهى تبتسم: "ليس لى حق، هذا فضول لا يقتدر.. سامحنى"

فقلت: "بلهجة الجد الصارم "سامطكة؟ كلا! أبداً.. أبداً.."

فتعجبت، ولها العذر، وقالت: "هل أسأت إليك بشئ؟" إنى أسفة؟

قلت: "أسأت؟ أسأت فقط؟ لقد قتلتنى يا فتاتى؟"

قالت وهى تدير وجهها لترى وجهى: "أتمرح أم تتكلم جاداً؟"

فواجهتها وقلت: "هل تعرفين أنى أمزح؟؟ كلا! أعنى نعم، قتلتنى... طعننتى هنا"

(وأشرت إلى موضع القلب)

فضمكت وقالت: "بهذه السرعة ؟ إنك حساس جداً"

قلت: "نعم، جداً، فأتقن أن تدوسيني بقدميك."

قالت: "ولكن لماذا أدوسك بقدمي؟ لست أفهم كلامك..."

قلت: "لأني حشرة..."

قالت: "أوه! لا تقل هذا، لماذا تشتم نفسك هكذا؟"

قلت: "نعم حشرة، وحشرة صغيرة أيضاً."

قالت: "أوه! إنك تضجبرني بهذا أرا..."

قلت: "وسكير عبيد..."

فوقفت في الطريق وصاحت: "أهو أنت؟"

فقلت - مقادراً - "بالطبع أنا أنا!"

قالت: "وسمعتني؟"

قلت: "كل كلمة، خرقت أنتي كالسمار المحمي"

قالت: "إني آسفة... جداً، واعتذر"

قلت: "آسفة؟ هممم، وأنا أنفلق! لا بأس، هيا بنا"

قالت: "لقد تعمدت ذلك..."

فصحت بها: "إيه؟ كان هذا كله إلي الآن تمثيلاً؟"

قالت: "نعم قلت ما قلت عمدًا، عرفتك من وجهك ومن، لا مؤاخذه، من

رجلك، ولكنك تؤثر الوحدة ولا تبالي بالناس وتبتلى أن تكلمهم، بل تهرب منهم، فماذا أصنع غير ذلك؟"

قلت: كنت تستطيعين أن تمسحيني مثلاً ففسر .. أم هذا حرام؟

قالت: "والآن ألا تعطو عني؟"

قلت: عفونا يا ستي! بعد أن غرمتنا ثمن تنكرة إلى أوروبا بلا داع!

قالت: "أيه؟"

قلت: نعم، كنت مسافراً إلى لبنان، فلما سمعت منك بعض الحقائق ..

فاحتججت .. لا تقل الحقائق ..

أردت أن أعرف البقية .. فقد توصلتنا سقراط أن نعرف أنفسنا!

فوضعت كفها على فمي.

فلم أقبلها .. أغنى كفها .. ولكنى عضضتها عضّة مغيظة .. وأم أبال صراخها في الطريق

إبراهيم عبدالقادر المازني

”ليلة على المشرفة“^(١٠٢)

”ليست لك حاجة إلى أي دواء، إنما حاجتك إلى قليل من الرياضة الخفيفة بضع دقائق كل يوم“

كذلك قال لي كل طبيب استشرته في عتي، وأنا أخشى الأطباء وأفزع من لقائهم وأكره أن يعومى منهم أحد ولكني أحياناً يتقل على ”الشعور بالمرض لا المرض - فيخيل إلى أن كل شيء قاتل لا محالة - الأكل والشرب والرقاد والمشي، والكلام - كل شيء بلا استثناء“ فلذهب إلى الطبيب وأنا أقول لأنفسى إنه لن يصيبني منه شر مما أنا مهدد به، فإذا صرت إليه وختلت عليه علويتى الخوف من طب الأطباء فذهب أهون عليه الأمر وأزعم أنه ”مجرد تعب بسيط لا أظنه يحتاج إلى أكثر من دواء منشط“ وأتقى جهدى أن يفحصنى، وأجمل همى أن أظفر منه بشهادة بئس سليم معافى ولكن العقدة هي أن الشهادة لا يكون لها أثرها المنشود في إصلاح الأعصاب إلا إذا جاءت بعد فحص، والفحص خطر لأنه قد يكشف عن مرض باطن شديد الخفاء. مستعص على العلاج، فما العمل؟ كيف أتقى أن أخرج من عند الطبيب بداء عيا، وأفوز في الوقت نفسه بشهادة بحسن سلوك الأعضاء العمل هو أن أحلوا الطبيب وأداوره، وأعالج أن أوجه إليه أتى صحيح معافى، فقلول له مثلاً

”يا أخى إن هذه الأعصاب بلاء كبير، أعوذ بالله مما يقوى إليه تعبها واضطرابها“

فيقول: ”صحيح“ وينظر إلى السماعه.

(١٠٢) نشرت في ”البلاغ“ في ٢٢ ديسمبر ١٩٢٤ (ص ٣، ١١).

فأسرع فقول: "يا وول المرء إذا تعبت أعصابه! إنى مثلاً يَخيّل إلى أن الكليتين والكبد والرئتين والقلب والمعدة والأمعاء فاسدة مريضة، لا تؤذي عملها، وهذا كلام فارغ، وإلا بالله كيف كان يمكن أن أكون حياً وبى كل هذه الأواء والعلل؟"

فيقول: "صحيح، ولكن المسألة على كل حال ليست مسألة منطق . تعال ."

فقطاعه وأقول: "لكن العبرة بالشعور، وما دمت أشعر أنى سليم وأن صحتى حسنة، وأحس أنى كله الحياة ومطالبها، فلن الاطمئنان إلى هذا الشعور لوبى بالإنسان، لأن شعوراً كهذا لا يمكن أن يحصل مع هذه الأمراض المتخيلة، أليس كذلك؟"

فيقول: "هذا معقول، ولكن يحسن ألا تفكر فى هذه المسائل، تعال ."

فأقول: "مثلاً، القلب كثيراً ما يُخيّل إلى أنه كلّ وتعب وأصبح يريد أن يستريح، وهذا بالطبع وهم، وأنا أعرف أن كل ما أشعر به علته الفازات الضاغطة...، ألا يمكن أن تريحنى من هذه الفازات يا دكتور؟؟ إنها شىء ثقيل جداً، فما قولك؟ صف لواء لهذه الفازات، إنها هى سبب متاعبى جميعاً، نعم ليس بى سواها".

فيقول: "طيب، حالاً تعال لولا لأقصصك ثم نرى"

ولا أرى مفرّاً من الفحص، فلوجه نظره إلى عضو لا شك عدى فى سلامته، كالكبد مثلاً، وأدعوه أن يبدأ به، ليحس رضاه عنه باعناً على اطمئنانى ومشجعاً على احتمال بقية الفحص، ثم أثنى بعضو آخر طالما أتعبتنى من غير أن يقتلنى، حتى لم أعد أباليه كيف يكون، مثل الكلية، فيقول بعد فحصها:

"هذه أمرها معروفة لا جديد فيها"

ثم يضع السماعة على القلب فأقول: "آه! جات الموت يا تارك الصلاة"

وأقول له: "يا أخى، القلب هذا خازوق! طك! ويتهى كل شىء! خازوق صحيح! يكون الإنسان جالساً يتكلم ويضحك ويلعب وإذا بالقلب قد وقف، وإذا به هو قد زال من هذه الدنيا فكذلك ما كان فيها! ما هذا الكلام؟"

وأبالغ جداً في تصوير الخطر من غير الطلب ليحي كل ما ينتهي إليه رأى الطبيب دون ما أصف، فيكون ذلك مدعاة للرضا والاطمئنان. ويرفع الطبيب الساعية ويقول مفتور شديد "لا شيء".

فيحرجني السرور عن ملوحي ويفيظني من الطبيب هذا المفتور فنصيح به: "إيه؟"
فيقول - مفتور أيضاً -: "لا شيء! سليم".

فأقول: همم، سليم؟ وتقولها بهذا الفتور؟ ولو كنت مريضاً لصحت من فوق
مئونة! لكفى بك يسوك أوى صحيح اليلن؟

* * *

وهكذا حدث أنى فى الصيف الماضى - حرمت على أن أزال بعض الألعاب الرياضية الخفيفة كل صباح، قبل الطعام، وكنت أقضى فى ذلك دقائق عشر لا تزيد ولا تنقص، فكنت إذا قمت من النوم، أخرج إلى شرفة واسعة فى البيت الذى اتخذته فى مصيفى بلبان، وأنهب أنشى وأعتدل وأتلوى، وأقوم وأقعد، وأحرك يدي ورجلي، وإداى الصغيران يشحكان منى، ويصنعان مثلى ويمسجان أنى "العب" فيملوان أن يركباني كئنى حمار، وأن يقبضا على ساعدي، أو أن يقرصا ساقى، إلى آخر ما يفرى به الأطفال من مثل ذلك فى العادة، ولو اقتصر الأمر على ابنتى هذين لهان المطب، ولكن أطفال الجيران سمعوا بالعالي - لا أدري كيف أو من؟ فكانوا يطلون برؤوسهم الصغيرة من التوافد وينظرون إلى، وقد يشحكون على، ويأبروا على ذلك كمنابرتي، فلم يفتهم منظرى ولا مرة واحدة.

واتفق يوماً أن أشرفت على فتاة من جيراننا، وكان وإداى قد أغرياني كالعادة وبخل أصغرهما بين ساقى، وهو يحسب أن بينهما طريفاً كافياً، فانهش، وأردت أن أوسع له فوقعت على الأرض، فارسلتها الفتاة ضحكة مججلة عالية، فخرجت وأقصرت، وانتقلت بعد ذلك إلى شرفة أخرى تطل على الحديقة، ولا تنفذ إليها عيون الجيران لكثرة الشجر واسترحت من هذا الفضول المخرج.

ولو اقتصر الأمر على ذلك، لما كان هناك ما أقصه على القراء اليوم، ولكنه حدث أني حملت أسرتي إلى [١٥٣] لنقضى فيه أياماً، ونزلنا في فندق جميل ليس هناك غيره، وفي بستانه عين ثرة ليس أبدع من منظر مائها وهو يتحدر على الصخور ويرعى ويريد ثم ينساب في أقبية عديدة تخزق هذا البستان الحافل بالزهر والثمر

وإنني لجالس على الماء أستريح، وزوجتي تتعشى مع الأولاد، وإذا بجارتى ذات العينين الزرقاوين والشعر النعيمي المقصوص، تقبل عليّ وتقول وهي تمد راحتها المبطنة إلى

"إني أعذر لك من سوء أدبي"

فتناولت يدها وقلت: "ليه؟ سوء أدبك؟".

قالت: "نعم، ضحكك عليك وآتت تلعب. ، كان هذا سوء أدب ولا شك، وأنا آسفة"

قلت: "والكى أحب أن تضحكى عليّ، يسرني هذا"

قالت: "لو كان يسرك لما انتقلعت...، إنك لم تظهر بعبها على الشرفة... بسببي ولا شك!"

قلت: "تعالى، تعالى، اجلسي أولاً، وقصى على تاريخ حياتك، فإني مولع بجمع التراجم، كوالع غيرى بجمع الطوابع".

فضحكت وجلست وقالت وهي تتقمع رجلاً على رجل وتشد الثوب لتغطي ساقها الرخصة:

"تاريخ حياتي؟ هذا غريب! لم يخطر لي قبل اليوم أن لي تاريخاً"

قلت: "حسن، سنرى، أولاً، لقد ولدت".

قالت: "يظهر أن هذا لا شك فيه".

قلت: "أين؟"

قالت: "في بيروت".

(١٥٣) اسم غير واضح في الأصل المتاح (المحرر)

قلت: "وأنا ولدت في القاهرة"

قالت: "لا أعرفها مع الأسف"

قلت: "أنا أعرف بيروت معرفة جيدة، أما القاهرة فلم تشتهر بي بعد، سأبذل جهدي لأثبيلها الشهرة، وإن كنت قد خبت إلى الآن، نعم أنا رجل خائب"

قالت: "خائب؟ كم عمرك؟"

فقلت: "أنا عمري؟ إذا كان العمر بالإحساس، ففأ أوصي أنني أقدم من هذه الجبال، وإذا كان بعدد السنين فعمري...، عمري.. ما لك أنت وعمري؟ لتتكلّم في شيء آخر،"

فضحكت وقالت: "لا مؤاخذه، ولكنك تقول إنك خائب، وأنت مع ذلك مارلت شياً"

فتركت كفي وقلت: "آه، هذا أوصن.. إنك تتكلمين الآن بعقل"

قالت: "كيف تخيب والدنيا كلها تصيب بك وتتأذيك أن تعال اعمل واتجح؟"

قلت: "يظهر أنني أوصم..."

قالت: "لا تمزح.. يظهر أن نسلطك متقطع، نوبات من النشاط لا تلبث أن تقتر... بدليل انقطاعك عن الرياضة."

قلت: "يا فتاتي الحكمة قبل الألوان هل تعرفين قصة مكسيم؟"

قالت: "مكسيم؟"

قلت: "نعم، جيرام مكسيم مخترع اللدغ المعروف باسمه، كانت عيناه واسعتين جداً وكان رأسه كبيراً جداً، فأراد أن يتدرب على الملائكة وقصد إلى معرّن فلقى الرجل أن يديره وقال إن عينيك واسعتان وهما تأخذان من وجهك نصفه، فيخشي أن تصبحا هدفاً مغرياً، ورأسك كبير فستتصب عليه اللكمات جميعاً، وهذه خسارة، فأنصرف مكسيم عن الملائكة، واستخدم عينيه الواسعتين ورأسه الضخم في غير ذلك، فكان أن اخترع مدفعه المشهور ونفع به الإنسانية. وأنا كمكسيم أرى الآن أن في

وسعى أن أخدم الإنسانية من طريق آخر غير الألعاب الرياضية، وإنى لأرجو أن أفتدى إلى اختراع أنفع وأقل من اختراع زميلي ورصيفي المشهور [الخوارج] مكسيم - هذا هو السر يا فتاتي في كفى عن اللعب والعبث وعدولى إلى ما هو أجدر وأليق بهذا الرأس العظيم.

وأقبلت زوجتي فتركتها معاً، واقترحته الفتاة أن نخرج في اليوم التالي إلى مكان سميت اسمه، فاتفقنا على ذلك، ورجوت منها أن تكل إلى إعداد ما نحتاج إليه من الطعام والشراب، فلبت، وأبى أبوها أيضاً - وكان معها - وقالت هي:

"إن عندي في البيت قطة، كلما صادت فلراً وقتلته، جاعتي به قبل أن تكله، ووضعته عند قلمي، وهي تعتقد أنها تصنع شيئاً جميلاً، ولا يخطر لها أن هذا الفلر القتل قد يكون كربه المنظر، أو أنى قد استبشع جثته المشرجة بالدم، فلربكه برجلي، فتشب وراءه، وتحمله بين أسنانها وتعود به إلى، وهي تظن أنى الألعاب، لا يا سيدي، لست أحب الفيران الميتة، فلا تكن كهذه القطة، وإذا كنا سنخرج معاً، فليكن خروجنا على طريقة الناهدة، أنتم تجيئون بما تحبون، ونحن نجى بما تحب، وإلا فهذا فراق بيني وبينكم".

فراقني هذا الروح وأعجبت بنزوع الفتاة إلى الاستقلال وحرصها عليه، وكانت رحلة طيبة معتدة، ظلنا فيها حتى غابت الشمس، وتعشبنا، وصعدوا جميعاً إلى المخادع ليناموا فغد فتر طول المشي أجسامهم، فذهبوا إلى الأسرة يتطوحوون من التعب، ما خلا الفتاة فقد بقيت معي، تؤانسني بحديثها، حتى لوفت الساعة العاشرة على التمام، وكان الجو قد اجترد، ولكن مناظر الماء الدافق والشجر المثمر والجبال المحيطة بنا، كانت تغرينا بالبقاء، فاقترحت عليها أن تشتمل بشيء يقيها البرد، وعرضت أن أصعد إلى حجرة زوجتي فلجيئها بشملة، فلبت، وقالت بل تصعد وتأمر الخادمة أن تجيئني بشملاتي من حجرتي، فإنها على المضج.

ولم أجد الخادمة لسوء حظي، ولم أدر أين يمكن أن تكون في هذه الساعة، ولم أشف أن أزعج من في الفندق من أجل شملة على مضج في غرفة فارغة لا أجد فيها،

فتوكلت على الله وفتحت الباب وبخلت، وأوجست خيبة وأنا أدفع الباب، أن تكون هذه عرفة أخرى، فمشيت مترقياً - أعني على أطراف أصابعي، وكان المكان مظلماً والنافذة مغلقة، ولم أكن أعرف أين مفتاح النور، فمدت يدي أنتحس، فاصطلمت بسريـر، أو على الأصح بعمود من عمده، فالتحدرت بها - أعني بيدي - إلى الفراش، فإذا بي ألس جسماً هزمت وانطلقت من فمي صيحة خافتة فعضضت لسانى من الغيظ والسخط على نفسي، ذلك أن النائم انتفض قائماً وصاح بى

"ارفع يديك وإلا أطلقت عليك الرصاص"

فقلت "ليه؟"

فعاد يصيح "افعل ما أمرك"

فلملت فقال "أدر ظهرك"، حسن، "امش إلى النافذة، افتحها"، أخرج إلى الشرفة، "والآن ابق مكانك..."

وأغلق النافذة وتركى على الشرفة الضيقة، ورجع إلى سريره فنام!

* * *

وقفت على الشرفة برهة أفكر فيما صرت إليه، وكان الظلام حالكاً، فلم أرفى أول الأمر شيئاً، ثم ألفت سواد الليل شيئاً فشيئاً، فنظرت يمنة ويسرة وصعبت عيني إلى فوق، وصوبتها إلى تحت، فلم أجد شيئاً قريباً أستطيع أن أعتمد عليه في النجاة، فتنهت وأشعلت سيجارة، واستأنفت التفكير، وخطر لى أن من الحماقة أن أدعو هذا المجنون أن يفتح النافذة ويطلقنى، ولئلا أكون مع هذا المدس فكيف أمن أن يفرغه فى صدرى؟؟ إنه مجنون ولا شك، وليس أدل على جنونه من أنه حبستنى فى الشرفة بدلاً من أن يدعو الخدم أو يستنجدهم أو يرمى بى إليهم

ولم ينب عني أن موقفى مضحك، ولو كان غيرى مكانى لأغرقت فى الضحك -

والقهقهة أيضاً - أياماً متواملة، ولكن فرقاً بين أن تكون أنت في المازق المضحك وأن يكون الذى فيه غيرك فلا عجب إذا لم تجد فى موقفى شيئاً من بواعث التسلية، وأى تسلية لرجل محبوبس على شرفة صغيرة، فى جو مقرر، ومحكوم عليه أن يقضى ليلته السوداء هذه واقفاً؟؟ ولا أمل فى إقناع هذا المجنون الضطر بقى رجل مأسون وأنى لست بلص، وأن كل ما فى الأمر أنى غطت فغطت غرفة غير التى أعنيها، وودت، وأنا واقف، لو أن هذا الأحمق قد صاح وولول وجمع على أصحاب الفندق ومكانه وخضمه، وشرطة القرية جميعاً، ولكنه أثر أن يكون مبتكراً مبتدعاً، وأن يلهو بى ويتخذى فرسة وضحية، وأيقنت أنى لا محالة مصاب فى ليلتى هذه بالربو وأوجاع المفاصل جميعاً وبغير ذلك مما يجره طول التعرض، وافتت الساعة التى جئت فيها لسان، والساعة التى رأيت فيها هذه الفتاة، وأوسعت نفسى توبيخاً ولوماً، وماذا كان يمنع أن نوقظ خدم الفندق جميعاً وصاحبه أيضاً؟؟ ومالى أنا أبخل غرف الناس متصلاً كالصوم؟؟ وماذا علىّ لو عدت إلى الفتاة وأخبرتها أنى لم أجد الخادمة؟؟ وماذا تقول زوجتى الآن إذا طال غيابى ولم ترنى مرمياً على سريرى؟؟

وطالت مناجاتى لنفسى - إذا صح أن تسمى هذه مناجاة، ونشفت من البرد، وبدأت أسفانى تصطك، وزاغ بصرى، وطار عقلى، وهممت من يأسى أن أثب من فوق الشرفة وأليكن ما يكون، فإن السقوط والموت خير من هذا الهلاك البطى، فالتحيت أنتظر، وفى مرجوى أن تكون المسافة قريبة، والأرض طرية لينة، وإذا بى أسمع لقطاً من بعيد، فقلت يا فرج الله عسى أن يكونوا ناساً مقبلين، وتهيأت للصياح والنداء، ولم يكذب ظنى فقد كان المقبل الفتاة وزوجتى وبعض الخدم، فصحت

"هوه، هوه، أنا هنا".

فرفعت زوجتى رأسها وحدقت فقلت "أنا هنا .. أنا هنا .."

فقلت: "أنت هنا؟ ماذا تصنع هنا؟"

فقلت: "كيس هذا وقت السؤال مريهم يجيئوا بسلام".

فقلت: "سلام؟ ولماذا لا تخرج كما دخلت؟".

قلت: "أوه! إني محبوب...". حبستني المجنون الذي في الغرفة. هاتوا السلام، عجلوا: إني صائم من البرد".

فتهايمسوا بما لم أسمع، مخفت أن يفكروا في إيقاف المجنون لإخراجه. فزجرتهم عن ذلك وأمررت على السلام وهددت بإلقاء نفسي من الشرفة إذا لم يستجيبوا لى، وليس السلام بالشيء الذى يجمده المرء تحت عينه حين ينفخه، لذلك مضى وقت طويل جداً كانت تزحف فيه روحى، قبل أن يجيئوا بسلام طويل ثم سعد عليه خاتم، وأعانتى على النزول.

* * *

وفى الصباح كما نتناول الطعام على الموائد، فإذا برجل ضخم يدخل الحجرة كالقنبرة، ويصيح بالختم.

"وين الحرامى تبعى؟"

يريد أين لصى؟ وتبعى فى عاميتهم كما فى عاميتنا، فنقبل عليه رب الفئق يسأله

"أى لص؟"

قال: "الص الذى حبسته على الشرفة أمس"

فأكد له صاحب الفندق أنه واهم، وأنه لا لس هناك ولا شبيهه، وأنه عسى أن يكون قد حلم، فلبس الرجل أن يصدق، وأمر على أن لصاً دخل عليه متسللاً وهو نائم، فأخرجه إلى الشرفة وجبسه فيها، ليرى له فيه رأياً في الصباح، فسلطاه، لماذا لم يقيض عليه ويسلمه إلى الخدم والشرطة، فقال إنه كان يريد أن ينام! وقد كان أعزل لا مسلحاً كما لوهم اللص، فقرضت أستاذتي.

ومالت الفتاة. "هل نمت؟".

فقال "طبعاً، لماذا لا أنام، وقد جبسته حيث لا يستطيع أن يهرب؟".

فقال. "يا قلبك؟".

وتظرت إليّ، فضحكتنا ما ومعنا أن نضحك.

إبراهيم عبدالقادر المازني

هل تستطيع أن تدلني - من فضلك - على طريق الضهور؟

وكانت الساعة، فيما أظن، التاسعة أو أكثر قليلاً، وكان الظلام دامساً ولكن الجو كان مسججاً، وكنت جالساً على كرسي من الخشب غير وثيق، وحول أشجار (الدلب) العالية تعطر الهواء وتصد عن الرياح إذا هبت، وإلى جابى - على مائدة صغيرة من خشب غير منجور - (مدق) من الباور فيه (عرق) كثير أصب منه في الكوب وأشبعه بماء الينبوع، ولكرج، وفي يدى سيجارة، وفي نفسي سكون، وفي قلبى طمأنينة، وكان صاحب المكان قد تركه لى لأقضى فيه أسبوعاً أنعم بالسكون وظل البال والوحدة، وكان مبيتى في كوخ خشبي رفقه صاحبه عن الأرض وأعلاه بضعة أمتار على عمد متينة، وأسند إلى يابه سلماً ثبته بالمسامير والخيال، وكان الطعام يجيئني من البيت كل يوم وقد يجيء معه الأولاد فيقصون معى النهار، ولم يكن الطريق إلى حيث أقمت ممهداً، وقل من كان يسير فيه - واكباً لو راجلاً - فلهشتى، وأنا جالس أن أسمع في هذه الساعة صوت سيدة، وزاد دهشتي أن اللهجة مصرية، فنهضت واقتربت منها فلم أر في السيارة معها غير كلب أبيض صغير.

قلت : "شهور الشوير؟"

قالت "نعم، فقد ضللت على ما يظهر، فإن طريقها أعرفه ممهداً جميلاً، وهذا كثير الحفر والتراب".

قلت "ضللت ولا شك، ووجدت جداً عن طريقك مصرية؟"

(١٥٤) نشرت في مجلة "نظري" قول فبراير ١٩٣٥، (س ٤٨٦ - ٤٩١)

قالت : "نعم، وأنت مصري مثلي".

قلت : "صحيح، من دواعي سروري، وهذا الكلب"

قالت : "روكسي".

قلت : "روكسي! أهو مصري أيضاً؟ مثلك ومثلي".

قالت : "إنه جميل، أليس كذلك؟".

قلت : "لا يمكن إلا أن يكون جميلاً".

قالت : "أشكرك".

قلت : "أنزلي واستريحي، إنها بقعة يمز نظيرها"

قالت : "ولكن الوقت! أضعت وأنا شاردة... فأتين الطريق؟".

قلت : "هل تأمنين المخاطر إذا ذلك عليه، إنني أخشى عليك كثرة الالتواء والتعرج في مسالك هذا الجبل وأنت غريبة ولا عهد لك بهذه الطرق التي تتلوى كاللغولان".

قالت : "لا تخف علي فإني ماهرة".

قلت : "تفك بنفسك هي التي تخيفني عليك، إنه طريق عنيفه حاد الزوايا جداً، وقد نحتاجين - لجهلك بمواضع التعرج والالتواء فيه - أن ترجعي القهقري، ولا سعة هناك والجبل إلى اليمين والمهواة إلى اليسار...".

قالت : "صحيح هذا؟".

قلت : "نعم، وإشد ما كنت أتمنى أن أقود لك سيارتك إلى حيث تريدن، ولكني أعرف وعورة الطريق ولهذا لا أجرؤ على اقتحامه بالليل".

قالت : "ولكن ماذا أفعل إذا لم أنهب؟ كلا، لا بد أن لوأصل السير".

قلت : "تقضين الليل هنا - في الكوخ العالي- وفي الصباح تنهين إلى حيث تشائين".

قالت : "أين؟ في هذا المكان الموحش؟ مستحيل"

قلت : "سلكون أنا في السيارة."

قالت : "لماذا تتكلم هكذا؟ إن هذا خاطئ لم يجر لي في مال."

قلت : "أنا مصري، وأنت مصرية، فلا تخافى ولا تستريين"

قلت : "لقد قلت لك إن هذه الخواطر بعيدة عن ذهنى، فلماذا تلح فيها؟"

قلت : "أرئيت إذن شجاعتك وانترالى عاينتى الكوخ على الأقل، تمشى إلى اليبورج ، واشربى من ماء البارد . استشقى هذا الهواء المعطر ."

فثبتت، ففكرت. فأنصرت على الإباء فمددت يدي إلى المفتاح وأدبرته وترعته موقف المحرك فصاحت بي "كيف تجرؤ؟ إنك...".

قلت : "قوابها . روكسى، ستسمع الآن ما لا عهد لك به من هذا القم ، فهل تنوى أن تصدق؟"

فوثب روكسى إليّ، ووقف على صدرى، وأهوى على وجهى بلسانه، وشققت به عن الفتاة لحظة، ثم سمعتها تقول بلهجة أرق: "لماذا صنعت هذا؟".

قلت : "لكنى لا أريد أن أحصل منك"

قالت : "ولكنك حذرتنى، وهذا حسبك مبرراً لفتك."

قلت : "أقد وجدت الوسيلة إلى منطك فما اكتفائى بالتحذير؟ ستتأمين مع روكسى هذا فى الكوخ، وأحرسكما أنا من السيارة، لا تخافى أن أسرقها! والأمن تفضلنى لأدخل السيارة بين الشجر ومتجدين على هذه المائدة شيئاً من الطعام لك ولروكسى".

ظلم تنزل، وليست هنية تفكر، وأنا ولقيت على سلم السيارة ثم رفعت رأسها إليّ وقالت: "إنك عتيق، ولكنى أشعر بأن فى وسعنى أن أأتمك على قصتى، ويكفى أنك مصرى مثلى"

وزارت، وجلست إلى المائدة وحشتى بغيرها

وأوجز فبقول إنها وقفت سيارتها في طريق (عاليه) ونهبت تمشي وراجها لتريح قدميها فقد كانت آتية من مكان بعيد، فصعدت فتاة إلى السيارة وشرعت تحبث بما فيها من أدوات القيادة، وكان (ناقل السرعة) مثبتاً في مكان (السرعة الأولى) لأن الطريق شديد الانحدار، فقلقت الفتاة بعثتها وأخرجته عن موضعه، فتحركت العجلات، وأخذت السيارة تتحدر، ففرزت الفتاة ووثبت عن سلم السيارة إلى الأرض فوقعت وتدهرجت، فبادرت هي إلى السيارة لتتركها قبل أن تتحرف عن الطريق إلى الهاوية، فلما فعلت نظرت فإذا الفتاة لا تزال ملقاة على الأرض، وكان لا حراك بها، فصحبتها ميتة، واستولى عليها النعر فانطلقت بالسيارة مخافة أن يقبض عليها الشرطة، وكما نزلت قرية توهمت أن الشرطة سيطلبون عليها فتخرج منها على وجهها، وأخيراً خطر لها أن (مهور القصور) تعج بالنطق وأن أمرها يمكن أن يخفى في زحامها العظيم، ولكنها ضلت.

– "والآن ما العمل؟ إني هاربة، وهذا الكوخ لا يحميني، ففكر على".

قلت - "لطمني، ويعني أعالج الأمر".

فمالت على كلبها وقالت له:

"روكسي! إنه سيعالج الأمر هكذا يقول! لا أترى كيف؟ ربما كان في وسعه أن يحيى الموتى، لا أعلم، ولكني أثق به وأصدقك فقد صدقتني يا روكسي".

فتناولت الكلب وقالت له:

"روكسي، اسمع مني، إن لي بيتاً قريباً من هنا، وفيه زوجتي وأولادي، وفيه أيضاً - أو نعمته على الأصح - قبر واسع عليه باب عظيم، في هذا القبر يا روكسي نخفي السيارة، وفي البيت - مع الزوجة والأولاد - نخفيك ونخفيها عن عيون الشرطة، فما قواك؟".

فلحقت مني الكلب وقالت له:

”أسمعت ما قال يا روكسى؟ إنه متزوج وله أولاد وبيت له قبرا! أليس هذا جميلاً؟
ولست أدرى - ولا أنت يا روكسى تدرى - لماذا يترك بيته وأولاده وينام هنا وحده؟
ولكننا لا نملكه يا روكسى لنلا يظن بنا الفضول.“

فحملت الكلب وقالت له قى أنه

”روكسى يا بى، إنه لا فضول ولا سر هناك وستحملك زوجتى على وعن جنونى
بما فيه الكفاية، وقل لى هل يطم أهلها بما حدث؟ ويفرارها! أم لم تعن بأن تخبرهم
ولو بالتليفون؟“

فتناولت الكلب وقالت له وحدها على خد.

”أسفة يا روكسى! لقد ضاع عقلى فهمت على وجهى . كلا، لا يطم أهلى بشئ،
ولا يد أنهم قد حنوا الآن“

فنهضت وأنا أقول

”لا حيلة الآن، فلنركب إلى البيت، وسأرى هل أستطيع من هناك أن أتصل بهم
تليفونياً، أم نرجى ناك مضطرين إلى الصباح حتى ألقاهم.“

قالت : ”هل تتوى أن تذهب إلى (عالية)؟“.

قلت : ”لا مفر من ذلك، وإلا كان سؤال أهلك عنك مؤيماً إلى دلالة الشرطة عليك
والهم أن يطمئنتوا أولاً، نفوسى بنا.“

وفى الصباح قلت لروكسى

”لا أعلم متى أعود يا روكسى، فكن أنت السجنان لسيفتك لا تدعها تخرج فتوسع
الناس تقتيلاً كما فعلت أمس، إنها خطر عام، فلزمها الدار ولا تغفل عنها، فاهم؟“.

فأثنت الكلب من صدرها وقالت له:

كيف تمسكت على هذا الطعن على سيدتك يا روكسى؟ انبحة نحيبة واحدة وقل له فيها إنه مخطئ، وإنني بريئة مكشوفة الآن، أليس قد طوعت؟ وإنني شاكرة ومسرورة؟
فنبضى الكلب الفارس.

ولطمان أهلها في (عالية) قبل أن أبرح القرية، وركبت إلى مكان الحادثة وتحررت فإذا الفتاة سليمة لم يصيبها سوء إلا من أهلها الذين أوسعوها تقيباً على فضولها وهماقتهما، فعميت إلى (عالية) وعرفت القوم بنفسى وقصصت لهم ما حدث، واستلكنتهم في بقاء (زوزو) - فهذا اسمها الذي يدللونها به - أياماً معنا، واتفقنا على أن يوافونا بعد ذلك ليعودوا بها، وكنت أختها - سوسو - تريد أن تصحبني، ولكني اعتذرت بقي أريد الفن (زوزو) برساً، فقال أبوها
"افعل فإن بها الحاجة إلى هذا الدرس".

ولقد عجت بعد رحيلي كيف صنعتي الرجل ولكنهم كانوا كراماً وفيهم مذاجة عجيبة وكان النهار قد ولى لا رجعت، فرأيت "زوزو" مطلة من النافذة ومعهما الأطفال؛ فصحت بها "ششش" وأشرت إليها أن ترتد عن الشكاه وصعدت، فلقيتها ساهمة واجمة، منتقمة اللون، فقالت لي زوجتي: "ماذا وجدت؟ قل".

فقلت: "أى استقبال هذا يا امرأة؟ هلا تركتني حتى أبلغ ريقى؟ إنه ناشف فامسقوني شيئاً؟"

فقالت زوجتي: "لا تتخابث؛ قل وأوجز" فلن يكلفك الكلام شيئاً؛ وهل يكف أسنانك عن الدوران؟".

قلت: "امسقوني أولاً... وحياة زوزو!"

وجاؤني بعصير الليمون، وقالت زوجتي وهي تنلوني - "لا تمنينا من فضلك كل شيء أهون من هذا التطبيق".

قلت: "وما لك أنت؟ إنها هي التي تمنعك لا أنت، فلتتعذب قليلاً؛ فقد تعذبت كثيراً...".

فقلت زوزو "ومع ذلك إن تخبرني بجديد، لقد قرأت كل شيء في وجهك"
فقلت "أولاً ينطق وجهي إلا بلخبار الفواجع! والتفت إلى زوجتي "أهذا عهدك به
يا امرأة؟"

فقلت زوجتي "لا تمرح، فليس هذا وقتك، ما لنا وأوجهك الآن؟"
قلت "إنها تزعمه متحوساً، فدافعي عنه، بيضيه".

فقلت زوزو - كم أقل إنه... لكنه . "

فقلت "منحوس! قولها ولا تخافي! إن خوفك كله من الشرطة! وليس لوجهي من
يحميه".

فقلت "كلا لا أخاف الشرطة، إنما خوفاً كله وجري على الفتاة"
قلت "صحيح؟"

قلت "بلا شك؟".

قلت "انتقلعين لي عهداً أن تبقى هنا معنا حتى يذهب عنك السود"
فقلت زوجتي - "ستبقى على الحالين... انتقلنا على ذلك! فقل".

فنظرت إلى زوزو فلشارت برأسها أن "نعم" فقلت.

"روكسي ، ثعلال هنا... هب... فوق... فوق... في حجرى... همم، لقد رفضت
زوزو أن تبقى وتؤنسنا، فهل أخبرها اليقين أنقول إنها تستحق أن تطعم؟ يا لك من
مخلص وفي لها يا روكسي! ولكنها حائشة وغليظة القلب يا روكسي! أنقول لا؟؟ ألا
تطم أنها تدوس الناس في الطريق وتتركهم صرعى ولا تبالى ما حل بهم، امسمع يا
روكسي! لقد وعدت سيديك أن أعطي سيديك هذه درساً ولكن قلبي لا يطاوعني لأنه
رقيق، ولكن وفاء بالوعد أخبرك أنت وحده فها أنتك! لا، لا، لا تخف أن أعضها،
فإن الكلب لا يعض أذن أخيه! زوزو تضحك يا روكسي! عليك أم منى يا ترى؟ دعها
تضحك! إنها تحصن الضحك ولا تحصن التعيس!".

وهنا أشارت زوزو إلى الكلب فوثب إليها فقلت :

"يا ملعون! وبعد أن كنت أحبك!"

وقالت له وهي تلمص خديها بخد:

"ماذا أسر إليك؟ قال إن الفتاة بخير؟ والأمر بسيط؟ أنظن يا روكسي أنه يستحق أن نشكره؟ بعد أن أزهق أرواحنا وأزعجنا بطول صمته وعبوسه المتصنع؟ تقول إنه يكفي أن تشكره أنت؟ بالتيابية عتاً؟ ولكنه لا يحبك يا روكسي؟ كلا؟ يحبك؟ لولاي أنا؟ أنا أكيد له عندك؟ وأفسد ما بينك وبينه؟ ولكنه بالطبع، حسن، قم إليه فاشكره!"

وكانما فهم كل حرف من كلامها، فقد وثب إلى حجرى ووقف على صدرى وأقبل على وجهى يلصقه وأنا أصرخ مستجيراً، وهي تقول: "هذا شكره، على طريقته."

وقالت زوجتى: "إنه لا يستحق أكثر من ذلك".

فقلت لما تخلصت من عناق الكلب: لا تخافى يا امرأة! فما أطمع فى أكثر من ذلك!

ورميت إلى زوزو نظرة، فمضحكتنا ومحببتناى ينوى الخوخ فجريت منهزماً إلى تحت، فصاحت: "إلى أين؟"

قلت - "لا فائدة! سلجى بالشرطة".

إبراهيم عبدالقادر المازنى

من ذكريات لبنان:

الحذاء الذهبي^(١٥٥)

"استيقظت!"

وكانت قد أغفت، وهي قاعدة على نكة تحت شجرة صنوبر، ونراعيها على صدور النافورة، ويسراها على حجرها، ثم فركت عينيها فقلت:

"والآن أرجو أن يلهمها الله ألا تغير جلستها، فإنها هكذا أحلى!"

فصلت ساقاً عن ساق، وتناولت حقيبتها الصغيرة وفتحتها ونظرت في المرأة، ثم أخرجت مقبلاً، وجعلت تلمس به وجهها في مواضع فقلت:

"ولها جيد جميل أيضاً - وأناملها مخضبة.. الآن صرت لا أرى عيياً في قول من يقول إن هذا من دم العشاق!"

فابتسمت وقالت: كفتها تحدث نفسها - "ماذا يقول هذا الرجل؟"

فقلت، وأنا أنكث الأرض يعود صغير في يدي: "إنه يسأل: أتراك زوجته؟"

فزوت ما بين عينيها وقالت: "زوجته؟ زوجة من؟"

قلت: "زوجتي أنا!"

فصاحت: "إيه؟"

(١٥٥) نشرت في "الرسالة"، في ٢ ديسمبر ١٩٢٥ (س) ١٩٢٦ - ١٩٢٢

قلت: "زوجتي"، تعرفين الكلمة؟... يتجهونها منا بالزاي والواو والجيم، وأنهجاها أنا بالعاء والباء،".

وكانت تنظر إليّ مبهوطة، ثم ابتسمت وسألتني

"هل تعني أنك لا تستطيع أن تعرف زوجك حين تراها؟"

فأعلمت السؤال وقلت، وأنا أشير بالعود الذي في يدي: "إك هي"، أو أنت عيناها، وجيها وساقاها..."

فخيل إليها أنها فهمت وقالت: "أوووه! أنك زمان طويل لم تراها؟"

قلت: "طويل جداً... ريع ساعة"

فصدمها هذا فقطبت وقالت: "إك تسخر مني" ومدت يدها إلى الحقيبة،

فقلت: "لا تعجلي! ألم أقل إنه هكذا أحلى؟ وعلى ذكر ذلك أسألك: كيف يمكن أن تتكلى بهذا القم الصغير؟"

فأجبت: "إني ذاهبة"، أسمع لي"

قلت: "إنها ذاهبة؟" هل سمع أحد بعمل هذا؟ ليت شعري كيف تستطيع أن تمشي في مثل هذا العناء الدقيق؟ ثم تجي زوجتي فتوسعتي تنبيهاً؟"

وكانت تهم بالقيام، فترددت، ثم سألتني "من أنت؟ إني أريد أن أعرف"

فقلت، وعينى إلى الأرض: "إنها تسأل؟ بداية حسنة على كل حال - خطوة في الطريق القويم - ومتى رأيت امرأة تعني بأن تسأل من يكون الرجل فأعلم بأن الأمل في"

فاتنقت قائمة وقالت وهي عابسة: "سأذهب" ولكنها لم تكذ تخطو خطوة واحدة حتى صرخت وارتدت فالتصقت على الدكة، وانحنت قمدت يديها إلى قدمها اليمنى، فأسرعت إليها أسألتها ما الخبر. وكانت قد خلعت العناء وبست فيه أصبعين تنحصر بهما، فقالت:

"مسمار! ماذا أسمع؟"

فلأخذت الحذاء وتطلعت فيه ثم قلت:

"من كان يتصور أن هذا الحذاء الصغير يمكن أن يسكنه مسمار ضخمة كهذا؟
والآن هل يمكن أن يكون في حقيبتك عتلة أو معول أو فأس أو أي شيء أصغر أو أكبر
يدق به هذا المسمار للمعون؟"

فقلت وهي تضحك: "لا تمرح من فضلك؟"

قلت: "هذا أحسن - نعم يجب أن تضحك إذا لم تستطع أن تفعل ما هو خير من ذلك؟"

فقلت: "ولكن ألا تستطيع شيئاً؟"

وتلفتت فقلت: "أستطيع أن أضع النعل على وجهي، وأقبض على رأس المسمار
بأسناني، وأشد... هكذا"

فصاحت بي وهي تتلوى من الضغط: "أرجو، أرجو."

فقلت: "أعرف ما تريدان بغير حاجة إلى رجاء.. أن أحملك إلى حيث تقصدين"

ففاص الإبهام، واعتلت في جليتها وقالت: "أتظن أنني أسمع لك بذلك؟ مستحيل"

قلت: "ولم لا؟ إنك أخف من الروشة، وفي وسعي - بعد قليل من التدريب - أن
أظهر بك على المسرح، وأمشي بك على الحبل، محاولة على أسناني"

فضحكت ثم قالت: "إنك فتيل؟"

قلت: "بالعكس... إني لطيف جداً.."

فقاطعتني ضاحكة وقالت: "دع لطفك الآن.."

- "قبل أن تمرغي به؟ هذا مطلب بعيد؟"

- "وقل لي ما العمل؟"

فقلت: العمل أن تجلسي حيث أنت وإن كنت ستحرم منظره الفاتن وأعود أنا إلى القهوة ثم أكر إليك بالهذاء في يدي - لا في رجلي - بعد أن تطرد هذا الطفيلي

وانصدرت إلى حيث القهوة وعشرت مرتين أو ثلاثاً، فلمنت أن العجة من الشيطان، ولكني مع ذلك وعلى الرغم مما أصابني، ظلت أعود كلن ورائي ألف كلب من كلاب الصيد، وحرث بين أشجار القهوة فوفقت لنائي - يا حاج إلياس! يا حاج إلياس! فقبل عليّ اثنان من أعوانه؛ فاضرت إليهم بالحاح وطلبت شيئاً أخرج به المسمار وكانت زوجتي - مع أولادنا - على مقربة مني، وكانت ترائي ولا أراها، فقالت: "ما هذا؟"

فدبرت حتى واجهتها وقلت، وأنا أمشي إليها: "هذا؟ لما هذا حذاء جميل...؟ فدهشت وسألتني: "من أين جئت به؟ أين وجدت؟" قلت: "لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم... صليق الله العظيم... خذي جريبه! اخلعي هذا."

وانترزت حذاءها الأيمن، ونهبت أعود به

"ولكن هذا ليس حذائي؟"

قلت: "يا فتاتي المتبطرة.. هو حذاء والسلام.. تستطيعين أن تلبسيه وتمشي به وتقطعي أربعمائة متر، ثم تظعيه لا شاكراً ولا مشكورة، ثم تلبسي هذاك الجميل وتقعدي به كما أنت الآن..، وشيقة أنيقة..، فانتة الجيد..، ساحرة العينين..، وتروحي تهزري مع زوجتي التي تصب على رأسي الآن أحر اللعائن..، ومن يدري؟ إذا لم تعجلي قبل أن يظفي بها الحق والسخط، فقد تلقى بمذايك في البركة..، إن النساء

هكذا . ، هذا لك جميل . ولكن كل امرأة تعتقد أن حذاءها هي أجمل وأنفس . ، هيا بنا !

فوقفت وهي تقول . ولكني لا أستطيع أمشي به . واسع .

قلت . لا تدمي زوجتي - أعني قدمها ، فإنها جميلة . ثم إن المشي في حذاء واسع خير من المشي في حذاء في جوفه مسمار . ، تعالى الله قيل أن يفرق في البركة

فتوقفت وصويت عينها إلى قدميها وقالت . ولكنه فضي وحذاءي ذهبي ؟

قلت . قوس قزح . ، تعالى . ، أترانا في معرض لزياء هنا ؟ نحن في هذه الجنة المقروسة على جبال الشوير . ولا أحد معنا ولا ثالث لنا إلا . إلا الهوى . ، كنم وحواء . ، وعلى نكر ذلك أظن أن حواء كانت تلف نراعها بنزاع أتم إذ يصيران في الجنة

* * *

وقالت زوجتي ونحن مقبلان عليها . كم أُر ملكك أبداً في الدنيا ؟

قلت . صدقت يا امرأة ! وأين تجدين في هذه الدنيا نظيري ؟

قالت محتجة . تنظف حذاءي وترمي لي هذا الـ .

وأشارت بازدياء إلى حذاء الفتاة ، وكان ملقى على الأرض

فقلت . هه ! عن اللص معي ، أعني المسئولة عن الجريمة والمحروسة على ارتكابها ؟

فصاحت الفتاة وضربت بكفها على صدرها . "لنا ؟"

ونظرت زوجتي إلى قدمي الفتاة ثم نهضت وأقبلت عليها وقالت . وهي تمد إليها يديها

"أوه ! لم تكن أعرف ؟ ولكن كيف استطعت أن تمشي فيه ؟ إنه واسع . ، ورجلك أصغر . ، وأجمل أيضاً ؟"

فالتفت إلى الفتاة وقالت: "تسمعين يا هذه؟ إنها تقر لرجلك بالمزينة! وجيدها؟
أليس ساحراً يا امرأة؟ أكنت معذوراً إذا اشتبهت أن أكلته؟ وعيناه؟ وهذا القم
العجيب الذي لا أدرى كيف يتسع للكلام، وإن كان قد اتسع جداً لنم حذائك يا امرأة؟"

فريعت الفتاة وصاحت: "أنا نعمة؟ حرام عليك؟"

فقلت: "نعم... جداً... قلت إنه واسع عظيم، وإنه ذكرك بالباخرة تابتانك، وإنه
يسع جيشاً عرمرماً من الأقدام الكبيرة الخليفة، وإنه..."

وكانت زوجتي تضحك، أما الفتاة فقد خيل إلى أنها ستسقط على الأرض،

وقالت زوجتي: "فطبع! ألا تقفل هذه البوابة! لا تعبأ به يا حبيبتي ولا تلفتي
إليه... إنه هكذا دائماً... والآن خذي هذا المسار واحتفظي به للذكرى"

فقلت: "وأنا؟ ما أجرى على التمتع! لقد قطعت كيلو متراً في النهاب والإياب -
قطعت عنوا... وهذه الأضحية على راحتي الماهرة..."

فقالت زوجتي: "جزاك! أن تقعد مع الأولاد، وتذهب نحن نتمشي..."

قلت: "هذا جزاء سنمار... لا بأس! مجنون من يصنع معروفاً في بنت من بنات
حوا..."

فقالت زوجتي: "هذا رأيك! إن لن أسمعها إلى النساء معنا!"

فصحت: "لا لا لا... إنما أعني بنتاً من بنات أم"

فضحكت الفتاة ورمقت زوجتي بغضب... ..

إبراهيم عبدالقادر المازني

من ذكريات لبنان : عين النعص^(١٥٦)

أمنت - وأنا في لبنان - بأن الجهاد من السحاب أكثر من الراق، وأن المطر أكثر من الصواعق، وأن الصواعق أكثر من الذين تمسيبهم فتصرعهم، ولم أكن أعرف هذه الحقائق - أو بمباراة أنق لم أكن أجعل بالي إليها أو أعني يتبهرها - قبل أن أصعد في الجبل الذي تنتفجر من قمته "عين النعص"، وكنت أسمع بها، وأستسقى منها، ويجيش السقاء يوماً بعد يوم يملأ قنطاس من مائها، فقد قالوا لي إنه نافع للكليتين وأنه يفتت الحمى الذي يكون فيهما، ثم أثبت أن أرى هذه العين المباركة فهدوني عنها إشفاقاً على من جهد التوقله في الطريق إليها وعمر، والجبل الذي يخرج منه شامخ بالذخ، وقته بقيقة، منتصب، سوداء، وعشرفة من إحدى الجهات على الهواء، فاقصرت وأنا أقول لنفسى "ما أكثر ما يتمنى المرء ولا يتركه، ولو أحصى الإنسان كل ما تعذر عليه مما اشتهى أن يرى أو يجرب أو يفعل، لهاله قلة ما بلغ وقضى من أوطاره وكثرة ما حرم على فرط الإغراق في الطلب أو التمنى أو الاشتناء" وجعلت وكفى أن أصرف نفسى عن هذه العين وأن أقنع منها بما يحمله إلى الرجل من مائها الشافي، ولكن القطرة من ماء البحر ليست بالجم، والذرة من الرمل ليست بالصمراء لذلك ظلت نفسى تزين لي هذه المضاطرة، حتى وقد علينا لغيف من الأمسقاء فما كانوا يقضون في "بكيفا" ليلة حتى صبحتهم باقتراح أن نصعد في الجبل إلى "عين النعص" وجعلت أشوقهم إلى رؤيتها وأغريهم بالسعى إليها وأصفها

(١٥٦) نشرت في مجلة "شهر زاد" في ٢٤ ديسمبر ١٩٢٥ (ص ٤ - ٦)

لهم كأنما كنت ملأت ناظرى من حسننها، أو كأنما هي عين فتاة هيفاء لا عين ماء؛ حتى وافقوا، وعاهدوني أن نمضي إليها في فجر اليوم التالي فانصرفت راضياً مقتبلاً، ولكن في نفسى هواجس ووسوس، غير أنى قلت لنفسي

"اسمع يا مارنى؛ إن الكثرة تغلب الشجاعة، وأصدق من ذلك أن الجبان تشجعه وتقوى قلبه كثرة الناس حوله، وهؤلاء أربعة أشداء أقوياء مقتولوا العضلات، فليكن الطريق كما قيل لك، مخيفاً، فإن في وسع هؤلاء الأربعة - إذا تعبت - أن يحملوك كما تحمل أنت الحقيبة الصغيرة، فإنك خفيف لا ثملاً أرضاً ولا ثملاً فضاء، ثم ما هذا التهوريل عليك بمشقة السير؟؟ إنك تمشى كل يوم بضعة فواصل تقطعها صاعداً طوراً، وهابطاً طوراً آخر، فماذا يخيفك من طريق النعس؟ وعلى أن على مقربة من العين هندفاً وفيه ناس مثلك، فلماذا يسع هؤلاء أن يصعدوا إليه كل يوم، ويعجزك أنت مثل ذلك مرة واحدة لا تتكرر ولا تتعدد؟"

وخرجنا في صباح اليوم التالي لا في الفجر كما كنا قد اتفقنا، بل في الساعة الرابعة، أى بعد أن علت الشمس - ولم يكن معنا شيء نصله، حتى ولا عصا، فشرعنا نساعد ونحن نضبط، وتدور مع الجبل - أعنى على جانبه - وكانوا يتسابقون أحياناً فثعهم وما أثروا، وشمشى أنا على مهل اخاراً لقوتي وضناً بها أن أبدها وأغنيها في طريق أعرف أوله ولا أعرف آخره. فلما أجهل ما يتطلبه قطعه كله من جهد

وفرغنا من الطريق الممهد، وبخلفنا في أرض معشوشبة، بعضها نباته ناجم ووروسه أمثال المسال وأكثرها زرع ناهض مستو على صوقه ومنقشر، ولا طريق هناك فيما ترى العين، وكل ما يستطيع أن يهتدى به الإنسان، أراذب من الصاج وبرابغ من الأجر، تبو هيناً وتعتجب أحياناً وراء الزروع، ولكن الذى يظهر منها كاف للدلالة على الاتجاه الذى ينبغي السير فيه، لأنها ممتدة إلى العين ولا شك.

ولم تكن نمشى جماعة، بل مقترقين منتشرين، وحدث أن أحدهما اختفى فجأة - بلمته الأرض - فجزعنا وخفنا أن يكون قد سقط في هاوية لوغار في فجوة عميقة، فذهبتا نصيح به وناديه، وإذا به يبرز لنا شيئاً فشيئاً من بين الزروع، فسألتاه عن

سر هذا الفوص في اليايسة، فقال إن الزرع يحجب الأرض وقد ظننا كلها مستوية،
وإذا به يهبط في حفرة، فحفظنا بعد ذلك ننظر إلى الأرض.

والتقينا ونحن سائرون بفتاة تحمل جرتين، فاستوقفناها وسألناها أن تسقيننا،
ولم يكن بنا ظناً، ولكنها كانت غصبي السن، ساحرة العينين وأصعتهما جداً، وأنا حين
أقول "ساحرة" لا أعني ما يفهم الناس عادة من هذا اللفظ، أي جميلة أو فاتنة أو غير
ذلك ما يجري هذا المجرى، وإنما أعني أن فيهما "سحراً" غريباً بالمعنى الحرفي لهذا
اللفظ، فقد كانت تنظر إلينا ونحن نجانبها أطراف الحديث، فلا يقوى الذي يكلمها،
على التحديق في عيناها، فيغش طرقة، ويروح يلفت كالضطرب، ويلوح بيديه، ويحرك
رجليه، وكنت واقفاً أسمع وأرى ولا أتكلم، وأعجب لهذه القوة التي في نظرتها وكانت
ربما التفتت إلي فتري عيني عليها، فترامقني قليلاً، فلولا أن أصحابي كانوا يشغلونها
بالكلام لكان الأرجح ألا تحول عيناها عني قبل أن تهزم أو أنام

وسمعتها تصفهم، وأنا كالذاهل، إلى أين، فقلت بصوت عال إنني أنوي، بعد أن
أرى عين النعس، أن أصعد إلى قمة الجبل فزيت ما بين عينيها وهزت رأسها وقالت
"لا تفعل"

قلت "لم لا؟"

فهزت كتفيها وأطرفت قليلاً ثم قالت: إن عليها أن تمضي بهاتين الجرتين وأولا
ذلك لصحبتنا، على أنها - إذا لم يشغلها شغل - ستلحق بنا
وانتمت تريد أن ترفع الجرتين، فأمضيت قروشاً وسمعتها في يدها وأنا أقول:
"هذا لسحر عينيك - إلى الملتقى"

* * *

قضينا ساعة في فندق "النعس" كانت من أهنأ وأمتع ما مر بنا في حياتنا،
وكانت السحب تمر تحتنا وتحجب عنا ما على الجبل من القرى، فكان يخيّل إلينا

أحياناً أنا نشرف من كوكب آخر على الأرض، فلولا أن أماننا أقداح العرق نعب فيها ونكرخ منها قنومنا أنا من الملائكة، وأنا في السماء الثالثة أو الرابعة، ولا مطلقاً نسيح بصمد الله ونشئ على آلائه.

ثم قمنا نزور العين ونشرب من مائها حيث يبيع، ولكننا لم نر الموضع الذي يفرج منه الماء لأنه مسور وعليه بناء كبير، ومال إخواني على المجرى وجعلوا يفترون منه ويترشفون، فقلت لنفسى هذه فرصتى، وتسليت، وبرت حول البناء وانطلقت أوسع إلى القمة، كما يفعل القروء، أعنى على يدي ورجلي، حتى انتهيت إلى مضرة كبيرة ضخمة على هيئة المحارة، تشرف على الهواء ويخيل إلى الإنسان أنها تريد أن تنقض وتنطبق عليه، وبضاعف هذا الشعور المزعج إن الشقوق فيها كثيرة وواسعة جداً، حتى ليستطيع المرء أن يدخل فيها ويمشي، وأدبرت عيني فلم تلخذ لا ماءً ولا نباتاً، وصعدت طرفي إلى المسفرة المشرفة المشقة فعرستى رعدة، ومن يدري ماذا فى هذه الشقوق المظلمة الرهيبة؟ وصوبت لظلى على الأرض فوقعت عيني على ما توهمت عوداً يابساً ذلواً، فأنحيت وتلوتته وأنا أعجب من أين يجيئ هذا العود، وماذا أطاره إلى فوق ورماء هنا؟ وزاد عجبى أنه لم يكن عوداً وإنما كان حبلاً بقيقاً كالك اللون شبيهاً بما يصفى عليه الفلاحات شعورهن، فابتسمت وقلت وأنا أمز رأسى وأمين هى المرأة التى تجازف بالصعود إلى هذه القمة المفزعة؟

واشتهيت أن أنظر فى هذه الشقوق العظيمة، فخطوت على أحدها ووقفت أحديق فى ظلامها الدامس فلم أر شيئاً، فهممت بالرجوع، وإذا بعينين لامعتين تومضان فى سواد الظلمة كئهما ماستان، فوقفت كئما سمعت إلى الأرض، وزحفت إلى الماستين وأخذتا تدنوان، وأنا أنظر إليهما ولا أستطيع أن أحول عيني عنهما كئما ضريقتان يسمحرهما، ثم بدأت العينان ترتفعان عن الأرض وتطوان وأنا ذاهل مضطرب لا أتحرك، ولا أقدر أن أغمض عيني أو أرفعهما أو أخفضهما أو أحولهما، وشعرت بمثل الخدر فى أعضائى، كئما تتيمنى هاتان العينان المقلتان على بنظرتهم الزجاجية، أو كئما ألقيا على (بنجاً) طبيعياً، وأيقنت أنى هالك لا محالة، وأنه ليس بينى وبين الموت

المحتوم إلا أن تغرز الحية أسنانها المترعة بالسهم القاتل فيما تشاء من بدني، وأهل
الذي بقى لي من العمر ثانية أو بعض ثانية، ثم يمحي وجودي، وطافت برأسي صور
روجتي وأولادي الذين تركتهم يلعبون على الشرفة تحت عين أمهم فجذعت قلوباً السمر
الذي أفرغته الحية من عينها في عيني ليكبت أو سقطت على الأرض مغشياً علىّ أو
ارتكبت أعدو إليهم، ولكني كنت كلتي حجر منصوب أو تعثال مرفوع لا أملك إلا أن
أحلق في هاتين الماسيتين المرعبتين.

ثم خيل إليّ أن نظرة الحية فقدت قسوتها وإرعابها وفتر السمر القريب الذي
فيها، وبدا لي أن العينين انطلقت لعتهما المفزعة وأخذتا مرددان راجعتين في الظلام
الذي خرجنا منه، فزالموني الجمود الذي أصابني والذي كنت منه كائني مصبوب في
قالب، وعلودني الشعور بنفسي وما حولي وبإمكان الحركة، فلتحسست نفساً على
أنفي، فأنرت وجهي فإذا بالفتاة التي لقيناها في الصباح ونحن نصعد في الجبل،
تحقق في عيني الحية وتطردنا عن بقوى من نظرتها وأسمرا!

ويبت الفتاة على كتفي، وأدارتي، وتناوات ذراعي، وعادت بي إلى مجرى الماء
فمسحت على وجهي بقطرات وقالت وهي تبسّم:

ألم أنك أن تخاطر بالصعود إلى هناك؟

فلم أجبها بشيء، لأن عليّ كان هناك ولم يكن قد ارتد معي، وسمعت إخواني
ينادوني، فلم أجب أيضاً، فقالت:

انذهب إليهم، ولا تزعجهم - واحصد الله!

فانحلت عقدة لساني، وحمدت الله على النجاة والتفت إلى الفتاة فقبلتها شاكرًا
وانطلقت أعود.

إبراهيم عبدالقادر المازني

من ذكريات لبنان

بعد نهار جميل

"والآن ماذا ينبغي أن نأخذ معنا؟ حانوا أن نتمسوا شيئاً"

قالت زوجتي "لا نتمسوا الكميرا ، فسنحتاج إليها ولا شك"

وقالت فكتورين جارتنا - "الأفلام ، ما هاتئة الكميرا بلا أفلام؟"

قلت "صديقتي، وماذا أيضاً؟"

فألت زوجتي "والصابون؟"

وقالت فكتورين "ورق اللعب، اليس كذلك؟"

فقلت "والأطباق والملاعق والفوط والسكاكين" إن من يسمعكما يفيل إليه أننا

ذاهبون إلى بعض مجاهل الدنيا"

فألت زوجتي "الحق أقول لكم إنني أخشى علينا... إن هذه الجبال لا عهد لنا بها

وسنعود بالليل ، وقد كنت أفضل أن يقود السيارة رجل يعرف الطريق، رجل من أهل البلاد"

قلت "الحق معك... فإني أخشى القلج على الجبال"

فصاحت زوجتي "قلج؟ هل قلت القلج؟"

قلت "نعم ، جبال من الجليد ، وسنحتاج أن نربط السيارتين معاً بحبل واحد..

فإذا سقطت إحداهما في الهاوية جرت الأخرى معها .. ألا نكفون عن التخريف؟"

فكفوا .. وقمنا إلى مضاجعنا استعداداً للسير في بكرة الصباح

* * *

وكنا ثمانية في سيارتين. زوجتي وأولادى وأنا في سيارتنا، وجيراننا في سيارتهم، فانطلقنا منحدرين في الطريق إلى بيروت، وهو طريق وعر كثير التعرج والتلوي، ولكنه أملس كبطن الكف، غير أنه مخيف - يقوم الجبل على جانب منه، والوادي تحته من الجانب الآخر، ولا ترى منه وأنت تقطعه إلا القليل لأن علوه حول الجبل وانتشاه كالجبل أو كالحية يخفيانه، وكان الضباب في أول الأمر يمنعنا أن نسرع، ولكن الشمس بدت فأنكشفت الدنيا لعيوننا فنعمنا بجمال الوادي الأخضر، وجلال الجبل الشامخ، وقد قام الشجر الثمير على صفحه بين كتل الصخور، واختلطت فيه بهجة النور وزهرته بنضارة الخضرة، وليس أوقع في النفس من السير في طريق تشرف عليه الجبال وتقيب قبتها في السحاب فكثتها عروش للطبيعة!!!

وظلنا نتمدر وننور حول جبل بعد جبل، ونمرق من القرى والضياع واحدة بعد واحدة، وما هو إلا أن تلف مع الطريق حتى تختفي فجأة، ثم إذا هي بعد لغة أخرى تبدو لنا منازلها منتثرة وبعضها فوق بعض؛ ثم ننور مرة أخرى فتصحب ونحن لا نكف عن الانحدار ولا نزال نهبط حتى استوى الطريق واستقام، فعلمنا أننا ندوانا من بيروت، ولم تكن هي غابتنا فلمنا عن طريقها وأخذنا في طريق "عالية" ثم شعرت أن السيارة شهدت جداً حتى صارت سخونتها لا نطاق؛ فعجبت، وخفت ووقفت، فسألتي زوجتي عن الخبر، فقلت:

إن السيارة ساخنة جداً، ولا أعرف لهذا من سبب إلا أن تكون أنابيب الماء قد ثقت، فهو يسيل منها ولا يبقى فيها.

وكنا احسن الحظ في مدخل إحدى القرى فلم نجد عاء في الحصول على ماء صيبتاه فيها، ولما كنا زجاجتين استمرناهما من بعض القوم، وبعد ذلك صرنا نضطر أن نقف من حين إلى حين لنصب الماء في السيارة ولم يكن ما حملنا منه كافياً فكنا

كلما بلغنا قرية نأخذ منها حاجتنا ونحتفظ بما في الزجاجتين الطريق بين القرى حتى بلغنا "الشاغور" وكان جيراننا قد سبقونا إليه.

وقفت بالسيارة وراء زميلتها وفنحت بابها فشدت زوجتي ذراعى ومسحت بى:
"انتظر... انتظر.."

فتنظرت إلى حيث تشير، فرأيت صبيًا غريب الثياب، يلبس سروالاً - أو شروالاً - كما يسمونه أحياناً في مصر - وقد لف على خصره - إذا جاز أن يسمى هذا خصراً - حزاماً أحمرًا عريضاً، ومن فوق ذلك - أو من تحته إذا شئت - صدرية من الحرير المخطط تجمع طرفيها سلسلة من الأزوار تنتهى عند العنق، وعلى رأسه لفة كبيرة، وفي كلتا يديه نقاعة عتيقة يهوى عليها بأسنانه

وقالت زوجتي: "أين الكثير؟ به يقف حتى أموره؟"

فدفوت من الصبي وأنا أقول لنفسى: "أصيب عصفوريين بحجر: أستوقفه حتى ترسمه زوجتي، وأكل إليه حراسة السيارة، ولكن الغلام رأيى مقبلاً عليه، فجعل يتراجع، وبه على، وأسنانه تعمل في النقاعة، ولم يكن ثم شك في أن الصبي الأحقر يخشى أن أخطف النقاعة منه، فهو لهذا يدير كلما أقبلت، وكنت أطمئنه وأؤكد له أنى لا أريد به سوءاً وأن فى وسعه أن يكل نقاعته على مهل، ولكن هذا كان يزيد خوفه، فقد أسرع في القمص وصار فيما أرى يزترد ولا يمشى، ولا أدري لماذا ألححت في دعوته أن يقف ويتمهل فقد كان هناك غيره ولم يكن ثم ما يدعو إلى الخوف على السيارة، ولكن الذى أدريه أنه فرغ من النقاعة ورمى وجهى بما بقى منها فاصاب أنفى ولما أفقت، التفت إلى زوجتي، وقالت:

"هذه جنائتك"، وقد كان أنفك لولى، ولكن الإباء يتكلمون الحصرم والأبناء يضرسون" فضحكت.

وكان جيراننا قد خفوا إلى مكان الملائكة وعرفوا ما كان قانطلقوا يتقهقرون معها، وقالت زوجتي

لقد استلعت أن ألقط صورتك حين وقعت التفاحة على أنفك

قلت: 'سكنون الصورة نكرى جميلة.. أليس كذلك؟ وهذا جزء الأحق الذي يتزوج... يجرى بأمرأة فيطعمها، ويكسوها، ويبرها ويمسحها ويماني من أجلها وهي سبيلها المتاعب والمفصلات، وتضحك منه حين يتبقي أن تعكف عليه وتكلم له' فلم نعبأ بي، ومضت عني مع الجيران، وهي تضحك.

* * *

ونعمنا بيوم جميل في الشاعور، ولم يكن أقل ما مررتا مومنا على العشب، والماء إلى جانبنا يضرج من بين الصخور دافقاً راغياً يتحدر من صخرة إلى صخرة كالشلال، وانقضى النهار، وإن أن نعود من حيث جئنا، وكانت السيارة قد أصلحت في خلال ذلك، فركبنا وانطلقا راجعين.

وقلت لزوجتي وقد بلغنا البيت: 'هاتي المفتاح'

قالت: 'أى مفتاح؟ إنه معك..، لقد كتبت أنت الذي أغلقت الباب، وأظنك وضعت المفتاح في جيب البطولون'.

وكان مفتاحاً كبيراً عتيقاً لا يعقل إلا أشعر به إذا كان في جيبى، ومع ذلك بحثت، وأخرجت الجيوب ونقصتها أمامها، وأوسعت السيارة بحثاً عسى أن يكون قد سقط منى فيها، فلم أجد له أثراً، فقلت وقد نصبت

'أسوأ ختام لخير تهار... لا بأس..، والآن لم يبق إلا أن نجى بضمة نقيصها هنا، أو أن يضيفنا الجيران وإن كان بيتهم لا يكاد يسمعهم، أو أن ندخل البيت من النافذة..، وام لا؟ مسحيح أنها مغلقة..، ولكن ما قيمة هذا..، نطاق خشبيها بالفأس، ونحطم زجاجها..، وكل ما ينقصنا لئيمس ذلك..، سلم طوله ستة أمتار على الأقل..، وفأس..، الأمر سهل جداً كما ترون.. أم خير من ذلك أن أحملك على أسناني وأنفخك على

النافذة، فإنك خفيفة كغلالة الورد . ولكنى أخشى أن تطيرى إلى بيت آخر!

فقرصتى قرصاً وجيماً ولم لكن أتوقع ذلك فصرخت من الألم.

ولما قرت الضجة، قالت: "ألا يوجد في هذه البلدة نجار؟"

فاستحسنت الرأي، وأشرت عليها بالصعود مع الجيران إلى بيئهم حتى أجد نجاراً، وكنت أظن أن الأمر لا يكلفنى إلا سؤالاً ألقيه إلى واحد من أهل البلدة فإذا النجار حاضر بفترة ريك، ولكنى مشيت بضعة أمثار لا أقل من خمسة - وأنا أنور وألف، وضيعت أكثر من ثلاث ساعات قبل أن أجد النجار، ولما وجبته أخبرنى أنه ليس عنده شيء يستطيع أن يفتح به الأقفال، واستمهلتى ريثما يبحث .. واستغرق ذلك ساعتين أخريين، فلم ندخل بيتنا إلا بعد منتصف الليل!

ولا أزال أحاول أن أحتفظ بذكرى ذلك النهار - على الرغم من التباهة التي بططت أنفى - وأن أنسى هناك تلك الليلة ولكن التكررتين في قرن، وكل منهما تثير الأخرى، فما العمل؟

إبراهيم عبدالقادر المازني

سوء تفاهم^(١٥٧)

كانت الساعة العاشرة حين خرجت السيارتان إلى الطريق العام - أو سمعنا إليه إذا أردت الثقة فإن الأرض هنالك في لبنان، قلما تكون مستوية - وكنت أقود إحداهما وسمي فيها زوجتي وأبنائي، وفي الثانية أقارب لنا يقضون الصيف في "صهر الشوير" وقد مروا بنا في بكفيا - حيث كنا نقضي الصيف - ليرافقونا إلى "الشاغور" حيث دعينا إلى الفداء عند أسرة صديقة لنا من يافا، وتوكلنا على الله وأخذنا الطريق إلى بيروت وكله من بكفيا انحداراً وبعضه أوعر من بعض، ولكني كنت قد ألفته وراحتني الخوف من التواءاته وتعاريفه المادية التي يشب عنها القلب إلى الطق، وكان اليوم مشرقاً والمناظر على الجانبين مما توتج العين إليه وينشرح الصدر له، والطريق أحسن ما يكون معومة وملاحة وإن كان مما يثير الرأس أحياناً أن يصوب المرء عينه من الجبل الأخضر من ناحية إلى الوادي العميق من الناحية الأخرى؛ وكان لا بد من العناية والحذر في السير لشدة الانحدار وكثرة المنعرجات وازدحام الطريق بالصاعدين والنازلين فيه بالسيارات الخفيفة والثقيلة والضخمة والصغيرة، فكان البطء الذي اضطررنا إليه الحذر من أسباب المتعة فاستطعنا أن نتملي بالمناظر التي حولنا وأن نتحدث كما نشاء ونجنب الصمت الذي تدعو إليه السرعة والذي لا يكون إلا ثقیلاً على المسافرين.

واحتجنا أن نتروى من "البنزئين" ولم يكن معنا إلا ورق مصري، فقالت زوجتي وأنا أناول الرجل ورقة مصريه بجنيه وأخذ الباقي. "ماذا أعطاك؟"

(١٥٧) نشرت في الرسالة، ٢٦ ديسمبر ١٩٦٦، (ص ٦٦ - ٦٨).

فتفتحت لها كفي على ما فيه فنظفته وعنته، ثم سألتني: "كم أعطوك؟"، "إني لا أفهم"، قلت. "الجنيه المصري يساوي ٢٩٤ قرشاً سورياً، وقد أخذوا حقهم وأعطوني حقي وهو مئة".

فقال زوجتي والتفتت لأقاربنا: "كنت أفهم"، لقد كان الجنيه يساوي ٢٩٧ قرشاً. فقلت: "ولكن الغريك ارتفع وارتفعت تبعاً له العملة السورية".

فقال مستغربة: "ولكن لماذا أهملت أن تستبدل القنود المصرية قبل أن يهبط؟" قلت وأنا أبتمسم: "إنه لم يهبط بل ارتفع".

فقال وهي تخط: "كيف يكون ارتفع وهو قد هبط.. ألسنا نأخذ أقل؟" فقلت قريبتنا: "تمام"، ٢٩٤ أقل من ٢٧٩.

فقلت: "يعني أشرح لك الأمر.. تصوري أن الفرنكات التي في الدنيا كلها انتقلت تلقاحاً". فقلت زوجتي: "نعم".

قلت: "وتذهبين إلى السوق وتجنين التفاح كثيراً فتشتريين الألف بخمسة قروش" قالت: "نعم".

قلت: "وفي أثناء الليل يرتفع التفاح". فقلت قريبتنا: "كيف يرتفع؟".

قلت: "يقال.. هـ، يتعفن.. يسرق.. تصيبه آفة.. يقل والسلام؛ فإذا ذهب تشتريين أخذت بالقروش الخمسة أقل من ألف".

فقلت قريبتنا: "يعني أنه يهبط؟" قلت: "يصدق".

قلت: "كيف يصدق وهو أقل؟".

فقال زوجها "اسمعي.. أنا أفهمك المسألة.. تعرفين مقياس الحرارة؟

قالت: "بالطبع.. ماله؟"

قال: "لا شيء..". تتظرين إليه يوماً فتجدين أن الرقم الذي يشير إليه ثلاثون؟،

قالت: "نعم"

قال: "وفي اليوم الثاني تتظرين إليه فإذا الرقم قد صار ٢٨..". ومعنى هذا أنها هبطت،

قالت: "نعم"

قال: "أما الفرتك فإن المعنى يكون العكس"

قالت: "نعم"

قال: "هذا كل ما هناك"

فخطرت إليه كالذهولة وكنا نحن نضحك: فقالت زوجتي وهي تجرها "اسمعي..
إنهم يضحكون منا ويخيل إليّ أن أسلم طريقة أن تقول إن الفرتك ممدد كلما فهما
أنه هبط"

واستأقنا السير وكنا قد ملنا عن طريق بيروت إلى طريق (عالية) وفرغنا من
الانحدار وبدأ الصعود والطريق في هذا الجبل لوسع وأرحب والتواؤم أقل حدة،
فلأطلقنا للسيارتين العنان، ولم تمنع السرعة زوجتي أن تتكلم فقالت: "كنتي أشعر أننا
لن نجد زيتاً".

تعني الصديقة التي دعقنا إلى الغداء ففرغت وكأنت عجلة القيادة تضطرب في
يدي وقلت لها بصوت تشي لهجة بالقي: "لماذا؟".

فلم تجب بل مبتلتي: "ماذا قلت لها بالتلفون.. بالهبط؟".

قلت: "قلنا كلاماً كثيراً..". وأصعدت عليها أن تجيء لتغذي معنا في بكتيا ولكنها
أصبرت إصراراً شديداً على أن نذهب إلى الشاغور، وأتكر تماماً وبغاية الوضوح أنها
وصفت لي عين الماء التي هناك".

فأشارت إليّ بكفها أن اسكت وقالت: "ماذا قلت لها بالضبط، هذا ما أريد أن أعرفه فلا تفرقه في طوفان من الوصف الذي لا يفيد شيئاً ، وإذا كنت تريد أن تصف الشاغور فانتظر حتى تراه"

قلت: "ماذا قلت بالضبط ؟ يا له من سؤال.. لتفقتا على اليوم.. وأؤكد لك أنني لم أترك عنديها أي شك فيه.. صرخت حتى يح صوتي ، قلته بالعربية ، وقلته بالفرنسية

فصاحت زوجتي: "Samedi"

قلت: "بأعلى من هذا الصوت"

قالت: "هل قلت Samedi.. هذا معناه السبت لا الأحد"

فتداركت الخطأ وقلت وأنا مضطرب: "لا لا لا لا بل قلت Dimanche"

وجرى بيالي أنني لا أزال أغلط في أسماء الأيام باللغة الفرنسية ولكني كافحت هذا الخاطر حتى نفيت وطرفته وقلت لها: "وهيئي أخطأت قد قلت لها بالإنجليزية Sunday ولا يمكن أن أغلط في هذا".

قالت: "سنرى"

فقلت وأنا محقق: "سنرى" ، ألا يمكن أن أتكلم بالهاتفون من غير أن تهتميني بالتخليط.. هل هذا الهاتفون معجز ؟ سبحان الله العظيم!"

قالت: "طيب اسكت بقي"

فسكت، ووصلنا الشاغور وبخطنا التفتق وسألنا عن السيدة وزوجها فقيل لنا إنها خرجت منه في الصباح الباكر وإنهما قالا إنها سيرجعان بعد المغرب فنظرت إليّ زوجتي نظرة دات معني، ولم تكفها النظرة بل راحت تقص الحكاية على أقرابنا بأسلوب وكلام لا يدعان أي شك في أنني حمار من أطول الحمير أداناً وأنا ساكت، لأن

كل شيء كان يثبت أنها هي الصائفة وأنا الكاتب أو على الأقل المخطئ، ولا أحتاج أن أقول إنني اضطررت أن أطعم كل هذا الجيش على حسابي، ولكن اليوم كان على الرغم من هذه الخسارة الفادحة ممتعاً وكان أحلى ما فيه أننا نمنا على الأرض بعد الغداء الباهظ التكاليف بجانب الماء الذي يتدفق كالشلال من العين وهو يريغ وييزيد ثم يتحدر في أفتية ضيقة محفورة له تتخلل الحديقة الواسعة.

ولما أن أن نعود تركت هذه الرقعة لصديقتنا وزوجتي:

"لا شك أن النسيان أرخص، ولكنه كلفني ما أخشى أن أحسبه، فقد جئنا إليك من غير أن نفطر فنجوتما أنتما ووقعت أنا في الفخ! وصدق مرة أخرى أن من حفر بئراً لأخيه وقع فيها، على أن هذا هين وإنما الذي يضيق صدرى به ولا أكاد أقوى على احتماله أن زوجتى تحملنى التبعة عن هريكم، وإذا كنت لا أطعم فى أن تردوا إلى ما أنفقت على إشباع هذه البطون الجائعة كلها، فإني أطعم أن تردوا ثقة الزوجة بى وذلك بأن تعترفوا بأنكم هريتم."

ولم نكد نبلغ بيتنا حتى وقفت الصائفة - كما يسمون الخادمة فى لبنان - وقالت لنا: إن السيدة زينب وزوجها كانا هنا ونفقت إلى ورقة فيها هذه العبارة الوجيزة:

"لا بأس! لعلكم تسيتم، والآن يجب أن تجيئوا أنتم إلينا، وإن نهرب منكم كما هريتم منا."

قرأتها وهيمت أن أنسها فى جيبى ولكن زوجتى سألتنى ماذا فيها؟ فقلت إنهما يعترفان بخطنهما، ونفقت إليهما الرقعة ونهيت أعدو، وكيف أقنعتها بأن الذى وقع خطأ غير مقصود... كلا، لا فائدة، والهرب أحجى وأرشد... حتى تهوا الفورة.

إبراهيم عبدالقادر المازنى

المراجعة اللغوية : هبة الله المخلص

الإشراف الفني : ماجدة ضياء

يجمع المازني في هذه الرحلات الأقوال والحكايات التي تؤيد رؤيته في الحياة والتقارب الذي يأمله بين أقطار المشرق العربي. ولقد كان المازني مسكوناً بفكرة الروح العربية وضرورة استكشافها. ففي الوقت الذي وجدت فيه تيارات تدعو للفيتيقية والفرعونية نجدد يطوّر من خلال الرحلة انفتاحاً على المشرق العربي بهدف الاستكشاف والتعارف والتقارب تمهيداً للتعاون. فالمازني في رحلاته مهووم بما أسماه "روح الشرق العربي الواحدة" وهي الشكرة التي يكررها تحت مسميات عدة مثل "روح المروية" أو "المعنى العربي" أو "الحركة العربية". وهو لا يخفى أن هذا هو الهدف المباشر والدافع الأساسي لرحلاته، أن يثبت لقارئه تلك القرابة الروحية التي لا فرق فيها كما يقول "بين العراق والشام ولبنان وفلسطين والحمجاز ونجد واليمن".

لقد كان التعرف على الجوانب التي تبرز هذه الروح في الأماكن التي يزورها هو هدف المازني الأساسي دائماً، فرحلاته - أو الصيغة التي قدمها بها - كانت بمثابة محاولات متكررة لاستكشاف هذه العربية المشرقية الواحدة.

